

مکرا خلیفتہ



الکتاب محمد حسین علی



A

طبعة ١٩٨٤

هكذا خلقت!

قصّة عربية

محمد حسين هيكل

الأستاذ محمد حسين هيكل

هكذا خلقت!

قصة طويلة

الطبعة الثالثة



دار الحديث

تقديم

كانت أسرتي في المصيف ، وكنت أتردد بين المصيف والقاهرة لبعض شتوي . وقد اعتدت في ذلك العهد أن أنزل فندق « مينا هاوس » ، أستمتع من نوافذه بمنظر الهرم والصحراء ، ذلك المنظر البديع في كل حين ، وهو الروعة والسحر في الليالي القمرية ! . . . ويزيده سحراً ما يسري إلى نفسك معه من نسيم عذب يتسبك قبض النهار ، ويتبعث خيالك إلى تصور القرون الخالية ، حين كان أجدادنا يشيرون هذه الأهرام الضخمة ، لتكون مقراً للفرعون الذي أمر بشييدها ، سكناً له في حياته الآخرة ! . . .

وكنت أستيقظ بكرة الصبح فأنزل إلى حديقة الفندق أجوس خلالها ، ثم أتناول طعام فطورى تحت شجرة من أشجارها الباسقة ، وكثيراً ما كنت أقضى في هذه الحديقة سويعات الغروب ، ولم يكن نادراً أن ألقى بعض الأصدقاء الذين يجيئون إليها من العاصمة يتفنون في رقة نسيما وبعدها عن ضجة المدينة ما يعرضهم عن جهد نهارهم ويقله ! . . .

وإني يوماً لجالس قبل الغروب ، أتوقع أن أرى بعض هؤلاء الأصدقاء ، إذ رأيت فتاة شابة تقبل على متابطة حافظة أوراقها ، ثم تفزع عندي وتسلم على باسمي . ولم يدهشني أن عرفتي ، وأنا لا أعرفها ، فكثيراً ما يقع ذلك لي ولأمثالي ، وكثيراً ما يقدم إلى بعض الشبان والشابات كراسات صغيرة ،

ويطلبون أن أوقع باسمي على صفحة من صفحاتها ، أو أن أكتب فيها عبارة ما .

ولقد خيل إلي أن هذه الفتاة تقبل على مثل هذا الأمر ، وأنها ستخرج من حافظة أوراقها كراسها ، وتطلب إلي أن أوقع باسمي عليها ، أو أكتب لها عبارة تعزيها بين صديقاتها ، لكنها لم تفعل من ذلك شيئاً ؛ بل رأيتها ما لبثت حين رقت أمامي أن استأذنت في الجلوس . فلما هممت بعد جلوسها أن أدعو الخادم ، ليقدم لها ما تطلب اعتذرت وشكرت وقالت إنها لا تريد شيئاً ، ولكنها قدمت في مهمة كلفت بها ، وكل الذي نرجون فيه ألا أسألها عن شخصيتها ولا عن كلفتها هذه المهمة .

وبعد هنيهة خضعت حافظة أوراقها ، وأخرجت منها ملفاً أثيقاً وقالت :
هذه يا سيدي قصة كتبها صاحبها ، ورغبت إلي في أن أضعها بين يديك .
وقد تركت لك الحرية المطلقة في شأنها . لك أن تقرأها أو تهملها ، فإذا تفضلت وأضعت وقتك في قراءتها ، فلك أن تلقي بها في النار ، أو تحفظ بها بين المهملات من أوراقك ، ولك إن شئت أن تنشرها على الناس . فإذا كان ظا من الحظ أن راقنك فنشرتها ، فستكون هي إحدى قاراتها ، ولن تعرف أنت ولن يعرف غيرك عن صاحبها شيئاً ! . . هذه يا سيدي رسالتي ، وهذه هي القصة في ملفها ، أدعها بين يديك ، وأستأذنتك في الانصراف ! . .
قولتي الدهشة لهذه المفاجأة ، فخلقت بالفتاة الشابة وقلت : قد أفهم أن تحرص صاحبة القصة على ألا أعرف أنا ، أو يعرف غيري من هي ، وأن يفضيها هذا الحرص على أن تجعل منك رسولا يحمل إلي قصتها . لكنني

لا أفهم سبباً يدعوك أنت لإخفاء اسمك وكل ما يتعلق بشخصك ، إلا أن
تكفى أنت صاحبة القصة . . .

قالت : كلا يا سيدى ، لست أنا صاحبة القصة ولا كاتبها ، وسرى حين
تلوها أنها قصة سيدة فى سن والللى ، إن لم ترد على ذلك . . .

قلت : فما يمنعك إذن من أن تذكرى لى اسمك ؟ . . . إنك شابة رقيقة
يلمع فى عينيك الجميلتين ذكاء ، قل أن تعبر عينا أنى عن مثله . ولعل إن
سعدت بمعرفتك أن أكون أكثر سعادة بمعركة من تمنين إليهم بصلة ، فمن
تربطى بهم صداقة أو معرفة . . .

قالت : ذلك أدعى ألا تعرف عنى شيئاً ، وقد استعطفنى صاحبة
القصة ألا أذكر لك شيئاً عن شخصى ، وقطعت لما المهدي والميثاق أن أكون
عند رجليها . . . وأحسبك يا سيدى تشجنى على أن أحفظ عهدى ،
وتسمح لى بالانصراف .

قالت ذلك وهمت بالوقوف ، وأيقنت أن ما أبذل من جهد لمعرفة اسمها
أو شخصيتها سيلعب سدى ، فوقفت وودعتها قائلاً :
لعل أراك من بعد .

وأجابته : علم ذلك عند رجلي . . . وانتقلت فى رشاقة ، وسرعان ما انحضت
عن ناظرى ، تاركة لى هذا الملف الأنيق الذى أخرجته من حافظة أوراقها ؟ . . .
وكان الملف مربوطاً بشريط من الحرير الأزرق زرق السماء ، فككت
رباطه وأجلت بصرى فى صحف القصة الأولى ، ثم إتنى تخطيت هذه
الصحف إلى فصل يتوسط القصة فإذا هو شير طلعى ، بل شير دهشى ، وتكاد

نهز لقراءته أعصابي . عند ذلك آثرت أن أضعه إلى غرقى وأن أبدأ قراءة
القصة من أولها ، وفعلت ، وإتني لأتابع القراءة إذ دق المخادم باب الغرفة
وقال : ألا يتزل سيدى ليتناول عشاءه ، فقد جاوزت الساعة التاسعة ١٢ . .
وأجبت : بل أوتر الليلة أن أتناول طعاماً خفيفاً . فأحضر لى ها هنا خبزاً
وجبناً وأكثر من الفاكهة .

وخرج المخادم بعد ما طلبت ، وعدت أنا أتابع قراءة القصة ، وكنت
كلما انتقلت فيها من فصل إلى فصل تولتى الدهشة . فصاحبها تروى حكاية
حياتها فى بساطة ويسر ، يكاد يغيب إليك معهما أنها حياة عادية لأية امرأة
تعرفها ، ولكنك تقف بعد قليل دهشاً تسأل : ما هذه المرأة ؟ . . ومن
هى ؟ . . إنها فريدة فى طرازها ، بل هى نسيج وحدها . . إنها تحب الحياة ،
ولا تريد مع ذلك أن تسلم للحياة أمرها ، بل تريد أن تصوغ الحياة كما
تشاء هى ، فإذا صدمها الواقع لم تدعن لصدمته ، بل حاولت أن تواجهه
فى كبرياء المعتر بنفسه ، المؤمن بقوة ، لتبلغ آخر الأمر إلى الإسلام للحياة
ومقاديرها ، وللطبيعة وحكمها .

والعجيب فى أمر هذه البطلة أنها لم تقف إزاء معركة من المعارك الكثيرة ،
التي خاضتها ، لتحلل نفسها ، ولتجاهد كى تصطح ما يكاد الدهر يفسده .
بل هى تستغل فى قصصها من معركة إلى معركة ، وقد كان فى مقصودها أن
تجد فى حمى السلام ملجأً ينجيها هذا النضال ، ويظلمها بوارف من الطمأنينة
بل السعادة ، لكنها لم تكن تعرف للطمأنينة معنى ، ولم تكن تفهم السعادة
إلا أن تكون هى المتحركة فى أقدارها وأقدار غيرها . فلما طال بها أمد النضال

وشمرت أنها أصبحت كالكرة تتقاذفها الأهواء التي ابتدعتها هي ، من صنع
يدها ، لجأت إلى الحصن الذي يلجأ إليه كل من عشت به أنواء الحياة ،
لكنها مالئت أن اضطرت للخروج من هذا الحصن ، لتدعن آخر الأمر
لحكم القضاء ، ولسلطان الطبيعة .

لم أتم تلك الليلة حتى فرغت من قراءة القصة ، فلما أصبحت فكرت :
من تكون بطلتها ؟ ومن تكون الفتاة التي حملتها إلى ؟ ولماذا اختارتي صاحبها
لتدفعها إلى ، وتترك لي مطلق الرأي في مصيرها ؟ . وماذا عساي أن أفعل
بها ؟

ألقيا في سلة المهملات ، أم أدفعها طعاماً للنار ؟ . كلا ! . . فهي
تستحق غير هذا المصير لا ريب ، وإن أنا فكرت في نشرها ، فأى عنوان
أختار لها ؟ . . لقد تركتها صاحبها بغير عنوان ، أنا جعل عنوانها : قصة
امرأة . . . لكن قصص النساء كثيرة ، وليست هذه البطلة في غمارها تيك
النسوة اللاتي أحبين أو أبغضن ، كما تحب كل امرأة وتبغض ، بل إن أحبها
وبغضها لطابعاً خاصاً بها ، لا يتسق هذا العنوان معه ! . .

وما لي لا أأخذ عنوانها من طريقة تحريرها ١٩ . . فلم يرد فيها اسم بطلتها ،
أو اسم شخص من أشخاصها برغم وضوح شخصياتهم جميعاً ويزورها . .
ما لي لأجعل عنوانها : قصة بلا أسماء ؟ . . ثم ما لي لأجعل عنوانها صفة
اختارتها البطلة لنفسها في آخر قصتها : المذنبه الناشئة ، أو صفة أخرى اختارها
لها زوجها الأول : غيرة وغرور ؟ . . وترويت في اختيار العنوان طويلاً ،
ثم أهتمنى شخصية البطلة بشلوذها وقكاها وجاذبيتها ، وبغرورها وغيرها ،

كما أغتنى الخاتمة التي أضافها ذبلا لروايتها ، فجعلت عنوانها : « هكذا خلقت » ، مقتنعا بأن هذا العنوان يصف البطلة وطريقة تفكيرها أصـوـر الوصف ! . .

ولا أريد أن أحكم لهذه القصة أو عليها ، وحسى أن أذكر أن حديث البطلة عن نفسها جعل القصة أكثر واقعية في تصوير عواطفها وإحساسها ، وتطور هذه العواطف والمشاعر في دخيلة وجودها وهي في غمرة المضطرب الذي تعاني العيش فيه .

والواقع أن ما صورته هذه القصة لا يزيد على أنه أثر من آثار التطور الاجتماعي الذي شهدته مصر ، ولا تزال تشهده . وإذا كان في البطلة شذوذ غير مألوف فهو يصور واقعاً قل أن يجتمع كله في نفس واحدة في فترة واحدة من الزمن . . فهو يرسم لا رب صورة من صور تطورنا المتصل ، في هذا الدور الحاضر من أدوار المجتمع المصري ، وبعض البلاد الشرقية معرضة لأن تمر بهذا الدور مثلنا ! . .

ولعل من القراء من شهد مناظر في الحياة تشبه ما صورته هذه القصة ، وإن اتصلت هذه المناظر بأكثر من شخص واحد في الطبقة المصرية المستنيرة ، في هذا الزمن الذي نعيش فيه ، وتلك ألوان من الحياة لم تكن تمر بمناظر جيلنا أو الجيل الذي سبقه .

ومن الخير تصوير الجوانب المختلفة من أطوارنا في هذا الوطن إذا أردنا أن نواجه التطور الحاضر لقائدة المجتمع ، وحرصنا على ألا تسوء آثاره في بعض الطبقات زمناً طويلاً ، ولن يستطيع كاتب فرد أن ينهض بهذا العبء

الجسم ، سواء اختار التخصص أو الرسالة أو البحث العلمي أو الفلسفي ،
فحياة المجتمع تزداد تعقيداً كلما ازداد المجتمع ارتفاعاً . وقد أصبح التخصص
ضرورة في الكتابة كما أنه ضرورة في الطب أو الهندسة أو غيرها من المعارف
والأعمال الإنسانية . وغاية ما أرجو أن تتضافر جهود الكتاب على اختلاف
نزعاتهم ، ليوحي هذا التضافر مجتمعنا الوجهة الصحيحة في تطوره ، وليكفل
له سرعة السير في معارج الرقي إلى أسمى درجات الحضارة . . .

هدانا الله جميعاً سواء السبيل .

محمد حسين هيكل

الفصل الأول

ما أكبر الفرق بين القاهرة اليوم ، في هذه العشرة السادسة من القرن العشرين ، وبينها أيام طفولتي وصباي في العشرة الأولى من القرن نفسه . . . وما أكبر الفرق بين الحياة في هذه المدينة العاصمة اليوم ، والحياة فيها إذ ذاك . . .

أنا اليوم أسكن شارع الهرم على مقربة من نهايته عند فندق « مينا هاوس » وتقلني السيارة إلى قلب المدينة في عشر دقائق أو نحوها ، وذلك ما لم يكن يحلم به أحد في آخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن . . . لم يكن أحد يومئذ يسكن شارع الهرم ، بل كان النيل يفصل بين « القاهرة » وما على شاطئه المقابل لها من مزارع ممتدة إلى مدى النظر ، ولم تكن السيارات يومئذ وسيلة المواصلات ، بل لم تكن موجودة بالنسبة لسواد الناس ، ولست أذكر متى جاءت أول سيارة إلى مصر . . . لكن السيارات بقيت بعض مظاهر الرف إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، أي إلى سنة ١٩٢٠ ، فكان طبيعياً أن تظل رقعة المدينة ضيقة مع وسائل مواصلاتها ، وأسرعها عربات الخيل (الحناطير) والحمير . . . أما الترام الذي بدأ يسير في السنوات الخمس الأخيرة من القرن الماضي ، فلم تكن شبكته قد امتدت إلى ما وراء حدود المدينة كما صورتها . . .

ثم إنى لأذكر يوماً من سنة ١٩٠٩ ذهبت فيه مع أبى إلى ضاحية « مصر الجديدة » . وكانت فى بدء إنشائها . فلم يكن بها غير عدد قليل من المنازل . على مشربة من فندق « هليوبوليس بالاس » ويومئذ سمعت أبى يندى عجه : كيف نغامر الشركة البلجيكية القائمة بهذا المشروع ، باختيار تلك البقعة من الصحراء لبناء ضاحية فيها . لكن المصريين كانوا يومئذ يؤمنون بعقيرة الأجانب حتى نيكادون يضعونهم فى مصاف الملائكة أو فى مصاف الشياطين ، ولذلك كانوا يحتاطون فى الحكم على تصرفاتهم لاقتناعهم بأن هؤلاء الأجانب يدركون ما لا ندرك .

ولقد آمنت يومئذ بما أيداه أبى من عجب ، لأنه أبى ، ولأننى رأيت الترام الأبيض الذى يصل « القاهرة » « بمصر الجديدة » ينساب بعد العباسية فى صحراء خالية لا حياة فيها . فلا ترى العين على جانبيه إلا الرمال الممتدة لتلامس السماء عند الأفق .

وكانت العاصمة نهاية القاهرة من هذا الجانب ، وكانت أشبه بصاحية يقضها العسكريون الذين ألفوها فى أثناء خدمتهم فى الجيش ، لأنها تجاور ثكناته . فلما انتهت خدمتهم فيه أقاموا مساكنهم هناك ، على أرض رخيصة الثمن . لبعدها عن المدينة وعن مواصلاتها .

أما سرة المدينة فكان ميدان « العتبة الخضراء » ، منه كانت خطوط الترام تبدأ سيرها . وفيه كانت تقوم المحكمة المختلطة ميدان النشاط القضائى بين الأجانب والمصريين فى العاصمة وما حولها ، وعلى مقربة منه كانت تقوم حديقة الأريكية . التى كانت قبل مائة عام بركة ، ثم انقلبت حديقة

باسقة الشجر محاطة بأسوارها المسبعة . ومن ميدان العتبة الخضراء يمتد شارع
عابدين المعروف إلى قصر الحكم عن شمالك ، وتقوم متاجر فخمة عن
يمينك ، وينحدر شارع الموسكى ذو الشهرة العالمية لأنه كان شريان النشاط
التجارى بالمدينة .

وكان ميدان « العتبة الخضراء » والشوارع المفرعة منه يفصل بين الأحياء
المصرية والأحياء الأجنبية فى القاهرة ، فما امتد منه غرباً إلى النيل كان مستقر
الأجانب . وما امتد شرقاً متجهاً إلى جبل المقطم كان مستقر المصريين
والشرقيين وميدان مشاطهم ، لذلك كان شارع « الموسكى » تختلط فيه
العناصر الثلاثة : الشرقيون والأجانب والمصريون ، يرداد الأجانب فى جانبه
القريب من العتبة، والمصريون فى جانبه المتصل بالسكة الحديدية المؤدية إلى
أحياء سيدنا الحسين والأزهر وما وراعها إلى الحبل من أحياء وطنية صميمة ! . .
وكان سكان القاهرة يومئذ لا يبلغ عددهم الثلث بل الربع من سكانها
اليوم .

كان طبيعياً ، وتلك حال القاهرة فى العشرة الأولى من هذا القرن ،
ألا ترى فيها عمارات شاهقة كالصروح التى تراها اليوم ، وأن تتألف منازلها
من طابحين أو ثلاثة على الأكثر ، وكانت منازل الذوات وأهل اليسار أشبه
بالحصون ، ترتفع جدرانها الخارجية لتستر كل ما فيها وكل من فيها ،
ولتستر السيدات المختبرات ضاحيات العصمة بنوع خاص ، وبين هذه
الجدران كان المنزل يتألف من (سلامك) متصل بالباب الخارجى خاص
بالرجال ، ومن (حرمك) منفصل عنه هو مستقر السيدات ، ويغلب أن

تقوم أمام (الحرملك) حديقته صغيره تتسم السيدات فيها الطواء ، بعيدات
عن أعين الرجال .

وكان والدى من المصريين دوى الجناه واليسار ، فكان البيت الذى ولدت
به وشأت فيه من هذا الطراز الذى وصفت ، وكان يقع على الميدان الذى
يقع فيه تمثال (لاطوغلى) ، وكان سلاملكه يقع إلى يمين الداخل من بوابته
الكبيرة ، مكوناً من غرفة واسعة للجلوس ومن غرفة أصغر منها ، يدخل الإنسان
إليهما من برفسح أمامهما ، ويرفع الكل عن الأرض يضع درجات ، وكان
يفصل بين (السلاملك) و (الحرملك) جدار يزيد ارتفاعه على قامة الرجل ،
ومن وراءه حديقة غرس فيها الجازون ، وقامت على جوانبها أحواض من أشجار
الورد والأزهار المختلفة ، كما قامت في أحد أركانها جيلارية صغيرة تجري فيها المياه .
كنت إيان طفولتى أقضى معظم وقى في هذه الحديقة ألعب مع اثنين
من بنات الجوارى اللاتى يعملن في خدمة المنزل ، وكانت والدى إذا أراهم
دعوتى إلى داخل الدار بعثت إلى ياحدى هاتين الطفلتين أو بمجارية من الجوارى ، ولم
تكن تنادبنى مخافة أن يسمع صوتها خادم من الرجال ، أو أحد معارف
أنى الجالسين معه في (السلاملك) ، فصوت المرأة كان يومئذ عورة لا يجوز
أن تداعب آذان الرجال .

وكانت والدى من قريبات أبى ، وكان أهلها من الأعيان الذين يرون
تعليم البنات القراءة والكتابة أمراً نكراً ، ولكنها كانت بارعة في إدارة المنزل ،
تحلق كل شئونه ، وكانت لذلك مدبرة في غير شئ ، لا ترمى قرشاً في غير
موضعه ، ولا تفض على خادم ، رجلاً كان أو امرأة ، بما يحتاج إليه برغم

أنها لم تكن ترى الخدم للرجال أو مخاطبتهم .

وكانت والدتي تستقبل السيدات من صديقاتها مساء الثلاثاء من كل أسبوع ، وفي هذا اليوم كان الخدم الرجال يمتنعون بإجازة من بعد الظهر . وكان والدي يتأذى المنزل فلا يبقى به رجل إلا بوابنا العجوز المتهدم ليستقبل السيدات عند دخولهن من البوابة ويخرجهن منها ، وكنت أغتبط بمقدم يوم الثلاثاء لأنه كان أشبه بأيام العبد ، ولأن بعض المغنيات والراقصات من معارف والدتي كن يحضرن فيحين هذا الاجتماع النسائي ، وكنت قلما أحضر هذه الاجتماعات إلى نهايتها ، فقد كانت والدتي تبعثني إلى الحديقة ألعب فيها ، أو إلى صديقة لي من الأطفال كان منزل أهلها قريباً منا . لأن هذه الاجتماعات النسائية كان يدور فيها من الحديث مالا يجوز أن يسمعه الأطفال ، ذلك ما تبقته من بعد حين كبرت وحين عرفت ما تتبادله النساء من أحاديث تافهة ، أساسها الغيبة التي لا تخلو من قصص ، يألونها النساء ، ويرين عيباً لأن يسمعهن الأطفال أو يسمعهن الفتيان .

وكنت أغتبط بالذهاب إلى منزل صديقتي الصغيرة التي تجاوزنا لأن والدها كان رجلاً رقيقاً غاية الرقة ، وكان يحبها أعظم الحب ، وكان يحبنى لأنني صديقتها ، وكان يتفكرني يوم الثلاثاء وقد أعد لي هدية من اللعب التي يغتبط بها أمثالي ، فكنت أنتقمي الهدية أسارع إلى غلبه والدتي والذهاب مع خادِم من الجوارى أقضى مع صديقتي ووالدها سويحات مهيئة مهيئة .

ولما بلغت السابعة بعثني والدي إلى المدرسة السنية ، ولم يكن بينها وبين دارنا ما يدعو إلى ركوب عربتنا ، لذلك كنت أذهب مع البواب العجوز كل

سبح و أعيد معه كل مساء ومعى كتبى وكراساتى ، وكان معلم القرآن والديانة
وحنف العرفى يشغل معظم حصص الدروس معنا . فكنا نراه ثلاث ساعات
كل يوم على الأقل . وكان شيخاً وقيماً شديداً اللطف بنا ، يعاملنا معاملة الأب
نسته . فكنا نحبه ونسر بمقدمه . وكنا لذلك نحفظ الدروس التى يلقينا علينا
وبعض متعبطات أشد الاغتناب . ولهذا حفظت من القرآن جزء (عم) فى
السنة الأولى . وجزء (تبارك) فى السنة الثانية . وكنت أشعر بالمسرة حين أنلومهما
أمام والدى ما يزيدهما عطفاً على واغتناباً بناهتى ، وازداد عطفهما علىّ
وضيحاً حين رأيتى منذ تحطيت الثامنة من سبى لا أترك فرضاً إلا صليت لوقته ،
فكنت أصلى الصبح قبل الذهاب إلى المدرسة . وأصلى الظهر فى مصلى المدرسة ،
وأصلى نية القروض لأوقاتها بالمنزل ، ولم يكن العطف علىّ هو وحده مظهر
تقدير أئى لهذا الصلاح وعفه التقوى . فقد جاء يوماً إلى المدرسة وطلبنى ،
وطلب الشيخ معلم القرآن والديانة والخط ، وشكره أمام ناظرة المدرسة ،
وكانت إنجليزية . على عنائه بتقويم أخلاق التلميذات عن طريق الدين وفرائضه
ومنذ بدأت السنة الدراسية الثانية بدأنا نتعلم اللغة الإنجليزية ، وفى السنة
الثالثة كنا ندرس التاريخ والجغرافيا ، تاريخ مصر وجغرافيتها ، باللغة الإنجليزية ،
ولذلك أسرعنا إلى التقدم فيها وأمكنا أن نتكلم بها .

• • •

كان لأبى على حدود مديرتى القليوبية والشرقية ، عزبة كنا نقضى بها
حنف من الصيف فى كل عام . وكانت والدى تغتبط أشد الاغتناب بهذه الفترة
التى نقضىها فى الريف ؛ فقد كان حول منزلنا حديقة فسيحة فيها أزهار

وفراكه ، وكان كثيرون من أهلنا الأعيان يترددون علينا هناك فيجدون من
والدى مودة ولطفاً ، ويحمد والدنى في أحاديث قريباتنا الريفيات عن الزراعة
وأحوالها لونا من الحياة غير الذى ألقته فى العاصمة ، فتسل بهاتيك القريبات
للمردودات وبقصصهن ، وكنت أنا أجد فى الحديقة وفى الحقول القريبة
ما يبعث إلى نفسى المسرة . فلما بلغت الثالثة عشرة من عمري ذكرت لى والدنى
أن التقاليد تمنع خروجى نهاراً إلى ما وراء أسوار الحديقة ، وتمنع نزولى بها
ساعة وجود العمال من الرجال فيها ، عند ذلك شعرت بأننى بدأت أدخل
ميداناً جديداً من ميادين الحياة ، وأننى مشككة منى عدت إلى القاهرة
أن ألبس ملابس النساء . الحبرة والبرقع ، وألا أخرج إلى الطريق وحدى .
كانت عمى تكثرت تردد علينا فى أثناء مقامنا بالعزة ، وكانت سيدة من
أعيان الريف المحترمات فى وسطها ، المحافظات على كرامة الأسرة ومكاتها ،
المتصدقات على الفقراء والمساكين من أهل قريتها . وكانت تكبر والدنى عدة
سوات ، وكانت ورعة تقيّة قوية الإيمان بالله ورسوله ، شديدة المحافظة على
فروض دينها ، تصلى الخمس فرضاً وسنة ، وتصوم ثلاثة الأشهر : رجب
وشعبان ورمضان . وكان والدنى يحبها ويحترمها ، وكانت تغلق على من
عطفها وحبها ما كنت أغتبط به ، وكان حبها الشديد إياى يرجع إلى أننى
كنت ، برغم أننى تلميذه بالمداوس ، شديدة المحافظة على فروض دينى ،
وكنت أتلو عليها من سور القرآن ما يثلج صدرها ، سواء أفهمته أم لم تفهمه .
وكانت عمى تقضى معنا أحياناً أسابيع متعاقبة ، وكان لها غرام بأن تقضى
عليها صوراً من ماضى الحياة فى الريف ، هنا الماضى الذى تطور فى نظرها

تظنر بالآ تظلمن إله نفسا . وكانت تقص على من تلك الصور ما يثير عجبى
كانت تذكر أن أسرتنا التى استأثرت بعمليه البلد ومشيختها ، ولا تزال
نستأثر بهما . كانت تعد بالعشرات وتقيم فى منازل عدة ، وأن الفلاحين الذين
كانوا يعملون فى أراضينا كانوا يجتمعون كل مساء بعد صلاة المغرب فى صحن
الدار الكبيرة يتناولون طعام المشاء الذى يطهى لعشراتهم فى هذه الدار ،
ثم لا يصد عن الطعام فقير وإن لم يكن يشتغل معهم فى المزارع ، وأنهم
جميعاً كانوا ينظرون إلى جدى لأبى على أنه والدهم جميعاً ، فلا يتزوج أحدهم
إلا بعد مشورته . ولا يختلف اثنان إلا احتكاكاً إليه وقبله حكمه ، ولا تطلق
امراة من زوجها إلا بعد أن يقتنع بأن الصلح بين الزوجين غير مستطاع .
وكانت تذكر أن هذه الأبوة لم تكن مقصورة على أبناء الأسرة والعمال فى
مزارعنا ، بل كان أهل القرية جميعاً يتزلون على حكم جدى اقتناعاً منهم
بعدائه . ومأنه رجل صالح يخاف الله ولا يرضى بما يغضبه ، وأنه إلى ذلك
رجل خير يعين البائس والمحتاج ويأنف أن يتدخل فى شئون البلد غريب أو أن
يستبد بأهله حاكم ظالم .

وإن نسبت الكثير مما قصت على إد ذاك قلن أنسى تصويرها للقرية
المصرية فى النصف الثانى من القرن الماضى فهذه الصورة لا تزال عالقة
بذاكرتى . وهى تجعلنى أرى أهل تلك القرية يعيشون عيش القبائل فى البادية
برعم أنهم أهل زراعة ، ولم يكن هذا النوع من العيش عجيباً فى ذلك العهد
فقد كانت كل قرية تعيش فى عزلة عن غيرها من سائر القرى ، لأن المواصلات
السريعة لم تكن قد ابتكرت ، وكان أهلها لا يكادون يسمعون شيئاً عن حياة

لكن ، إلا ما اتصل منها بعقائدهم وإيمانهم الراسخ بالمشايخ والأسياذ ،
وتعلمهم لزبارة هؤلاء الأسياذ للتبرك بهم ، ولم يكن ذلك مستطاعاً لغير
دوى اليسار ومن يلوذون بهم ، أما سائر أهل القرية فكانوا يمضون حياتهم
كادحين في غير ملل ، مؤمنين بأن الله قسم الحفظ ، وأنا لن يصيبنا إلا
ما كتب الله لنا ، هو مولانا عليه توكلنا وعليه فليتوكل المؤمنون .

كنت أطيل الاستماع لحنى وأطرب لحديثها ، وكنت أشد اغتباطاً بما تقع
عليه عيني من مناظر هذا الريف المعتقة حين أتردد عليه غير مرة خلال السنة ،
ولم يكن جمال الريف هو وحده الذي يأخذ مناظري ، بل كان في من الطمأنينة
إلى أهله حظ عظيم ، وكيف لا أطمئن إليهم وأنا أرى من مظاهر ورعهم وتقواهم
ما يشير إعجابي . لقد كنت أخرج مع والدي أحياناً بعد الغروب فأرى أحدهم
يقوم لصلاة العشاء في مصلى ساذج مفروش بالحلفاء على حافة التربة بعيداً
عن الأعين فيتردد لذلك قلبي ، وتتأثر بهذا المنظر كل مشاعري فهذا الرجل
المتفرد وسط لا نهايات المزارع في هذه الساعة من المساء يدعو به ويستغفره ،
كان مثال الورع في نظري ، ولم يدر يخلد في تلك الأيام من طمولي وبدء
صباي ما عساه يدور برأسه في أثناء صلاته أو بعدها من أفكار قد لا يرضى الله
عنها ، بل كنت أؤمن بأنه في وحدته قريب من ربه ، وأن حرصه على فرض
دينه خير شاهد على بقاء قلبه وصفاء سريرته .

وعدنا إلى القاهرة في أحريات الصيف من تلك السنة وأنا مشككة أن أدخل
ميداناً جديداً من ميادين الحياة ، وأن ألبس ملابس النساء : الحيرة والبرقع .
وإني لأذكر اليوم في ابتسامة لا محلو من مرارة ما كان يدور برأسي الطفل إذ ذاك

من غبطة هذا الانتقال من حرية الطفولة إلى قيود المرأة ، هذه الغبطة التي لا تعبر لنا إلا التطلع إلى المستقبل الذي كتب على جنسنا ، والذي لا نعرف غيره ولا مفر لنا منه . والذي تنتظره كل فتاة ، أو على الأقل كانت تنتظره فتاة ذلك العهد وترى فيه أحلام السعادة . ويرى أهلها فيه أحلام الطمأنينة إلى الحياة . أقصد الزواج . آواه لو علمت كل فتاة ، وآه لو علم أهلها ما ينهى ثقيب . . .

لا أريد أن أسبق الحوادث أو أعبر عما شعرت به في لحظة غير اللحظة التي أكتب عنها . لقد كنت يوم دخلنا القاهرة في ذلك العام سعيدة تفيض عن المسرة . . لقد كنت أحيو من الطفولة إلى الصبا في صحبه وقضائه ، وكانت تحيط بي كل أسباب النعمه على ما كان يتصورها ذلك الجيل . كان أبواي يسبقاني إلى رغباتي ، وكتب أجدر من حنانهما وعطفهما وبرهما ما يسبغ على الحياة خير ألوانها ، وما يجعلني أشركأنتي في جنة الخلد ، وكان تقدير أساتذتي في المدرسة وتقديمي فيها يزيدي نعيماً وغبطة .

وكان الأمل الباسم الذي يفتح أجنحته الأثيرية للشباب الموشك أن تفتح كما تفتح الأزهار يشر أمام خيالي الساذج ألواناً من المناعة لم أعرف لها في الحقيقة مثالا . وكان مرجع رصاي يومئذ عن نفسي إلى ما عرفت به بين زميلاتي في المدرسة من حسن الخلق لشدة محافظتي على صلواتي ، حتى كان بعض معلماتي يسميني « رضوان الجنة » نسبة إلى حارس جنة الخلد ، وحدث لشدة عنايتي بمصلي المدرسة .

وبعد أسابيع من استقرارنا في العاصمة فكرت والذي في أن تفصيل لي حيرة

ألبسها وألبس البرقع معها ، وهذه المناسبة جعلت أذهب معها إلى المحال التجارية لتختار القماش المناسب وإلى الخياطة لأفضل الحبرة ، ويومئذ أحسست أن شعوراً جديداً يخالط نفسي ، شعور الأنوثة التي تسرى في عروقي وأعصابي ، كما يسرى ماء الحياة في الشجر فيزده رواء ، ويزيد خضرة أغصانه بهجة وأكمام أزهاره تمتعاً .

ولقد كنت إذ ذاك أعنى بملاحظة السيدات المبرعات وما يسبغه عليهن الحجاب من جمال يزد عيونهن النجل روعة وبراعة ، وكنت نحيفة القوام معتدلة ، وكانت والدتي لا تفتأ تلفتني إلى هاتيك السيدات الممتلئات يتحدثن جسمهن البض عن معاني النعمة وتكاد تؤنبن لنحافتي ، بل لقد كانت تذكر لي أن من هاتيك السيدات من تشعر بنحافة جانب من جسمها فتطالب « الخياطة » بأن تضع تحت الحبرة أسلاكاً أو تحشوها فتستر هذه النحافة ، مع ذلك بدأت أشعر أن في عيني من الجاذبية ما يغني عن هذا الجمال المصطنع ، وإن لم أجرو على أن أذكر شيئاً من ذلك لوالدتي .

ولبست حيرتي وبرقي وانتعلت حذاء عالي الكعب وأخذت أخرج مع والدتي إلى الأسواق وفي بعض زياراتها لصديقاتها فإذا هذا الشعور بالأنوثة يزداد في نفسي ، وإذا حيويته تسرع إلى النماء أضعاف نحوها قبل أن ألبس الحبرة والبرقع ، ولعل ما شعرت به من اختلاف نظرة الرجال إلي في أثناء سيرى مع والدتي عما كانت عليه قبل هذا الحجاب قد كان سبباً في هذا التزايد السريع في نمو شعوري .

وأدى ذلك بي إلى مزيد من هتائتي بهنداسي ، فكنت أقضي أمام المرأة

١٠ . أصبح في الثائه من شأني وألاحظ في أثناءه أدق التفاصيل في مظهرى .
فكنت أعنى حتى بالشعرات التى تخرج من تحت رأس الملاية ونظامها .
عنايى موضع البرقع من أنى حتى يريد فى جاذبية نظراتى ، ثم أعنى بأسدال
ملاية على جسمى حتى تتم فى دقة عن ميول قوامى وبارع اعتداله .

ولم يزعمجنى حديث والذى عن نحاقى . فقد كنت أقرأ بعض المجلات
وتقصص الإنجليزية . فأرى فيها تصويراً للسيدات والأوانس النحيفات يشهد
بجفافى ويثير الإعجاب بهن . وكنت أقرأ مثل ذلك فيما تترجمه هذه المجلات
عن الأدب الفرنسى . ليست النحافة إذن عيباً لذاتها ، وإن أثار الجسم الناعم
ثبى من المعانى المألوفة فى مصر ما لم يكن بدور إذ ذلك بخاطرى . ثم إنى رأيت
فى هذه المجلات والتقصص حديثاً عن جاذبية المرأة وأنها ترجع إلى وقتها ودماثة
طبعها وحسن حديثها . فأغراني ذلك بالعناية بهذه النواحي من أنوثتى أكثر من
عنايتى بما أقاوم به نحاقى .

على أن شيئاً من ذلك كله لم يصرفنى عن صلواتى احتفاظاً بمكاتبى بين
يميلانى وأستاذتى فى المدرسة ، وإرضاء لشعور داخلى كان يتردد فى أعماق
وجدانى بأن الريبة لا تخالف التقوى ، وكم اغتضت حين سمعت الشيخ الذى
يطلع القرآن كل صباح جالساً فى غرفة الانتظار بالطابق الأسفل من منزلنا
يرتل : « خلوا زيتكم عند كل مسجد » ، فقد ثبتت هذه الآية شعورى
أنه خلل واطمأن لسامعها وجدانى فازددت عناية بزيئى كما ازدادت حرصاً
على أداء فروض الله ! . . .

وارددت على الزمن شعوراً بأن القراءة تتم الريبة ، صحيح أنها ليست

لرية المادية التي تلفت النظر إلى أشخاصا حين مبرنا في الأسواق ودخولنا
على صديقات والدتي ، بل هي الزينة المعوية التي تريد نظراتنا دكاء
وحاذيتنا فضلا في النعوس ، لذلك أكتب على الكتب والمجلات التي كنت
أستعيرها من مكتبة المدرسة ، أو أشتريها من المكتبات ، وشعرت لهذا
الإكباب بلغة قوية كانت تأخلى عن نفسى وتصرفنى عن كل ما سواها ،
وإن جلبت على في كثير من الأحيان لوم والدتي خوفاً على عيني ، وإشفاقاً
منها أن تصرهى القراءة عن الاضطلاع بواجبات الفتاة والمرأة في العناية بأمور
المنزل وحسن تديره .

وخلى والدتي حين رأى إكبابى على قراءة الكتب والمجلات الإنجليزية
أن يضر ذلك بلفقى العربية وثقاقتى الدينية ، فاختار لى مدرساً شيخاً كانت
له به ثقة ، وكثيراً ما وأيته يصحبه ، بل لقد حضر إلى العزة في أثناء مقامنا
بها في الصيف مما دلتى على أن له على أبى دالة تزيد في ثقته به .
وكان هذا الشيخ على حظ غير قليل من الدكاء ، درس أول أمره
في الأزهر ، ثم انتقل إلى دار العلوم فوجود اللغة العربية بها ، وجعل همه
أن يطلع على ما يظهر من كتب مؤلفة أو مترجمة إلى العربية ليحارى العصر
ولا يتبع في زوايا الماضى على حد تعبيره . فلما بدأ تدريسه لى ثم يلبث حين
وقف على مبلغ علمى أن اختار لى كتاب « عيسى بن هشام » لعلويلمى ،
وكتاب « تحرير المرأة » لفاسم أمين ، وكتاب « التربية » الذى ترجمه
محمد السباعى عن هريوت سبنسر .

وقرأت جانباً من هذه الكتب الثلاثة معه وسمعت إليه يفسر ما رآه

عصا على من ألقاها وعصارتها فأغراني ذلك بالمضي في قراءتها في أثناء
وحدثني . وتفتحت لذلك أمامي آفاق جديدة يفصر دونهما للكثيرات من
مثلي . بل يقصر دونهما كثيرون من رجال ذلك الوقت وتسائه ، وقد كنت
أقف وجلة أحياناً أمام ما أقرأ . لأنه يخالف مألوف الحياة في مصر إذ ذاك ،
وهو مع ذلك مكتوب بلغتنا العربية ، فيجب أن تفكر فيه ، وألا تعتبر
قراءته مجرد تسلية لقتل الوقت ، ويجب أن تنتهي من هذا التفكير إلى رأى .
وكنت أسأل أستاذي الشيخ أحياناً فيما يستوقفني ، فلا يزيد على أن يتسم
ثم يقول :

الزم يا فتاني كفيل يانفصاج رأيك في كل ما تقرئين .
ولقد أخطئ العجب يوماً لحوار جرى بين والدي وأستاذي حسبت حين
سمعت أن الشيخ يبالغ فيما يسميه « عصرته » . فقد ذكر والدي أن شاباً من
أبناء أحد أصدقائه تزوج من أنجيه يهودية فكان جواب الشيخ : وماذا
في ذلك ؟ ثم تطور الحوار إلى جدل ديني كان الشيخ فيه دون والدي تعصباً
لعتيقته . فقد رأى والدي أن زواج اليهودية من المسلم يبيح لها الفرصة لتتقن
من زوجها أو من أهله أو من خلطائه على حقيقة الإسلام ، فإذا هي لم
تعتقه من بعد كانت مكابرة ، وكان مصيرها إلى الجحيم أما الشيخ فرأى
أبها إذا لم تفتتح بحجة زوجها أو أهله أو خلطائه وعملت صالحاً فلا جناح
عليها أن تقيم على دينها ، وأن يغفر الله لها ، ويدخلها الجنة .

كانت تلور أحاديث من هذا القيل بين الرجلين ، وكان الجدل
بينهما يبلح الحدة ، ثم لا يغير ذلك من ثقة والدي بالشيخ ، واطمئنانه

لحسن إيمانه ، فإذا تودى للصلاة من مثذنة المسجد القريب من دارنا ،
وقام الشيخ للصلاة ، اتم به والذي وقضى فرضه وراءه .
كنت أسمع وأرى ما يحدث من مثل ذلك فلا أقف طويلا عنده .
ومن كان في مثل سنى يومذاك لا يقف طويلا عند شيء ، بل تمر أمامه
الأحداث والآراء ، فبلم بها إلامات سريعة تبقىها في ذاكرته لتنضم على
الأيام لأشياءها ثم تكون موضع تفكير وعبرة من بعد ، حين نصبح قادرين
على أن نبدي حكماً ذاتياً على ما نرى وسمع ، وكذلك بقيت ذاكرتى
تختزن ما استطاعت احتراجه ، حتى إذا آن الأوان تعاغل ذلك كله في نفسى ،
وكون وجودى الذاتى وكبائى المعنوى .

عاقبت الأيام والأسابيع والشهور ، وانقضت السنة الدرامية ، واحتملنا
فيظ العاصمة أسابيع من أوائل الصيف ، ثم ذهبنا إلى العزبة وبدأ أقاربنا
يزوروننا ، وأقبلت عمى وعلى رأسها طرحة بيضاء على خلاف ما ألفت من
لباس رأسها في الأعوام الماضية ، إذ كانت طرحتها سوداء ؛ ذلك لأنها
سافرت إلى الحجاز وأدت مريضة الحج واستبقت الطرحة البيضاء من لباس
إحرامها ، ولم يكن حديثها ذلك الصيف عن ماضى الحياة في فريتنا العزيزة ،
بل كان كله عن الحج والحجاز والكعبة ومسجد المدينة والقصور النبوية ،
وكانت تنصّ ذلك في تفصيل يشهد بظلمانية نفسها إليه واستراحة قلبها
له ، وكنت أشعر في بعض ما تقصه بأنه أدنى إلى الأساطير ، لكنها كانت
ترويه في حرارة إيمان تنقل صدهاء إلى قلب واللى فلا تقفأ تكرر :

يا بحث من زار النبي ! . .

ولو أنني استطعت يومئذ أن أنقل كل ما روته عني عن حجتها لتألف
مع كتب شائق . فقد كان حديثها عن هذا الحج يتصل يوماً بعد يوم
وكانت شهر زاد في ألف ليلة وليلة . لكنني كنت في شغل بقراءة مجلاتي
وقصص الإنجليزية ومراجعة عيسى بن هشام وتحرير المرأة والتربية ، لأن
أستاذي الشيخ أخبرني قبيل سفرنا أنه سيزورنا بالعزبة بعد شهر من مقامنا ،
ويسألني عما قرأته .

وجاء الشيخ إلى العزبة في الشهر الأخير من أشهر الصيف ، وكنت
في فترة هذه الإحالة المدرسية قد أسرعت في النمو وبدأت بكوني السوي برعم
تحافتي . وشعرت في نظرائي بمحاذية قوية كنت أغبط بها حين أقف أمام
المرأة أصلح من هندامي . ترى أكان هذا هو السبب في أن والذي لم يكن
بذرفي وحدي مع الشيخ ساعة تدريسه لي ١٩ . . . فقد لاحظت أنه كان
يحضر دروسى جميعاً على غير عادته من قبل ، وما أحسبه خالجه شبهة
في خلوتي مع الشيخ بساعة الدرس ، أو خالطت نفسه ريبة من أمره ،
فقد كانت ثقته بورعه فوق كل شبهة ، وإنما أحسبه خشي قاله الناس ،
وقالة النساء أكثر من قاله الرجال . فقد علمتني السنون من بعد أن الناس في
مصر ، من أهل المدن كانوا أو من أهل الريف ، يسرعون إلى الريبة في غير
موضع الريبة ، ويتناقلون من الأحاديث الكاذبة في أمر غيرهم ما يسرعون
إلى تصديقه . هذا في اعتقادي هو ما دعا والذي لمصاحبة الشيخ ساعات
تدريسه لي ، وبخاصة بعد أن رأى منذ كنا بالقاهرة عنايتي بهذه الدروس
واستعادي منها .

وجاءت مولات الصيف وآن لنا أن نعود إلى العاصمة ، وإنا لناخذ
أهبتنا للعودة ، إذ شعرت واللقى عمرض ألزمها فراشها ، وقولت عمق الحاجة
العناية بها ، فكانت تلازمها ليلا ونهارها ، وكانت تتلو وهي في مجلسها إلى
جانبا كل ما عرفت من رقى وتعاويد ، وكانت تدير البخور على رأسها
تطرد به حسد الحاسد . لكن للمرض كان يشتد يوماً بعد يوم . واستدعى
والدى الطبيب من أقرب مدينة فلما فحص واللقى أشار بضرورة إسراعنا إلى
القاهرة أو بإدخالها مستشفى المدينة القريب منا ، وآثر والدى أن نعود إلى
القاهرة فعدنا إليها مسرعين .

وجاء الطبيب الذى اعتادت واللقى أن تعرض نفسها عليه كلما مرضت ،
فحصى وأطال الفحص ودقق فيه ، ثم كتب تذكرة دوائه ، ووعد أن يعود
المريضة بعد ثلاثة أيام ، وخرج والدى معه من غرفة للمريضة ووقفا هنية
يتهامان . وبعد أن ودعه عاد يؤكد لوالدى أن الأمر بسيط ، ولن يمضى
أسبوع حتى تكون قد استردت عافيتها ، ورأيت على وجه والدى سببا الألم ،
وإن ردت إليها هذه الكلمات من الطمأنينة ما خفف بعض وقعه .

وفي المساء جاء والدى بعد أن حلج ملابسه ، وتغطى على « كنية » تواجه
السريـر الذى رقدت واللقى فيه ، بعد أن دعا الخادم وأمرها فطشت عليها
ملاءة ، ووضعت على طرفها الملاصق للسائط مخلة نوم . وعجبت لما
رأيت من ذلك ، فلم أر والدى من قبل ينام على هذه « الكنية » قط ، والحن
عليه واللقى أن ينام على السريـر في الغرفة المجاورة لفرقتها قاتلا :
لقد نمت أنت على هذه « الكنية » غير مرة حين مرضى ، فلا أقل من

ن تؤدي بعض ما على من دين لك ، وإن كنت موقفاً أنتى لن تؤدي إلا القليل ،
مفدى م غمرتى به دائماً من رقة وود خالص .

وغادرت الغرفة وقد زادت ما رأيت وسمعت إعجاباً بآبى وبهذا الحب
مدل وتميت أن أسعد فى الحياة عثله .

واقضت الأيام الثلاثة التى تحدث عنها الطبيب وشكوى والدتى من
عته لا تنقص . بل تريد . وجاء الطبيب فى موعده وأعاد الفحص وخرج
بعده مع والدتى . وفى صباح العد علمت أنه سيحضر معه طبيبان آخران
من كدير الأطباء . لإجراء « كونسلتو » يشخصون بعده المرض ويصفون
علاجه . وجاء الأطباء الثلاثة بعد الظهر من ذلك اليوم ، وفحصوا المريضة
وما عيخت به من دواء . ثم تبادلوا الراى ، وكتبوا تذكرة جديدة .

كانت والدتى تذكر للأطباء الثلاثة ، فى أثناء الفحص ، ما يتابها الوقت
بعد الوقت من آلام مبرحه . وتنتظر إليهم نظرة رجاء واستعطاف لعلهم
يخففون آلامها ويبرئونها من عتها . وكان الأطباء ينظر بعضهم إلى بعض لندى
سماح حديثها ثم يقول كبيرهم العبارات المطمئنة المألوفة ، وكأنه يلوووداً من
الأوراد أو دعاء من الأدعية التى تتلوها عتى الحاجة ، فلا يفتر ثغره عن
ابتسامة ولا يلمع فى عينيه معنى الرجاء الذى طمعت والدتى فى أن ترى
يريقه . فلما انصرفوا وودعهم والدتى وعاد إلى غرفة المريضة نظرت إليه
نظرة استغهام فقال :

إنهم يستحسنون تقلك إلى المستشفى زيادة فى العناية بك وأجابته
والدتى متزعجة :



ولست حیرقمه و برقمی وادی دلک بی یل مرید من عنایتی مہنامی

المستشفى ١٧ . . . كلا . كل شيء إلا المستشفى ، وإذا كان قد كتب لي
 أن أموت ، فخير لي أن أموت على فراشي هذا ، أما إن كان الله قد كتب
 لي الشفاء ، فلن يكون في المستشفى شفائي .
 ورأيت في عينيها دموع تفرق . فأخذ والدي يسكن من روعها وبذكر
 ما أنه كان على يقين من أنها لن تقبل الذهاب إلى المستشفى ، وأنه ذكر ذلك
 للأطباء . ولقد رأى أن يعيد على سمعها ما قالوا ، وأنهم يرون الخير في أن
 تكون في عناية ممرضة ورقابة طبيب ، ثم إن والدي أضاف :
 وقد ذكرت لهم أننا نستطيع أن ندعو للممرضة لتكون إلى جانبك هنا ،
 وأن طبيبك يستطيع أن يعمدك كل يوم في الصباح وفي المساء .
 وجفت الدمع في عين والدي ، ونظرت إلى والدي نظرة عرفان وبدت على
 نغرها المتألم شبه ابتسامة . لكنها قالت :
 لا ضرورة للممرضة . فأنا لا أريد أن تطلع أجنبية على دخائل بيتنا ،
 وإذا أمكن أن تحضر عمتي الحاجة إلى هنا فهي البركة ، وفي بعدها الشفاء .
 وكانت والدي تحب عمتي حقاً ، وتناديها عمتي هذا الحب الصادق ،
 وقد رأيتها تحضر صبح الغد من هذا الحديث ، وبدلت على والدي تقبلها
 وتكررها الدعوات بالشفاء . وفي لحظات خلعت ملابس السفر ، وجاءت
 وعلى رأسها طرحتها البيضاء ، وجلست إلى جانب والدي ، وأخذت تلو
 من الأدعية ما اطمأنت له المريضة وشعرت لساعه براحة نفسية ، لعل سببها
 أنه أزال ما تبدى لناظرها من شبح المستشفى ومنظر الممرضة
 وقد قامت عمتي بمهمة التمريض بإخلاص وإتقان ، لما بينها وبين

والدنى من الود الصادق والمحبة الخالصة ، فلم تكن المريضة ترغب فى شيء إلا سبقت إلى تنفيذ إرادتها بهمة لا تعرف الكلال ، وكم من ليلة باتت إلى جانبها ساهرة فقص عليها من أخبار القرية أو من أحجار الحجاز ما تنسلى به المريضة عن آلام كانت مريحة فى بعض الأحيان ، وكثيراً ما سمعت العمة العزيزة تمنى بعد أن يمن الله عليها بالشفاء أن تودى فريضة الحج ، وتزور القبر النبوى وتتمتع بلمس شباكته ولثمه . ، والدنى تسمع لذلك فيعود نظراتها أمل يرد إليها الحياة بعد ديونها ، ولا أحسب ممرضة كانت تستطيع . . وإن بلغت من الدقة فى عملها أعظم مبلغ - أن تخدم المريضة . بحير بما كانت تخدمها الصديقة الوفية الصادقة الود .

وكان الطبيب يعود والدنى كل يوم ، بل كان يعودها مرتين أحياناً . وكان والدنى يقف إلى جانبه فى أثناء هذه العيادة فإذا فرغ منها وطمان المريضة بأن صحتها فى تقدم خرج مع والدنى ووقفا يرهة يتحدثان ، وقد لاحظت غير مرة أن أسارير والدنى خلال هذا الحديث كانت أدنى إلى الانقباض ، وأنه كان يودع الطبيب إلى الباب ثم لا يعود إلا بعد زمن لعله كان يحاول فيه أن يفحل غرفة المريضة بوجه تبدو عليه ملامح الطمأنينة ولا ينم عن شيء من اليأس والألم ! . .

ولم يكن شيء يبعث الطمأنينة إلى نفس والدنى ما نبعثها إليه صلوات عمى الحاجة ودعواتها الصادرة من القلب ، فقد كانت تؤدى القرائن لأوقاتها على مقربة من سرير والدنى ، وكنت كثيراً ما أأنم بها ، فإذا ما قضيت الصلاة رفعت كفيها ضارعة إلى الله أن يشى المريضة لتمتع بشبابها وتفرح

ذابتها . وكانت نجواها في أثناء هذه الدعوات تخالطها حرارة الإيمان الصادق
وتزجاء العميق في وجه الله أن يستجيب لها .

برغم هذه الدعوات . وبرغم العناية الصادقة ، شعرت والذي في
يحدى الليالي بالأم محض لا قبل لها به ، وأسرعت عمتي فأيقظت أنجاءها من
نومه . وجاء والذي مسرعاً يحسب أنه يستطيع أن يخفف من هذا الألم
بما يضيفه على روجه من محبة وعطف وحنان . لكن الألم كان قد بلغ
بمغريضة . فكانت تتأوه وترسل من أعماق صدرها أنات تليق الجماد .
وأسرع والذي إلى الطبيب في منزله فكان كل ما استطاعه أن حقن المريضة
بالمورين تسكيناً لحدة الألم ، وأن أشار بضرورة استدعاء زميله اللذين
شاركاه في (الكونسلتو) وفي تقرير العلاج ، وهدأت حقنة للمورين من شدة
الألم وأغمضت والذي عيها في غفوة ذكرت لي عمتي من بعد أنهم كانوا
يرجون أن تنام بعدها نوماً هادئاً . لكن المصباح تنفس عن معاودة الألم
للمريضة . ولا جاء الأطباء وفحصوا المريضة كانت سهاهم تنطق بمعاني
الأس ، ولا يبدو في نظرات بعضهم لبعض ، شيء من الأمل أو الرجاء ،
وكتبوا تذكرة دواء جليده ، وودعهم والذي متصرفين .

أفاستطيع اليوم أن أصف حالي في أثناء مرض والذي ؟ . . لقد انقضى
الآن على ذلك الزمن ما يزيد على ثلاثين سنة ، ولا أزال مع هذا أذكر كيف
كنت في ذلك الطرف الخامس أدور في أنحاء الدار ، كأني الروح الحائر
لا يعرف نفسه مستغراً . ثم أرتد إلى غرفة المريضة فإذا سمعتها تتأوه أو تن
اضطرب قلبي في صدري ، وشعرت بالألم يحز في كبدي فأرتسم ذلك على

قسيات وجهي ثم لم يعني ما كان يسبغه والدي على من عظم عظمه وسابع
حنانه . بل لقد كنت أشعر حين يزيد به الحنان عن مألوف عظمه . كأنني
أصبحت بتيمة الأم ، وكأنه يريد أن يكون أبي وأمي في وقت واحد ، وكانت
عمتي تحاول جاهدة أن تقتني بأن والدي وقد ألف حمد وشكر تتقدم نحو
العافية ، وتذكرني أنها رأت رؤيا تفسرها ان المريضة ستعود إلى مثل صحتها
في خير أيام عافيتها ، وأن رؤياها لا تكذب أبداً ، فأطمئن لحديثها بعض
الشيء ، ثم لا ألبث حين أسمع أنات الأم تكظمها المريضة جهدها ، كلما
رأيتي مصلة عليها ، أن تذهب طمأنيتي وأشعر في دجلة نفسي وأعماق
وجداني بأمني مقبلة على أمر جلل ، فتزداد روعي حيرة ويريدني الحنان
والعطف الأبري وحشة على وحشة .

ونشد مخاوفي أحياناً وأكاد أسائل نفسي : أأذنت في حق والدي يوماً
حتى أحشو أمامها وأطلب عفوها ومغفرتها ؟ . . بل لقد اعتزمت ذلك يوماً
ودخلت عليها أريد أن أقبل وجهها ويديها وقدميها ، وأسأفها العفو عما لعنه
سلف مني ، لكنها إذ رأيتني اتخطى الباب نحوها أشارت إلى إشارة فهمت
منها أنها تريد أن تعالمني بشيء أوتسر إلى أماً ، فلما دفوت منها أحلستني على
السري إلى جانبها ، وأخذت تقبلي وتبكي ، وكأنها هي المذنة تطلب الصفح ،
ولم أملك عبراتي فوضعت خدي على خدها ، واختلط دمعى بدمعها ولم تنبس
أبناً بينت شقة .

وإننا لكذلك إذ دخل علينا والدي ، ورأى ما نحن فيه ، فانهمرت من مآقيه
عبرات جعل يحاول حبسها ، ثم تقدم نحونا وقد اخنق صوته وأحد يقول لزوجته :

« أمي بالله يا حبيبي ، إنه الزهوف الرحيم ، وعما قريب سيفيك
فلا ترهقي نفسك ولا ترهقي هذه الصبية العزيزة بما لا طاقة لها بإحياه ،
ودعني أسي عنها دفناً رقيقاً لدى سماعها هذه الكلمات ، فخرجت من
الغرفة مسرعة إلى عرقى وحبت نفسي ، وأرسلت العنان لدموعي ، وبعد
هنية رأيت والذي يقبل عليّ ، وحمرة عينيه تشهد بأنه مسحها ساعة دخوله
عندي . وما زال يتلطف لي حتى خرجت معه من الغرفة إلى البهو ، وهناك
جلسنا ندعو للمريضة بعاجل الشفاء .

لكن رؤيا عمي والدعوات الصادقة الصادرة من قلوبنا جميعاً لم تكن
لتغير حكم القدر . فكل أجل كتاب ، وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون .

فقد خرجت مطلع للقمر يوماً من عرقى ، فإذا عمي جالسة على باب
عرفه والذي - وإذا هي لا تكاد نرائي حتى تأخذني إلى صدرها وقد هره
البكاء المختنق وتقلبي وتقول :

الأمر لله يا بيتي . والله يحفظ لك أباك . ثم إنها لم تطق كتمان بكائها
معللاً صوتها به . وبكيت أنا كذلك وارثقع صوتانا ، وأقبل أبي وعليه ثياب
اليوم ما يزال وأخذ يسكن من ألمي ، وكل ملامحه تدل على أنه لا يقل ألماً
عني . وعبراته تحدث عن عميق حزنه ، ولما تنفس الصبح وجاء الخدم ،
ومن يتوقع المصاب المفاجع ، فلما عرفته ارتفعت أصواتهن بالصريخ
المزعج . وبعد سوية أقبلت جارقاتنا ، وانقلب البيت ماثحة تدوي أصواتها
فيما حولنا من الأرجاء .

وتركتنا والذي إلى غرفته وهو يندق رأسه كأنما حرج الألم به عن صوابه ،
وأقبل صديق له من جيراننا سمع الصريخ ، وكان يتردد من قبل على والذي
يسأل عن أخبار زوجته ، فلما رآه والذي ناداه قائلاً :

أرأيت يا أخي خراب بيتي ، وأخذ الصديق يسكن من لوعة صديقه
ويذكر له أن أهله ومعارفه سيحصبون له عما قريب ، فلا مفر له ، برغم
هول المصائب ، من أن يتجمل بالصبر حين يتقبل العزاء ! . . . وذهب الرجلان
إلى السلامك بعد أن ذهب والذي إلى غرفته ، وارتدى ملابسه محاولاً جهد
طاقته أن يندوف وقاره الذي اشتهر به ، وعرف عنه ! . . .

ودفنت أمي في مشهد مهيب وتغضت ليالي المأتم الثلاث ، وانصرف
المعزون والمعزبات ، وأقهر بيتنا من روحه ، فكنت أرى والذي يتنقل فيه من
غرفة إلى غرفة ، في حين كانت عمي تدير شئونه وتبذل الجهد لراحة أخيها
وراحتى ، وكم رأيت أفي في تطوانه من غرفة إلى غرفة يندق بدأً بيد . أو يسير
شارد الذهن ، مشيت اللب كأنما أذهله الخطب الذي نزل بنا ! أو كأنما
يسكر في أمر خطير . وكنت كلما رأيته على هذه الحال ، ازدادت شعوراً
بقسوة المصائب ، الذي أصابني فحرمني حنان الأم ، وأنا أشد ما أكون حاجة إليه .
وكان والذي يحاول ما استطاع أن يخفف نوعي ، غير متكلف في محاولاته إلا
ما يمليه عليه وحدانه ، وتفيض به عاطفة الأبوة ، وقد احتمس بها الابنة
الوحيدة التي رزقها منذ تزوج . وكنت ألمح في عينيه حين يتحدثني أنه
لم يبق له في الحياة أمل غيري ، وكنت آتمنى لذلك لو استطعت أن أدخل
إلى قلبه من السعادة ما كانت أمي تلخظه على هذا القلب العطوف الرقيق .

وله يخرى حاضري أن أرى يمكن أن يتزوج بعد موت أمي ، وإنني لفي
مرقة صسنى يد حرق سمى حديث يتبادل الخدم فيها بينهن ومن لا يرى
حديث أفرعى وه أكد أصدق . . قالت إحداهن :

إسى سمعت عمى تتحدث إلى أخي بأنه لا يزال في فتوة رجولته ، وأن
بيته لا يصلح إلا أن يتزوج . وأن والدى أظهر بادی الرأى عدم الرضا إكراماً
تذكى المرحومة أمى . بعد القى كان ييها من صادق الحب ، فكان حوار
أخته أمها كانت تحب المرافقة كما كان يحبها ، وأنها حزنت لموتها مثل
حره

لكن لله في تصاريه أحكاماً لا يدركها البشر . وإنا إذا وجب علينا
الوفاء لم يحب فذلك واجب ما عاش المحبوب . أما إذا اختاره الله إلى جواره
فقد سقط عنا هذا التكليف لأن قيمة الوفاء في تبادله ، فإذا لم يكن متبادلاً
فلا معنى لوجوده . والأموات يحطون بموتهم من واجب الوفاء لهم ، ثم إن
عمى ضربت على الوتر الحساس من قلب أخيها ، فقالت :

ولعل الله قد كتب لك ذرية صالحة من البنين يحفظون اسمك ويفتحون
بيتك . والزواج سبيلك إلى هذه الذرية ، وابتك هذه لا تستطيع أن تعيش
وحدها في هذا البيت القسيس ، فهي بحاجة إلى من تحسن توجيهها وتقوم
شأنك وشأنها

وسمع والدى هذا الكلام من عمى فأطرق قليلاً ثم خرج بالصمت عن كل
حوار ، وسمعت أنا هذا الكلام من خادومات البيت فأخرجى من أحلامي
لسوءاً حزناً على أمى إلى محالوف أشد سواداً ، إشفاقاً من المستقبل الذى يضر

فاه استلعي في جحيمه . لكنني لم أكن أستطيع أن أقول شيئاً أو أبس بكلمة .
وكل الذي فعلت أن منيت نفسي أن تكون إطراقة ألى شاهداً لعدم رضاه
عما سمعه من أخته ، ولقد بدأت أشعر لهذه العمة بالبعض والكراهية .
وبدأت أفر من كل مكان أراها فيه ، فإذا جلست في بهو الطابق الأول
أو نزلت إلى الطابق الأرضي أسرعحت إلى الحديقة ألتمس فيها الوحدة ، وإذا
نزلت إلى الحديقة ، ولما كانت تفعل ، صعدت إلى الطابق الأعلى
والتمست في غرفتي ملجأً أسكب فيه الدمع السخين على هذا اليم الباكر .
ولست أدري أأفصت عمي إلى والدي بميل إلى العزلة ، أم أنه لاحظ هذا
الميل من تلقاء نفسه ، أم أنه كان صريحاً حين قال لي إن عمي تريد العودة
إلى قريتها ، وإنه يؤثر أن نغير الهواء بالسفر إلى الإسكندرية والمقام بها أسبوعاً
أو أسبوعين .

وسافرنا بالفعل ، وسافرت معنا طاهيتنا ، ونزلنا طابقاً صغيراً استأجره
والذي من أحد معارفه كانت به حادم صغيرة السن تفن تنظيف المسكن
وقضاء ما يحتاج إليه الطاهية من السوق القريبة منا .

وكان لهذا التغير في لون حياتنا من الأثر الحسن على نفسي ما خفف
بعض الشيء من عميق لوعتي ، فقد كنت أجد من هواء البحر المنعش في هذه
الأيام الأولى من فصل الخريف ما ينشط ذائل حويتي ، وكنت أجد في
زرقة الممتدة إلى الأفق حيث يتعاقب الماء والسماء مسرحاً لأفكار مبهمة
بذوب حلالها جوى الحزن الذي ناء به صدري . وكان صريف أمواجه المتكسرة
على الشاطئ يداعب سمى ، وكأنه أنغام يبعث تشابهها إلى الأعصاب نوعاً

من السّامة المريضة التي تدعونا إلى النوم كما تدعو أنعام الأم طفلها الرضيع
رئيه .

ثم إنني قلما كنت أرى ما ينهى إلى ذكر والدي ، فقد كان والدي يخرج
كل صباح ثم لا يعود إلا لتناول طعام الغداء وليستريح بعده في سريره
ساعة يخرج بعدها من جديد . ولم أكن أسأله كيف كان يقضي وقته ، وكانت
الطاهية تدخل مطبخها في الصباح لإعداد الإفطار ثم لإعداد طعام النهار ،
أما الخادم الصغيرة فكانت من الإسكندرية ولم أكن قد رأيتها من قبل ،
وقلما كنت أجد الفرصة للتحدث إليها ، إلا حين تصحبني ساعة خروجي
بعد الظهر أسير على شاطئ البحر ، وفي تلك الساعة كانت تقص عليّ أنباء
ناهية عن محبوبي أصحاب الطابق الذي تقيم به ، ولم يثر عنائتي من حديثها
إلا إعجابها الذي لا حد له بجمال سيدتها ، وجمال أخت هذه السيدة التي
تزوجت قبلها . ثم ظلت سوات مع زوجها لم تنجب مطلقاً لأنها لم ترض
أن تشاركها فيه امرأة أخرى يرجو أن يرزق منها الحلف الصالح .

على أن هذه المسكينة المحسنة التي خفت بعض لوعتي لم تبلغ أن أنستني
فادح مصابي ، ولا حجت عن طيف المتوفاة العزيزة أذاقني موتها طعم
اليتم المرير . فقد كانت تتبدى لي في أحلامي ، وكنت أرى طيفها في شبه
البقطة وأنا أنظر من الدار إلى عاية الأفق وكأنها تنو إلى بعين ممتلئة حناناً
وعطفاً . وكثيراً ما كنت أناجي السماء عند هذا الأفق البعيد أسألتها : لم حرمني
الله أمي وما حنت ذنباً ، بل كانت البر والرحمة بكل محتاج إلى البر وإلى
الرحمة !

وكنيت أعيد هذا السؤال على نفسي إذا تبدت لي أُمي في أثناء النوم ،
ثم استيقظت بكرة الصباح دامعة العين منقبضة النفس ، واستبد لي هذا
السؤال أبانها الأخيرة بالإسكندرية ، حتى كنت أخرج أحياناً من صلاتي
قبل أن آتمها مخافة أن يجزيق الله بالتعرض لقضائه أو الاعتراض عليه ،
وكنيت في بعض الأحيان أجمع بين يدي كل قول ، وأصمى في الاعتراض
على ما أراده ظلماً وقع بوالدتي وى ، حتى إذا شعرت أنني أصبحت على
شفا جرف من هاوية التجديف ارتللت فرقة أبكى ، وأنا لا أدري : أكان
يكاني فرقاً من هول ما اجترحت في حق ربي ، أم من هول اللصايب التي
أذبل عياني وشبابي ، وجعلني أرى المستقبل أمامي أسود لا يبدد ظلمته خيط
من ضياء .

وأدت لي هذه الحال إلى إهمال بعض صلواتي ، وكنيت من قبل حريصة
على ألا يهتق فرص منها ، كما بدأ يخامرني شيء من الشك فيما كان أستاذي
يلقيه عليّ من دروس النديانة ! . .

وعندنا إلى القاهرة لموعده بدء الدراسة في المدرسة السنية ، فلما كنت
بين زميلاتي وعلمائي لم أجد بداً من العودة إلى العناية بمصلي المدرسة محافظة
على مكاتي ، وانخرطت في الدروس وضاعفت مداكرة علومي في البيت ،
ووجدت في ذلك مسلاة عن همي ، وجاءت عمتي من جديد فتولت تدبير
المترل ، ثم أعفنتني المذاكرة من طول المكث معها ، واطردت حياتنا على هذه
الوتيرة زمناً كان والذي يسبق عليّ في أثنائه أضعاف ما كان يسبقه عليّ من قبل
من عطف وحنان . وأخذت عمتي تدنيقني منها ، فأنساني مر الزمن ما سمعته

من حده البيت عن حديثها مع أنى في أمر زواجه ، فلم تبق في نفسى من ناحيتها
تدث حظيطة التي شعرت بها من قبل ، وتعودت حياة اليتيم وأخذت أشعر
بضرورة الاعتماد على نفسى في كل شأن من شئونها ، وبألى مطالبة فوق
والى بالاشراك مع عمى في تدبير شئوننا المنزلية ، وبخاصة ما تعلق براحة
أنى في ملبسه وفي غرفة نومه . آمل أن يجد في عنايتى بأمره ما يصرفه عن
التفكير في التراجع .

الفصل الثاني

أقبل شهر رمضان بعد أسابيع من بدء السنة الدراسية فاختار أبي غيباً ندى الصوت ، أحيا لياليه مع الفقيه الذي ألغى سماعه عندنا في هذا الشهر المبارك ، فلما كان عيد الفطر خرجت مع والدي وعمتي وزرنا قبر والدي ودفرت عليه دمعات سخينة وضعت عليه الورود وأغصان الشجر التي أحضرها والدي ، وبعد شهرين كان عيد الأضحى فرزنا القبر كره أخرى وممنا عنده من يرزل القرآن ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر ، وشعرت بدمعي أقل سخاء مما كان في عيد الفطر ، وإن بقي قلبي بشعر بألم اليتيم شعوراً قاسياً عميقاً . وبعد أسبوعين علمت أن أبي سافر إلى الإسكندرية لأمر لم أعرفه ولم تطل عينه هناك غير أسبوع ثم عاد إلينا وقد تزوج ! . .

تزوج السيدة الجميلة المطلقة شقيقة صاحبة الطابق الذي نزلنا به حين سافرت معه ، فلما دخل البيت معها ناداني وقال :

سلمى على « تيزة » . . وبظرت إليها فإذا هي جميلة هذا الجمال الشرقي البارع . . فارعة القد ، عالية العنق ، دمجاء العينين ، رقيقة البشرة ، دقيقة الأنف والشفنتين ، بلغت جمالها النظر ويمسكه .

وصلت عليها في تأديب وبقيت هنية صامئة ، ثم شعرت بأني أطلت المقام فأنفقت مسرعة إلى غرقى ، وقد أحسست بالعبرات تملأ عيني ، وخشيت

عنه القلعة على أن أحس في صدرى نشيج البكاء ، وأعلقت باب العرقة
وخضت في حرد صامت محافه أن يسمع أبى صولى . . ترى ما عسى أبى
يكنن مصرى مع هذه السيدة البارعة الجمال ؟ . وهل اصطحبني والذي
بنى الإسكندرية ليغفلها إلى نفسه وأنا عما صنع في جهل وعمالة ؟ . .
لا ريب أن عمى لن تلبث أن نعادونا إلى قريتها وترك أمر البيت وتديره إلى
الزوجة الجديدة التي حلت محل أمى ، وأصبحت ربة البيت ومن فيه ،
وستعادونا عمى بعد أن دبرت هذا الزواج مع أبى ، وبعد أن علمت به منذ
عدنا من الإسكندرية . ثم كتمت عنى كل هذا الزمن .

وطال احتياسى في غرقى ولم يدعى أبى ولم تدعى زوجه للانضمام إليهما ،
وبه تفكر عمى في الدخول على لمواساتى ، وأغلب الظن أنهم رأوا الخير في
تركى أسلس العنان لعواطفى في هذه اللحظة الأولى ، تقديرا منهم لما أثاره
هذا الموقف في نفسى من ذكر أمى وذكر مرضها وموتها ، لكننى لم أقدر الأمر
على هذا النحو في هذه اللحظة . فقد أيقنت أن العزلة أصبحت نصيبى ، وأن
هذه الزوجة الجديدة قد اختطفت أبى كما اختطف الموت أمى ، وأبى لم يبق
وإلا أن اعتصم برحمة الله وأنزل على حكم قضائه القاسى .

ولم يدر بخاطرى أن زوج أبى لم تلبث بعد أن اطمانت إلى مكانها من
بيتها الجديد أن قامت تلور في أرجائه لرسم في ذهنها صورته ، ولترسم بعد
ذلك أسباب تديره ، وإننى لنى مجلسى من غرقى وقد جف دمعى ، وإن
ظلت عيناى معمرتين من أثر البكاء ، إذ فتح الباب ورأيت الأب والزوج
والعمة بدخولن على . ثم يقول أبى موجهاً الكلام إلى :

أنت هنا يا ابنتي ! . . . وسرعان ما أقبلت زوجه نحوى وأخذت تطرى
نظام الغرفة وحسن ذوقى فى تنسيقها ، وكان صوتها رقيقاً فيه من الحنان مالم
تتكلفه . فلما ان لم أن يركوا الغرفة أخذتني من يدي ، وأخذت تسألني عن
شأني سؤال من يعيه أمرى ويحرص على راحتي ، ونظرت إليها ألتبس مبلغ
الصدق فى كلامها فسحرنى جمالها ، وختلها ملاكاً كريماً بعثت به السماء
ليضمك جراحى ، وبأسوكلوم قللى ! . . .

وسرت إلى جانبها وهى ممسكة بيدي ، قلما كنا فى البهو ، وأخذنا مجالسنا
مه رأيتها تفتح حقيبة ، وتخرج منها عقداً جميلاً تثبتته حول عنقى ، ثم تخرج
من حقيبة يدها مرآتها الصغيرة ، لأنظر جمال العقد على صدورى ، ونظرت فى
المرآة فأعجبني العقد وكان أول مصاغ تحليت به من نوعه ، وأدبرت عيى إلى
ناحية أبى فإذا على ثغره ابتسامه راضية ، تشهد باغتباطه لما يرى ! .

غادرتنا عمى بعد ثلاثة أيام إلى قريتها . وانخرطت أنا فى تشاطى المدرسى
وفى الدروس الخاصة التى كنت ألتقهاها فى اللغة العربية وفى الديانة ، وأنا أحسب
أن شيئاً ما لم يتغير فى حياتى المترية . . . ترى هل كان للجمال البارع الذى
احصت به زوج أبى أثر فى هذا الحسان ؟ . . . فقد نخطت الثلاثين وكانت فى

نظرتها مع ذلك براءة الطفولة ، وفى ضحكها سداجة الصبا الذى تفتح عنه
هذه الطفولة ، وكانت قسبات محياها كأما صورها فتان أدق تصوير مر
بخياله . وكان شعرها الناعم الفاحم المتسدل على كتفها خير إطار يزيد حديث
عيونها بلاغة ، وجمال قسماتها روعة وسحراً ، وكان قوامها بهجة للنظر
باعتداله ودقته ، وكان كل شىء فيها يقف الناظر إليها مسجماً بقدرة الخالق
٤٥

الذى أبدع هذه الفتنة الباهرة ، وكانت حركاتها وسكناتها طبيعية وينبئ
مع ذلك ، وكأنما درست بعناية لم تذلل للمصادفة حظاً في شيء منها ، وكنت
كلما رأيتها مسحوت بها وازددت إيماناً بالله يارثها وشعرت بأن الجمالها من
السلطان على جنانى ما كان لحنان الأم الرموم من السلطان على وجودى
كله ! . . .

تصفت السنة الدراسية ثم قاربت نهايتها وأنا منكبة أشد الانكباب على
دروسى . والذى يحضر كمعادته درسى الخاص مع الشيخ موضع ثقته ،
وإبنى لكذلك إذ مرضت وانقطعت عن المدرسة قرابة عشرة أيام ، فلما
أبليت وأردت الإقبال على الدرس ، لأستعيف ما فاتنى في أثناء عطلى ،
دعانى والدى إليه وقال لى :

« لقد رأيت يا ابنتى خوفاً على صحتك أن تنقطعى عن المدرسة ولا تذهى
إليها منذ خد » .

ولم يكن لى عهد بأن أناقش قراراً اتخذه ، فخرجت من عنده وآويت
إلى عرقى وقد عرتى الدهشة . صحيح أنى كنت أسمع زوج أبى تبنى من
البرم بتعلم البنات الشئ الكثير ، وتذكر أن البنات خلقت للبيت والأهلية ،
لا لممارسة الأعمال والوظائف الحكومية ، وأن الخير لذلك كل الخير فى أن
تتدرب منذ صباها الباكر ، لتتقن ما ستقوم به فى مستقبل حياتها .

لكنى لم أكن أعير حديثها فى هذا الشأن بالاً ، لأنى كنت أعلم أن أبى
على غير هذا رأى ، وأنه يرى أن تعلم الفتاة تعليماً عالياً بعض ما يجب

لكمال وجودها الإنسانى ، واحتياطاً لمستقبلها حتى يكون لها فيه من الحرية ما يرفع عنها ذلة السودية للرجل ، أياً كان مصدر هذه الذلة . فإذا حدث ؟ ما الذى دفع والدى ليلغى هذا القرار ولم أبلغ بعد من التعليم غايه مرحلته الثانوية ؟ وهل للمرأة من الأثر على الرجل ، وإن كان حصيفاً حصافة أبى ، أن تبدل تفكيره كما تشاء ؟ . أم أن السلطان كان لهذا الجمال الساحر الذى اختصت به زوج أبى ؟ . أياً كان الأمر لقد أيقنت من اللهجة التى أبلغ بها هذا القرار إلى أنه قرار عزم ، لا رجعة فيه .

وكان لهذا القرار أسوأ الأثر فى حياتى ، فقد أنشأ عندى عقدة نفسية لازمتنى ولم أنج قط منها . وقد كان الأثر الأول لقرار أبى أن بدأت أعرف ما كنت أجهل ، بدأت أعرف الكراهة وكان قلبى لا يعرف غير الحب ، كنت أحب الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكنت أحب الطبيعة وقتة جمالها ، وكنت أحب الحيوان والطيور ، وكنت أحب الحياة ونعمتها حياً جماً . ذلك لأننى لم أشعر منذ ولدت بما يزهدنى فى الحياة . بل كان المتاع بها وبكل ما فيها بعض حظى . لقد كنت وحيدة بين أمى وأبى . وكأنا يفيضان على من خاتهما ويرهما ، ما يجعل الهواء الذى أنفسه كله العنان والرحمة وكله المحبة والود . وكله نسيات السحر وبسات الزهر وأغاريد الطير والشذا المتصووع بأرق العواطف وأحلاها . لكنى ما لبثت حين سمعت هذا القرار يبلعه إلى أبى أن شعرت بأن زوجه صاحبة الوحي به . وأن ما أسمعه عن زوج الأب ويرمها بأبناء زوجها صحيح . وشعرت لذلك بهذه العاطفة الكريمة عاطفة الكراهية تنلس إلى قلبى وتجعد منه مكاناً لم يكن لها من قبل فيه موضع .

وعجبت كيف يتطوى هذا الجمال القاتن الذى صوره الله فى هيئة هذه المرأة على روح خيثة كل هذا الخبث . وكيف تسر هذه النظرات البريئة قلباً آكل كل هذا الإثم . وأيقنت فى قرارة نفسى أن برمها بتعليم البنت لم يكن رأياً تؤمن به وتبديه . بل كانت البنت أنا . وكانت برمة بتعليمى أنا . ولهذا لجأت إلى كل وسائلها وكل حيلاتها وكل شباكهها فانتشرت بسلطان جمالها فى دنخلة أبى وحملته على أن يتخذ قراره فيحرمى نعمة كانت لذى وسلوى وكانت صارقى عن أن أرى ما فى الحياة من قبح وسخف ! . . .

وأخذت أفكر كيف أقاوم ما قرأ ، ولم يكن الذهاب إلى المدرسة سبباً بطبيعة الحال إلى هذه المقاومة ، فأنا لم أكن أذهب إليها وحدى ، بل كان يصحبني فى ذهابي إليها وأوتى منها يوابنا العجوز ، كما أنني لم أكن أستطيع أن أعلن هذا المصيان الصريح ، وأنا موقنة أن ثورق لن تلبث أن تتحطم ، وإن يكون من أثرها إلا أن يغضب منى والذى وتشتت زوجه لى ، ولذلك قررت أن أقضى معظم وقى فى قراءة ما أستطيع قراءته من كتب عربية وإنجليزية أستطيع الحصول عليها يومئذ ، ولم أجد يومئذ أن أستشير أحداً فيما أقرؤه ، فكنت أقرأ كل ما يقع فى يدي ، صالحاً كان أو طالحاً ، نافعاً كان أو ضاراً .

وبدأت زوج أبى تشغل نهارى بما سمته بإعدادى لحياقي المقبلة ، فأخذت تعلمنى التطريز والخياطة والطهى وما إلى ذلك مما يتصل فى نظرها بتدبير المنزل . فهى لم تكن تعرف القراءة والكتابة ، لكنها كانت تجيد هذه الأعمال كما كانت تجيد العناية بجمالها كل الإجادة ، لذلك كان إشرافها على نظام

المتزل وحسن تديره وعلى كل ما نأكل ونشرب بالغاً عاية الدقة ، صحيح أنها لم تكن تاشر من ذلك شيئاً بنفسها ، لكن نظرتها إلى ما يجزى في المطبخ أو في الكرار وإلى ربيب الأثاث وحسن تنسيقه وما تبديه في هذه الشئون من نقد وما تصدره من أوامر ، ذلك كان كافياً لجعل حيون الخدم في رؤسهم قلاهمون شيئاً ولا يخلون واجباً . وهي لم تكن مسرقة ولم تكن مقرة ، وكانت تعرف كيف تضع كل شيء في محله ، لذلك أسرع إلى كسب ثقة أبي كما كسب جمالها ناظره وقلبه وعواطفه منذ اللحظة الأولى .

أما أنا فلم أكن شديدة الإقبال على ما تعلمني من شئون المتزل ، أكان ذلك رغبة مني عن هذه الشئون ، أم كان لأنها هي التي تعلمني إياها . . . وقد خلق انقطاعي عن المدرسة جفوة بيني وبينها جعل كل ما تقوله لي أو تريدني أن أتعلمه موضع الريبة عندي ، وأقبل والدي يوماً يوجه إليّ لوماً رقيقاً على ما يبدو من عدم إقبالي ، وينصح لي في لطف أن أقدر عناية زوجة لي وحرصها على مستقبل ، فازددت سبب ملاحظته نفوراً من زوجة ، إذ شعرت أنها تريد أن تصرف عني محبته لتستأثر وحدها بكل قلبه ، وذكرت له أنني ربما ازدادت إقبالا على هذه الشئون ، لو تعلمتها في مدرسة ، فابتسم ابتسامة ذات معنى وتركني وشأني ، إذ أدرك أنني أريد أن أبعد عن البيت وربته جهد المستطاع .

ونحيل إلى بعد زمن أنني وجدت الوسيلة لما أريد ، فذكرت لأبي بحضور زوجة أن المرحومة والدي ، كانت تود لو تعلمت البيانو ، ذكرت ذلك وكنت مقتنعة بأن امرأة والدي ستعارضه ، ولشد ما كانت دهشى إذ رأيتها تقول .

كلامك هذا معقول يا عزيزتي ، فكل فتاة متهذبة لا تعرف اليوم أن تلعب
حتى آلات الطرب بنفسها شيء جوهرى لحياتها الزوجية ، ثم أشارت إلى
ومنى قائلة .

ومن الخير أن تشرى لها البيانو ، منذ الآن فهو بعض جهازها ، ومنى جىء
به إلى البيت جاءت معلمته تلونه إلى بيتنا .
ونظر إلى أمى مبتسماً وهز رأسه كأنها يعاتبني على ما يدور بخاطري من
ظن بروجي . وكأنها يقول لي :

إن روحها جميلة جمال شخصها ، وإنها تحبني حباً لاسه أحسانها .
وحاولت ابتسامته بإبتسامة مثلها شكراً له على عطفه وانتظاراً للبيانو الذى
كنت أحلم به .

وكان حقاً على أن أشكر زوج أبى لتأييدها طلبى ، لكننى لم أفعل ،
فقد كنت أريد أن أتخذ من تعلم البيانو فرصة للفرار من جو المنزل ، أما أن
تجىء معلمة البيانو إليه فقد أصبحت دروسه تحت سمع امرأة أبى ويصرها ،
وهذا السمع والبصر يضيقان على الفرصة التى كنت أطمح فى انتهازها ،
ولم أكن أستطيع أن أعبر عما يخالج خاطري من ذلك مخافة أن يساء تأويله ،
وما أغثنى عن سوء التأويل ، وحسبى أن صديقتى وزميلتى التى كانت تقم
على مقربة منا كانت تكرر الرد على ، وكان يسمح لى يرد بعض زياراتها . .
واشترى والدى البيانو ، وجاءت معلمته فأكبت على استدكار دروسه ،
إكباتى على قراءة كنى ، بذلك شعلت معظم وقى ولم يبق فيه لتدبير المنزل
فى صحبة زوج أبى ما يثقل على نفسى أو تنوء به روحى ، ومع ذلك بقيت

الحيرة تتولاني كلما خلوت هنية إلى نفسي ، وأشعر كأني غريبة في هذا المنزل الذي ولدت به ، والذي أعيش فيه مع أبي ، وكأن روحاً آخر يعرف من وراء الحجب ، يريد أن يطمئن عليّ ، وعلى أنني لا أنوء بألم الحياة .

وكان أبي يشاركني الحيرة ، وإن كانت حيرته من نوع آخر . . . لقد كان يسبقني إلى رغباتي ، فلم أكن أطلب شيئاً إلا أجبني إليه ، وأضاف إلى ما طلبت ما يظنه يزيد في غيظتي ، وكان يرى زوجه تشاركه في العمل على إرضائي ، ثم يرفى برغم ذلك قليلة الالتسام مبالاة إلى العزلة ، يبدو عليّ دائماً أن شيئاً ينقصني ، وأتقن غير مستريحة لما أنا فيه ، وكان من حقّه والأمر كذلك ألا يعبأ باعتزالي ، لكنه مع ذلك يحاول دائماً أن يبلغ مرضاتي ، على حين كانت وجهه نرى في تصرفه من المبالغة في تدليلي مالا يتفق مع حسن تربيته .

ولقد طالما ذكرت تلك الأيام ، بعد أن تزوجت وصرت أمّاً ، وطالما سألت نفسي : أكنت متجنية في حيرتي في عزلي وفي عدم رضائي ، فلم يكن ينقصني بهذا شيء ، ولم تكن زوج أبي تسيئني بكلمة ، وكان جوابي عن هذا التساؤل هو الجواب الطبيعي . فسادتنا لا تتعلق بحاجتنا المادية بل بما تتعلق بحالتنا النفسية وبإحساسنا وحواسنا ، ولئن جرت في شأن امرأة الأب الأثاويل ، لمحق أن زوج أبي لم يعتمد يوماً أن تعرج عواطفه ، أو أن تمنع عني خيراً ، بل لقد كنت أرى والذي قبل مرضها ووفاتها توجه إلى من ألوان النقد ما لم توجهه إلى زوج أبي .

لكن النقد الذي كانت توجهه إلى أمي ، والذي كان يفضيني أحياناً ،

كان صادراً من أمي . كان الدواء الذي لا نسيخ طعمه أحياناً ولكننا نرى فيه الشفاء . فإذا لم تؤمن بأن فيه الشفاء فلا ريب عندنا في أنه صادر من قلب سليم . وإخلاص صادق لخيرنا ، بل لا ريب عندنا في أن الحنان المتفجر من أعماق القلب البر المعطوف ، قلب الأم ، يحو كل ما في هذا الكلام من شائبة تكدر صفوتها . وهل الأم كلها ، وكل ما يصدر عنها ، إلا حنان وبر وعطف وإيثار لينها على نفسها ؟ وهل الأم وما أنجبت إلا شجرة واحدة تنسج فروعها ، وكل ما ينسجه الجذع من أسباب الحياة إنما ينسجه لحساب هذه الفروع وليهااتها ونمائها وحسن إعمارها ؟ أولا تدل قوانين الوراثة على أن الأسرة وحدة متصلة على الزمن ، وأن عصارة الحياة في عروق الأجداد تمتد إلى أحفاد الأحفاد ، وقلب الأم يعرف نفسه ولا يفرح لصاحبه أو يأسى لما يصيبها وإنما فرحه لابنها أو لايتها وآسائه لما يصيبهم . والأم نجتمع إلى قلبها قلب الأب لتسكب حناناً ومحبة وبراً في روح ذريتها ، هذا كله تراث معنوي صحم هو مصدر طمأنينة للحياة وسعادتنا فيها . . .

أما زوج الأب فشخص مستقل عنا كاستقلالنا عنه . تتضارب مصالحه مع مصالحنا ، ويؤله مع ميولنا . وهي تناقضنا في كسب قلب أيتنا وزوجها . قد تنشأ بيننا وبينها صداقة . ولكن محال أن يربط الحب الصادق بين قلبها وقلبنا . وأتى لها حب الوالدين لأبنائهما وإن بلغت من طيبة القلب وصفاء النفس أعظم مبلغ ؟ . . أذكر قصة طريفة تصور في سخرية عاطفة الأمومة وكيف تسمو بفطرتها على العقل ومنطقه . فقد كان لواحد من أقارب أبي زوجتان أنجبتا في عام واحد ولداً وبتاً ، وكبر الطفلان ، وكان للولد غرام بأن بعض

بأسنانه من يئوشه ، وتأصلت هذه العادة به ، فكان يلجأ إليها من غير أن يئوشه أحد . وإن أخته لتجلس إلى جانبه يوماً إذ بدا له أن يعضها فحزرت منه إلى أمها . وحميت أمها من أخيها غيكي وأمن في البكاء ، وعرفت أنه سبب بكائه فصاحت بضرتها : « ألا تشفقين على هذا الطفل ؟ » وما ضر أخته إذا هو عضها واستراح وانصرف عن البكاء ؟
فأحابت أم الطفلة :

« أتريدن أن يسترىح هو ، وأن تبكي أخته لغير ذنب جت ؟ . فليكن وليتغلق من البكاء قلن أريج شدوخه . ! »

وتبادلت الضرتان ما شامت الشحات أن تبادلاه من عبارات أوحش بها لكل واحدة منهما أمومتها . ألا يدل ما في هذا الحادث من سخرية وسخف على احتقار نظرة الأمومة لكل منطلق ؟ . . أو لو كان الطفلان توأمين لأم واحدة ، أفكانت تحاول أن تريح شهوة الولد على حساب البت ، أو أن تدع الولد يعم في بكائه ولو انفلق ؟ . أم كانت نجد في حنان أمومتها ما يسكن الطفل عن غضبه وما يصلح بينه وبين أخته من غير أن يعضها ؟ . . .

ولا ذنب على زوج الأب فيما تهما به الأقاويل ، فالأقاويل تريدنا أن نكون لغير بنينا ، وهي لا تستطيع ذلك وإن حاولته ولا وزر في ذلك عليها ، إنما ألوزد على الرجل الذي تزوج بعدما أنجب بنين ، سواء تزوج في حياة زوجه الأولى أو بعد وفاتها . وما حاجة الرجال إلى الزواج بعد أن يصبحوا آباء ؟ ! إن نساء كثيرات يكرهن حياتهن لتربية فرتيهن . وحتى على كل امرأة وكل رجل أن يكون ذلك شأنه .

لست أدري لم أنزع الساعة للدفاع عن امرأة الأب بعد الذي كنت فيه من حيرة وعزلة وعدم رضا منذ تزوج أبي إثر وفاة أمي ، فلأدع هذا ولأعد إن قصتي . لقد انقضت الشهور منذ اشترى والذي لي اليبانوم منذ عكفت نهاري على استاكار دروسه عكوفاً أنساني شئون المنزل ، وكيف تكون العناية بتدبيره ، مع ذلك بقيت أشعر بالوحدة والعزلة برعم عطف أبي وحنانه ، ولقد زاد في شعوري هذا حادث لم أكن أحسب أنه سيترك في نفسي أثراً . فقد كان طبيب من كبار الأطباء المتخصصين في أمراض النساء يتردد على المنزل ويعود روج أبي ، وقد كان أول أمره لا يبتلع عليه حين انصرافه ما يترك على جديد ، واستمر كذلك شهوراً حتى رأيته يوماً متهللاً ، ورأيت والذي يودعه إلى الباب الخارجي وعلى ثغره ابتسامة عريضة تم عن مسرته واغتيابه . وسرعان ما علمت أن زوج أبي حامل ، وذكرت لسماع هذا التبا حديث عمي لأنني بعد قليل من وفاة أمي تعرضه على الزواج ، لينجب الخلف الصالح ، وليكون له بنون يحفظون له اسمه وذكره . عما قريب إذن سيتركني في عطف أبي طفل يستأثر بقلب أمه ويكمل روحها ووجودها .

أتراني يومئذ أحب هذا الطفل كما لو كان ابن أبي وأمي ؟ . . وماذا يكون موقف أمه مني ؟ . . لعل لم أبلغ من تحليل الموقف ما يحول الآن بخاطري . . . ولكنني ارددب إكباباً على اليبانومهاراً ، وعلى القراءة ليلاً ، ولم ألق بالالما بعدا على زوج أبي من أمراض كانت تلزمها سريرها أحياناً ، وتدعوها لتكلفتني بمراقبة ما يطور في المنزل . أما أبي فقد ازداد حبساً على زوجته ورعاية لها ، وسجل يدعو الطبيب ليراهها كل أسبوع أو أسبوعين مبالغاً في العناية بها ،

وبالطفل المستكن في أحشائها ، وكان الطبيب يستصحب في بعض زياراته طبيباً شاباً يعاونه في قياس الضغط ، أو في إجراء بعض تحاليل سريعة يرى الطبيب المباشر أنه في حاجة للوقوف على نتائجها لوقته .

وكان هذا الطبيب الشاب وسياً دقيق العناية بهندامه ، وفي عينه بريق خاص ينم عن الذكاء والعلمية مجتمين . وقد كان يسرع بالدخول مع الطبيب الكبير إلى غرفة الحامل ، فكان قصارى أن ألمح من وراء حجاب ساعة دخوله وخروجه . وكانت نظراته وحركاته تجعلني أفتبط بما أرى منه ، وأود لو أستطيع التعرف إليه . أما هو فكان في شغل عني بما يوكل إليه إجراءاته في أثناء الزيارة ، فإذا انصرف مع الطبيب الكبير المتخصص في أمراض النساء تابعته بنظري من نافذة غرفتي .

ولم يكن لي سبيل إلى التعرف إليه ، والحجاب المصروب على النساء كان يومئذ على أشده ، فلم يكن يتاح لواحدة من بنات طبقتنا أن تقف مع رجل أو تتحدث إليه أبداً كانت منه . بل لقد كانت الفتاة تخطب إلى شاب لم تعرفه ولم تره ، ويكون القول الفصل في زواجها منه لأنها ولأبيها ، وكان العار أكبر العار أن يكون لها في الأمر رأي ، أو تكون لها فيه كلمة .

وانقضت مدة الحمل ، ووضعت زوج أبي خلافاً جميلاً لبهج والدي بمولده ، وفاض عنه السرور به ، وجاءت أخت زوج أبي وأقامت لها حفل « سبع » منقطع النظير ، بدأت أشعر نعر هذا الطفل البريء بعاطفة الأخوة التي لم أعرفها من قبل . فلما صلب عوده وأصبح مستطاعاً حملة كنت آخذه من مربيته وأضعه في العربة في بهو الطابق الأول ، كما كنت

أحد في الترويل به إلى الحديقة خير تسلية ، حتى لقد كانت هذه التسلية
تصرفني إلى حد كبير عن استدكار دروس البياض .

وتوعدك العفل فجن جنون أمه ، وأسرعت إلى استدعاء الطيب الشاب
الذي عرفته أيام حملها . ففحص الطيب العفل وطمان أمه وأياه وأخذ
يحدثهما عما يجب من رعاية « لول العهد » ، ورغبت الأم أن أسمع كلام
الطيب اقتناعاً منها بأنني أقدر من المربية على العناية بالطفل . ولم يجد أبي
بأساً بدعوتي ، فلو أنني مرضت لعادني هذا الطيب وأنا في غرائبي ، فلما
ناداني وعرفت أن الطيب لا يزال في غرفة الطفل شعرت بقلبي يحنق ،
ثم هدأت نفسي إذ وجدت القرصة سائحة لما كنت أطعم فيه من التمر
إلى هذا الشاب الذي كان يكبرني بعشر سنوات أو نحوها ومن معادته ،
واستمعت إليه يصف الدواء ، فأخذت أسأله عن تفاصيل طعام الطفل وشرايه
وبومه واستحمامه ، وسرت زوج أبي بما بدا من عنايتي بابنها فنظرت إلى
الطيب نظرة استعطاف وقالت :

لا تؤاخذها يادكتور ، فهي تحب أباها أصدق الحب ، وهي تتولى
الكثير من شؤنه .

وودع الطيب دواء بسيطاً وقال إنه سيعود بعد ثلاثة أيام ليطمئن
على صحة الطفل وعلى أثر الدواء . وعينت أنا خلال هذه الأيام الثلاثة تنفيذ
أوامره في شأن الطفل بدقة أثارت إعجاب أمه ، ومسة أبي ، وكنت أنتظر
اليوم الثالث بصبر نافذ ، وبخاصة لأنني رأيت الطفل قد زالت وعكته وعادته
الابتسامة البريئة الملائكية التي تجعل الأطفال جميعاً أحبباً الله ، وتجعل

هذا الطفل الجميل ملاكاً يشع منه نور يسعد كل من حوله .
وجاء اليوم الثالث وجاء الطبيب ورأى الطفل وأبدى اغتباطه بشفائه .
ولم تنس على زوج أبي بشهادة طيبة ، إذ قالت إني أنا التي بذلت كل
العناية في تعيد العلاج ، وأدار الطبيب الشاب نظره إلى وقال : يظهر أن
للآنسة غراماً بالطب ، أم أن حبها لأخيها وعاطفتها الرقيقة نحوه كما أشد
أثراً من الدواء في سرعة برئه . وأنا مع ذلك سأعود بعد أسبوع لأزداد
اطمئناناً على صحته ، فالأطفال في سن التسعين معرضون لوعكات لا خطر
منها ولكنها ترعجهم وتزعج أمهاتهم أحياناً ! . .

وجعل الطبيب يعود الطفل بعد ذلك كل أسبوع ، وجعلت أنا أزداد
بهذا الأخ الصغير الجميل عناية وله حباً . أفكأنت عاطفة الأخوة وحدها
مبعث هذه العناية ؟ . أم كان مبعثها غيرة الأمومة التي تتحرك في أحشاء كل
شابة لمراى طفل جميل ولاجتلاء ابتسامته ولا اتصال جسمه بجسمها ؟ . .
أم ترى كان لهذا الطبيب وزياراته المتعاقبة أثر في هذه العناية ؟ . . يصعب
على أن أبدى حتى اليوم رأياً في الأمر ، ولعل هذه الدواضع جميعاً كانت ذات
أثر فيه ، ولكن الذي أذكره أدق الذكر أنتى برغم ما شعرت به نحو هذا
الطبيب من جاذبية ، وما كنت أجيد في حديثه من متعة ، كنت شديدة
الحرص على أن لا تدمر مبادرة تكشف عما في نفسي ، بل كنت أبلو أشد
حرصاً على أن أثير إعجابه وتقديره لعنايتى بأخى منى على أن أكشف له عن
عواطفى ! . .

فقد سمعت أن إحدى زميلاتي في المدرسة أحببت شاباً نابهاً وعرضت نفسها

صبيه ليتزوجها فرغب عنها وخطب غيرها ، فلما ثبت الخطبة حاولت هذه
ذريعة الانتحار . وإن كرمائي لتسويبي عن أن أعرض نفسي على كائن
من كان . بل إنى لأشعر بأن الحب إذا اضطرب صاحبه ، رجلا كان أو امرأة ،
إلى هذه المثرة كان ضعفاً يجب أن تنتزه عنه كل نفس مهتدة .

وقد استأثر أخى الطفل بقلب أمه وبقلبها وبكل وجودها ، فلم تكن
ترى في محيطها غيره ولم تكن تسمع غير صوته . لقد كنت أراها جالسة إلى
أبي يتحدث إليها وتستمع هي إليه ، ثم أراها تتدفع قائمة نحو غرفة الطفل
تقول :

إيه بيكى ! . . .

هنا ولم يكن أينا سميع بكاءه ، ونجى به وقد حملته إلى صدرها وقلبها
فاذا للدموع بالفعل في عينيه ، وإذا هو حقا كان بيكى في صمت لا يسمعه
إلا قلب الأم ، ولم يكن أبى يسمع هنا البكاء الصامت ، ولكنه لم يكن لذلك
أقل إقبالا على الطفل وإعزازا له من أمه ، كنت أرى هذا الرجل
الرزين الحصيف يدخل إلى البيت وفي يده غير مرة في الأسبوع لعبة من
لعب الأطفال ممن هم في مثل سن أخى ، وكان يجد متاعاً بل سعادة كلما
رأى الطفل يتسم أو يضحك ، وكان الوالدان يزدادان للطفل حبا
كلما تقدم عمره . فلما استطاع أن يقف على قدميه ليمشى كانت حركاتهما
لتشجيعه تثير الضحك ، لكننى لم أضحك لأننى كنت أحب أخى كما كانا
بحبائنه . وكنت سعيدة كسعادتهما به ! . . .

وشغل « ولى العهد » خدم البيت كما شغل مادته ، فلم تكن مريته

وحدها تلاحظ حركاته وسكناته بسطوف وعناية ، بل كانت كل واحدة من الخدم تود لو استطاعت أن تخدم سيدها « اليه الصغير » ، لتسعد هذه الخدمة ، ولتنال بها حظوة عند أمه وأبيه وأخته ، ولست أبالغ حين أذكر أن الكل كانوا يعملون لعنايتهم بهذا الطفل البريء الذي الجميل ، وكانت أمه مع ذلك تخاف عليه من خياله ، فإذا سقط على الأرض وهو يمشي أقامت الدنيا وأقعدتها ، وإذا صاح لأن أحداً أخذ منه شيئاً مخافة تلفه صاحت لصياحه وأثارت في البيت صيحة كأن حادثاً خطيراً حدث ، ولم يكن أبي يلومها على شيء من ذلك أو يسدى إليها النصيحة لخير الطفل ، بل كان يجاريها في غضبها ورضاها ، لأنه كان لا يرى إلا بعينها ولا يسمع إلا بأذنها . ولا يعرف في الحياة منطقاً غير منطقها .

بدأت برغم حبي لأخي أضيق ذرعاً بهذه المبالغات وأشعرا نتي أصبحت من رعاية أبي في المحل الثالث لا في المحل الثاني ، وأد أخى وأمه مفضلان عليّ عنده ، فازداد برمي بزواج أبي ، وأحسست أن البيت على سعته يضيق لي ، وكنت قد تجاوزت إذ ذلك الساعة عشرة من صبي حياتي ، وكانت صديقتي التي تعيش مع أبويها على مقربة من بيتنا قد خطبت إلى شاب موظف في الحكومة أثني عليه أبي غير مرة أمامي .

قلت في نفسي : أولاً يكتب لي المحظ ما كتب لها فانتقل إلى بيتي أنا بدل أن أبقى حبيسة مع امرأة أبي ١٤ ونصورت يوماً قريباً يكون لي فيه طفل كأخي أسبق عليه من حبي ومن قلبي ومن عنائي ورعايتي كل ما يحتويه قلب الأم من بر وحنان .

ساورتني هذه الأحلام واشتد أخذها بخناق حين اشتدت لطفة زوج أبي
على ابنها الطفل حتى جعلت تلومني على ما سمته عدم عنايتي به . وهي قد
زادت في التشريب عليّ منذ رأيتي عدت أستاذة دروسني على البيانو وأقضى
وقتاً غير قليل أمامه ، فقد كنت أهملت هذه المذاكرة شهوراً عدة لفرط اشتغالي
بأخي ، فلما رأيت مخاوف أمه ولطفها عليه وتعلق أبيه به أخذت أعود إلى
دروسني أتسلى بها عن هذا الشعور الذي اشتد بي ، وجعلني أشعر أنني
صرت من رعاية أبي في المحل الثالث . ولئن حرّ هذا الشعور في نفسي لقد دعاني
من بعد إلى أن أسأل :

تري لو أن أمي لم تمت وأنجبت غلاماً كما أنجبت زوج أبي ، أكانت
الرعاية الأبوية تنصرف إليه عني ، كما انصرفت إلى أخي من غير أمي ؟ .
أم كنا نعيش أسرة واحدة يجرى في عروقها دم واحد هو ماء الحياة الذي ينميه
جذع الشجرة ليمتد منه إلى فروعها البهاء والنماء والحيوية المترعة بمعاني
النعمة والسعادة ؟ فأين نحن الآن من هذا الوضع ؟ إن الفرنسيين يعبرون
عن الأخ أو الأخت لأب ، وعن الأخ والأخت لأم أنه نصف أخ ، أو أنها
نصف أخت ، وقد يكون لهذا التصنيف المادي ما يسوغه ، ولكني أحسب أن
للتصير الفرنسي معنى أعمق من ذلك بكثير ، معنى يتناول الجوانب العاطفية في
صلات الأسرة وأفرادها بعضهم ببعض ، فصلة الأم بأبنائها صلة مباشرة ،
هم من دمها ولحمها ، ومن قلبها وروحها ، ومن أعماق وجودها . أما صلة
الأب بالأبناء فصلة بالواسطة . والأم هي هذه الواسطة ، فإذا كان له أبناء
لأكثر من أم تأثرت عواطفه لأبناء كل أم بمبلغ ما بينه وبين الأم من مودة ،

وإن اختلف هذا الأثر في نفس أب عنه في نفس أب آخر ، هذا إذا كانت
الأمهات جميعاً أحياء .

أما في مثل حالتنا حين تكون أم حية وأخرى قد انتقلت إلى جوار الله ،
فذكرى المتوفاة تقوم في نفس الأب مقامها ، وإن كان الحاضر أفعّل أثراً
من الغائب . وأبى كان يحب أمي أشد الحب ، وهو اليوم يحب زوجته أشد
الحب . ولا يستطيع الحاضر أن يحجب الماضي وإن استطاع أن يغلب عليه ،
ولعلولة أخى ولجمال أمه أثر في هذا الغلب .

ولعل لو أتيت لي من الحظ ما أتيت لصديقتي التي تقيم مع أبويها قريباً منا
لخطبت ثم تزوجت لاسرددت رعاية أبي كاملة ، ولتخلصت من لوم زوجه
إياي وشريها عليّ .

وقبلاً تساورني أحلامي عاودت الوعكة أخى ودعى الطيب الشاب
لعيادته ، فلما رآني أخذ يسألني عنه ثم يسألني عن نفسي ، وكان هذا الطيب
هو الشاب الوحيد المثقف الذي أتيت لي أن أتحدث إليه غير الشباب من ذوي
قرباي وأبناء أسرتي ، ولم يكن واحد من هؤلاء يطمع في يدي لأنهم كانوا
ينظرون لأبي على أنه أكبر مقاماً وأوسع ثروة وأعرض جاهاً من آباءهم جميعاً ،
ولم أكن أشعر نحو أحد منهم بمحبة ولا بجمادية خاصة ، ولذلك كنت أتمنى
لو أن هذا الطيب خطبني إلى أبي ، ولو أن أبي قبل هذه الخطبة وبشرني بها ...
ومن يومئذ جعلت أخلق لنفسى منه تمثال المحبوب العزيز الذي أتمناه لنفسى .

وكان أشد ما جذبني إليه ما تم منه نظراته من طيبة قلبه ورقة شعوره ، وهو
قد بلغ من ذلك مبلغاً غير مألوف ، كان برغم أنه طيب ، يتحدث عن

مرص أخى ونعمة تفرق في عينيه . وكان إذا قس على والدى بأ من
الألم بدا عليه التأثير لكل مصاب أو محزون . وكان إلى ذلك محباً للحياة
ومتاعها . تبدو عليه آثار اليسار والنعمة . كانت السارات في ذلك العهد
مركباً نادراً . وكانت له مع ذلك سيارة أنيقة يسر العين مرآها . أما وذلك
شأنه فلا بد أن يكون خلقه رضيعاً وأن تكون الحياة معه حياة طمأنينة ونعمة
وسعادة ! . . .

وبما يوماً يعود أخى . وكان والدى قد استدعى إلى العزبة على عجل .
فلما أتم فحصه . وبدأ يكتب تذكرة الدواء أخذ يتحدث إلى فيما يخص
اللعناية به . وقبل أن يتم حديثه نهض فمضت معه وسرت إلى جانبه وأخذ
يكمل حديثه ونحن على السلم في طريقنا إلى الطابق الأرضى . وبعد عدة
درجات هبطناها على السلم قال :

- اسمى يا آنتة ! . . إتنى فكرت أن أخطبك إلى أبلك . لكنى
رأيت ألا أفعل ما لم تكونى أنت موافقة على ذلك .

فألقيت بصرى إلى الأرض ، واحمرت وجنتاى خجلاً ، وقلت في نىء
من الكبرياء :

ليس ذلك شأنى ولكنه شأن أبى .

وكان تعليقه على عبارتى : يكفىنى هذا منك ، وأنا أشكرك أنجزل
الشكر .

وعدت مسرعة إلى غرفة أخى مخافة أن تظن أمه بى الظنون ، وأخبرتها
أن العليوب ذكر أن ما به ليس إلا سوء هضم بسيط سرعان ما يزول أثره .

لا رأى إلا ما يراه أبى .

فصنعتى مرة أخرى وقالت :

مع الجواب يا حبيبى . وهكذا يكون الأدب . وهذا ما كان ينتظره
بوك وما كنت أنتظره مث .

وفى أتعذ جاء الطيب ومعه صديق له وقابلا والدى فى السلامك ، فلما
انصرفا جاء والدى فقبلنى وأحبنى أنهم سيقرءون فاتحتى بعد غد .
وبعد عد جاء الطيب ومعه أهله . واستقروا مع والدى فى السلامك
وقرءوا الفاتحة وأدبرت عليهم المربطات . هنالك انطلقت ألسن المخلم
بالزغاريد . وهنالك شعرت بأنى خطوات خطوة واسعة ، نحو آمالى فى حياة
جديدة .

وأصبح خطيبى أكثر حمية فى التحدث إلى حين زيارته إيانا ، وشعرت
بأن الحظ أسعدنى بما لم أكن أسعد به لو أن أحداً غير هذا الطيب قد
خطبى ، فلأن ذلك حدث لما رأيت خطيبى إلا من فرجات النوافذ ولا استمعت
إلى صوته إلا إذا سمعت من وراء الأبواب حين حديثه مع أبى . كان ذلك
حكم الوقت على كل فتاة تخطب ، أما وقد سعدت بما لم تسعد به غيرى فقد
أيقنت أن الحظ ييسر لى ، وأن القدر سيعوضنى عن فقد أسمى عاطفة جديدة ،
تلك عاطفة الحب المتبادل .

وشغل أبى وشغلت معه بجهازى . وكانت زوج أبى تشاركنا رأى فى
معضه ، وتكون صاحبة رأى الأخير فى أمر الحل والثياب ، وكانت فيما
تقدم به من ذلك غير ضمنية ولا متلكنة ، فلما آتينا الجهاز أقيمت حفلة

الزفاف - حفلة تادوة باهرة ، وملت زوج أبي ليلى في أبي حلقها وأبدع
زيتها ، وقد تلاً جمالها حتى كانت كأنها عروس الحفل ، أما أنا فكنت
أنتظر بصبر ذاهب نهاية الاحتفال ، لأذهب مع زوجي إلى بيتي ، ولأنسى في
أحضانها متاعب الحياة .

وانتقلت معي إلى بيتي بخادم كانت عندنا من عهد أمي ، وكانت أمي
قد وعدتها بأن تكون في خدمتي حين أتزوج . فلما اطعنت في غرفة نومي
وأن لي أن أطلع ثيابي وجمعت هذه الخادم تماونني قالت في ابتسام :
أسمعت يا سيدتي كلام السيدات في الفرح ؟ ! . أحسبك كنت مشغولة
عن كل شيء بانتظار المجيء إلى هنا .
قلت :

هذا صحيح . وماذا قلن ؟

وأتمت الحديث بقولها :

لقد أدهشتن زينة سيدتي زوج أهلك حتى قالت إحداهن :

لمن الفرح ؟ أهوللنت أم للست ؟ ..

وأجابت الأخرى :

هو للنت اغتباطاً بدهابها إلى بيتها . وهو للست اغتباطاً بتخلصها من

شت ضررها واستقلالها بالبيت وسيدة فلا يكون لها فيما شريك ! ..

واتسمت لحديثها ، ولم تليث حين رأيتي خلعت ثيابي أن غادرت الغرفة ،

ليجيء إليها رب البيت ، ليجيء إليها زوجي العزيز الحبيب الطيب الشاب ! ..

وبدخوله الغرفة بدأت سنوات هائلة سعيدة ليها دامت .

الفصل الثالث

فضيلاً بدء حياتنا الزوجية سنوات هائلة سعيدة ليها دامت . ولقد طالما
بحثت عن السبب فيما طرأ عليها من بعد . أنا أعلم أن كثيرين يهتمون بأني
السبب ، وأنه لولاي لبقينا فيما كنا فيه من بركة وطمأنينة ، ولكني لا أقر هذا
القول ولا أؤصاه ، بل أحسبني كنت ضحية أكثر مما كنت مشولة عما حدث ،
ولست أريد بثبوت هذه القصة أن أدافع عن نفسي ، وحسبي أن أسوق
الحوادث كما وقعت ، وأدع من تقع عينه يوماً على هذه القصة أن يحكم
لي أو علي . . .

ولا أريد متبرئة نفسي أن أتهم زوجي بأنه هو وحده سبب ما أصابنا .
ولو أنني فعلت لكنت ظالمة ، وإن كنت لا أستطيع أن أبرته براءة كاملة ،
مع الاعتراف من جانبي بأنه لم يقصد إلى غرض سيئ ، بل لعل طيبته وبالح
عطفه يحملانه من التبعة أكثر مما كان يحمل لو أنه كان أكثر قصداً فيهما
لقد بدأنا حياتنا الزوجية حبيين سعيدين . كان كل ما حولنا يسم لنا ،
ويشعلنا بأنغام السعادة . كنا نخرج تحت جناح الظلام في سيارته وكان هو
يقودها ، مرة إلى سفح الهرم ، وأخرى إلى القناطر الخيرية ، وثالثة إلى المعادي ،
ورابعة إلى عزبة والدي ، فلم أكن أرى في الطريق - إلى أي من هذه
الأماكن الخلوية - إلا السعادة يحملها الهواء معه إلى قلبي وروحي .

وكنت لا أشعر حين هودتنا من هذه الجولات بشيء غير عير الحب يحمله
السم على أجنحته ويدخل به وإيانا إلى عشنا الصغير الجميل ، وكان زوجي
الشاب الرقيق العزيز يمني لو استطعنا أن نساخر إلى أوروبا نمضي في ربوع
سويسرا أو النمسا شهر العسل ، لولا أن كانت الحرب العالمية الأولى تحول
بيننا وبين تحقيق هذه الأمنية الساحرة البديعة ، وقد استعصنا من هذا السفر
بالمقام زماناً في ذهنية لأحد أصدقاء أبي ، فكنت أحس إذ أنظر إلى ماء النيل
من بواقيها وكأنه يحمل في نياحه أريج الصبا ونسيمه العليل .

وكان زوجي يعيب عني ساعات كل يوم في عمله فكنت أشعر بأن من
انتظاره على لظي ، لا يبرد سعيرها إلا أريج يحمل الحب شفاة آتياً من
ناحية عيادته ، فإذا عاد إلى عشنا وثماقتنا شعرته ، كأنني ذبت في هذا
المناق خلالة . وأصبحت حبة قلبه . وكان هو من جانبه يبادلني حباً بحب
وهياماً بهيام . كان كل تفكيره متى فرغ من عمله كيف يزدني سعادة وهناءة ،
فإذا جلس إلى جانبي ، وألقيت برأسي على صدره شعرته من بهبات قلبه
بطمأنينة إلى الحياة تنقلني من هذا العالم الذي يضطرب فيه الناس ، جرياً
وراء أهوائهم ومتافهم إلى عالم من الأحلام مفروشة أرضه بالورد ، مطر
هواؤه بشفا الحب وأنغام الفوى والفراغ . أين أنا الآن مما كنت فيه منذ
توفيت أمي .

بل أين أنا الآن مما كنت منذ ولدت ، إنني سعيدة سعيدة سعيدة .
سعيدة عما لا تعبر عنه الألفاظ بل لا تعبر عنه الموسيقى ، وكأنني أتقلب
من عالم الناس في نعيم جنة الخلد ، فيها ما تشبه الأنفس وتلك الأعين

وما يحتملنى على أجنحة من الخيال إلى عالم السعداء والراضين ، عالم المحبين الذين يستمتعون بنعمة الحب إلى غاية حدود المتاع

انقضى العام الأول من حياتنا الزوجية وأنا فى هذا البحر اللجى من فطر السعادة ، وكنت فى أثناء ذلك لا أخالط غير زوجى من الرجال إلا أبى والأقربين من محارمى ، فلم يكن يباح للمرأة من طبقتنا يومئذ أن تتحدث إلى غير هؤلاء من الرجال ، أما النساء فكانت تزورن منهن بعض زميلاتى وصديقات صباى وحبيبات أُمى . وكانت زوج أبى تزورن أحياناً بطبيعة الحال ، وكنت أنقل كل حديث يجرى بينى وبينهن ، أو بينى وبين أبى ومحارمى ، إلى زوجى العزيز ، وكنت أشعر بالغصة حين أراه مسروراً لسماع هذا القصص الساذج ، لأنى كنت مصدرة ، ولم يكن يخفى ذلك على ، بل كثيراً ما كان يقول لى إذا أنا فرغت من رواية أفاصيصى :

تحدثنى ، تحدثنى ، إن نعمات صوتك تشجىنى ، ونظراتك إلى فى أثناء الحديث تنفذ إلى قلبى ، وتبعث إلى وجودى كله النشوة والطرب .

وكنت أعلم أن فى نظراتى جاذبية طالما سحرت بها وأنا أنظر إلى نفسى فى المرأة ، جاذبية لا ترجع إلى جمال عيى ، بل إلى قوة التعبير التى تنبعث من هذه النظرات ، ولم أكن أحسب أن هذه الجاذبية قديرة على أن تسحر غيرى كما كانت تسحرنى ، وكنت أشعر كذلك أن لصوتى حين أتحدث سلطاناً لا يقل عن سلطان نظراتى . وكنت قد ورثت نعمة صوتى عن المرحومة أُمى ، كما ورثت لياقة حديثى وقوة تسييره عن عواطفى ومقاصدى عن أبى . ولا شك فى أن قراءاتى الكثيرة فى الكتب العربية والأجنبية قد أعانت هذه

لوراته وبلغت بي إلى هذه المقبرة التي كان يعجب بها زوجي على أنني لم أقدر سلطان هذه الملكات على غيري لأول ما حدثني زوجي عنها ، بل حسب أن حبنا المتبادل هو الذي يوحى إليه إطراده . فلما رأيته يكرر الإطراء في مناسبات شتى أخذت أعتد هذه الملكات ، وأعني بتنمية غراسها ، فعدت إلى مرآتي أدرس فيها سلطان نظراتي ، وعدت إلى كتي أفرقها حين غياب زوجي في عمله وفراغي من تدبير المنزل . وكنت أقرأ بصوت مسموع ما يعجبني ، وما يزيد حسن الإلقاء أثراً في النفس . فإذا جاءت صديقاتي والأقربون من ذوي رحمتي . لزيارتي أخذت أتمسك أثر مواهي فيهم ، وسلطان نظراتي وحيارتي عليهم .

ومن يومئذ آمنت حقاً بأن من اليان لسحراً ، فقد كان الذين يزوروني يبالغون في إعجابهم ، بحسن إنصاتهم لحديثي ، واستزادتهم منه ، مما جعلني أنا كذلك ألد بالإصغاء لصوتي والاستماع لحديثي حين متاع الآخرين به ، وكنت أحرص على ملاحظة أثره في نفوسهم ، وبخاصة حين كنت أصور لهم ما تركه حادث في نفسي من مسرة أو ألم ، من رضا أو غضب ، من غبطة بالجمال أو تفرز من القبح ، فإذا شاركوني في إحساسي ، ولححت على وجوههم أمارات هذه المشاركة ، اطمأنت وازددت رضا عن نفسي وإيماناً بسلطاني . انتهت الحرب العالمية الأولى في منتصف الخريف ونحيل إلى عند ذلك أن الجلو أصبح مهيتاً لأسافر مع زوجي إلى أوروبا بنشر في ربوعها الجميلة غير حيناً . ونستشق مع نسائم جبالها الرفيعة النوى أريجاً منعشاً يضاعف متاعنا بالحياة ، ونجلى في أم اللدائن باريس ما تهوى إليه كل أنثى ، وما يفتح له

قلب كل مشغوف بالهن وكل مولع بالجمال . وأشرت في حديثي مع زوجي إلى رغبتي هذه ، فلم يلبث أن ذهب من بكرة غده إلى مكاتب السياحة يعد لسفرتنا العلية . فلما عاد لموعد العشاء أحبرني في أسف أن السفر فيها وراء حدود مصر لا يزال محظوراً بأمر السلطة العسكرية البريطانية ، وأنها تأتي إياه تماماً أن ترخص به لأحد . وأنه يؤثر إذا رغبنا وجاء الشتاء أن نقضى أسبوعين أو ثلاثة بمشاتي الأقصر نزور هناك آثار الفراعنة . وأحسنت أنه يريد إرضائي ولو على حساب عمله ، وقدرت ما لعل زوج أبي أو بعض صديقاتي يتقولنه علي . فلم يكن سائغاً إلى يومئذ أن تنزل مصرية فندقاً في بلد مصري ، لهذا وذلك أبدت الرغبة عن معادرة العاصمة وقبّلت زوجي شاكرة إياه من كل قلبي .

ولم يكن حديثي مع زوجي يتعدى حياتنا الخاصة . وكان هو يذكر لي مشاهداته في عمله ، وأحاديثه مع أصدقائه ، ولما يجرى على لسانه شأن من الشؤون العامة ، وكنت أقص عليه ما أراه في زيارتي لصديقاتي وما يجرى في زيارتهن لي ، ثم يتقضى الوقت بعد ذلك ولا نحس كيف انقضى ولا نشعر بمروره . وكانت رغبة زوجي عن الخوض في الشؤون العامة طبيعية بحكم عمله ، وبحكم الظروف المحيطة به . فهو طبيب متصل بالناس على اختلاف ميولهم وألوانهم ، فلا بد له أن يحتفظ بحسن صلاته بهم جميعاً ، والجوال الذي كان مخبئاً على مصر يومئذ كان الحكم العرفي البريطاني ، وكان ما حدث إبان الحرب من اعتقالات يشيع في النفوس الحذر والخوف .

على أن انتهاء الحرب أذن بنشاط سياسي عام أخذ زوجي يتحدثني عنه كل يوم ، ويروي لي طرفاً من أخباره . وبعد أشهر قبضت السلطة البريطانية

على "زعهاء المصريين المطالبين باستقلال وطنهم ونفثهم إلى جريدة مالطة
هالك قامت في البلاد كلها . من أقصاها إلى أقصاها . ثورة كانت العاصمة
روحها ومصدر الوحي بها . ونخاف أن تنطور الثورة إلى عنف قد يصيبنا
شره . فاقترح أن تذهب السيدات إلى العزبة ، فرأى بهن من عصير
لا يعرفه أحد .

سافرت مع زوجي وروج أني وأخى الطفل في سيارة زوجي ، ولشد
ما كان عجي حين رأيت مظاهر هذه الثورة متشرة في كل مكان ، ورأيت
الفلّاحين والفلاحات فرادى وزواجات لا يكادون يروقنا حتى يهتفوا بحياة
مصر واستقلالها . هي ثورة شاملة إذن . أترانا نكون أكثر أمناً في العزبة منا في
العاصمة ؟ . لكنا ما لبثنا حين نخطينا أسوار المنزل إلى الحديقة واجترأنا
إلى داخل البناء أن رأينا فيه حصناً آمناً ، يبعدنا عن مظنة العدوان ، ثم ما لبثنا
أن رأينا أهلنا وذوي رحمتنا أقبلوا علينا ، يهتفون بسلامة الوصول وبالنجاة بما
علموا أن القاهرة تعج به من أسباب الاضطراب . عند ذلك سكنت نفوسنا
جميعاً . واطمأننا إلى حكمة والدي في مشورته علينا .

وأقمنا أسابيع عدة بالريف ، وكان زوجي يذهب إلى القاهرة في أثناء
الأسبوع ثم يحيى إلينا في سباته ، بقص علينا ما يجري هناك . ولم يكن يجد
في الانتقال مشقة ، لأن الأطباء كانت لهم حرية التنقل بتصریح عام خاص
بهم . وقد قص علينا يوماً في حماسة أن سيدات القاهرة خرجن في مظاهرة ،
مرتديات براقعهن وجيراتهن ، وأن الجيش البريطاني لم يجرؤ على التعرض لهن
بأذى ، وأن هذه المظاهرات أثارت العاصمة كلها ، وتركت في النفوس أثراً

أعظم من كل ما سبقه .

ونولاني لسامع هذا النبأ ألم وأسف أن لم أكن هناك لأشارك المظاهرات ،
ولأبدو أمام سيدات العاصمة في مظهرى الحق ، ولم أستطع أن أكرم ما دار
بنفسى عن زوجى ، فلما سمعته نظري إلى فى اتسام وقال :

أو كنت تستطيعين ؟؟ . . لا تنسى أنك حامل . وهذا الحمل هو
الذى دعيت للموافقة على مجيئك إلى هنا إشفافاً عليك من أن يصيبك اضطراب
العاصمة العصبي بأذى .

ولكن هذه العبارات لم تشف غلى ، فقد تصورت السيدات صافرات
في مظاهرتهم ، ورأيت صديقتى فى مقعتهن ، وشعرت بمكانى حالياً يمين ،
ونخيل إلى لو أننى كنت معهن أشعل هذا المكان لكأنت المظاهرة أتم روعة
وأشد لفتاً للأنظار ، أترى تعود السيدات إلى تنظيم مظاهرة أخرى ، بعد عودتى
إلى القاهرة ، فأشترك فيها !! . ولكن هبى علت ، وهب السيدات فكن
فى تنظيم مظاهرة أخرى ، فما عسأى أستطيع أن أفعل وأنا حامل !! . .

ولم زوجى ما يدور بمخاطرى وخشى أن يطول تفكيرى فيه فرأى أن
يصرفنى عنه بالحديث فيما هو أحب إلى نفسى ونفسه . ولذا سألتى . أتراك
فكرت فى اسم طفلنا العزيز ولداً كان أوبتاً ؟ . . وحرك سؤاله غريزة الأمومة فى
دخيلة كيانى ، وحرك للطفل الجين أحشائى ، وابتسمت كأننى فى حلم سعيد ،
ونسيت المظاهرة والمظاهرات ، وارتسم فى خيالى هذا الطفل العزيز حين مولده .
وبعد لحظة نسيت الطفل واسمه كما نسيت المظاهرة والمظاهرات ، وتعلمت
بمضى زوجى وقبلته بكل ما فى من حرارة الأنوثة والشباب والأمومة المرجوة

وقلت : حكت

ولم تتفق شفقتي بهذه الكلمة عن إرادة مني ، بل دفعها إليهما قلبي
دفعاً . لم يكن هما من الاستحالة إليه بد . فهذا الزوج العزيز هو مصدر
هذه الأمومة التي أنصبت أحشائي وجعلتني أسعد في بقظتي وفي نومي ،
بانتظار ثمرها . وهل ترائي أو يرى كل امرأة تبتغي في الحياة أشهى من هذه
الشجرة ؟ . . ولم أكن أعلم إلى يومئذ ما تحمل الأمومة معها من تضحيات
وآلام . ولم أكن إلى يومئذ أقدر الأعباء التي يحتملها الآباء والأمهات ، في
صمت وإذعان . ولم أكن أستشف العيب فأرى خلاله ما سأتجشمه .
وما سيتجشمه زوجي العزيز اليوم ، الشيء غداً ، بسبب هذه الأمومة وهذه
الأبوة . لم يكشف لي في تلك اللحظة عن شيء من هذا ، بل صور لي
الشباب والمحبة حياة معطرة بشذا الورود والرياحين وبمنظرها الديع البهيج ،
وسمت غريزة الأمومة فوق التفكير في متاعها ، وزينت لي أحلامي أن الحياة
طريق معبد وثير تتلى على جوانبه الأغصان الخضراء تكسوها الأزهار العطرة ،
وفاضت عنى السعادة هذا كله . فازددت حباً لمن آمنت بأنه مصدر هذه
السعادة . ودفع قلبي إلى شفقتي كلمة : أحبك .

انقضت على مقامي بالعربة أسابيع أفرجت السلطات البريطانية في
أثنائها عن الزعماء المصلين بالاستقلال الذين نقضت بهم إلى مالطة . بذلك هدأت
النفوس الثائرة وإن لم تنطفيئ ثورتها ، وأتاح لنا هذا الهدوء أن نعود إلى العاصمة
وأن نستقر فيها . وهناك انقضت أشهر الحمل ، وأتممت أمومي طفلة أنثى
بكاؤها ساعة مولدها ما تجشمت في حملها تسعة أشهر من مشقة ، وشغلت هذه

الطفلة عن كل شيء آخر . حتى عن أبيها الذي كان يحبها من أجل كما
أحدث أحبه من أجلها .

وهجيب حقاً ما طرأ على أمومتى على حبي زوجي . . لقد بي هذا الحب
قريباً كما كان ، لكن لونه تغير . . لقد كنت أحب هذا الرجل الشاب لداته ،
فكنت كلي له . كنت أشعر بالسعادة إذا استطعت أن أريده راضاً بالحياة
وسعادة فيها . . كنت أشعر بأنني قديرة على أن أهيه كل نفسي ، وأن أضحي
من أجله بحياتي . . كنت أشعر أنني بضعة منه لا غنى لي عن حبه ، ولا غنى له
عن حبي ، وكنت كثيراً ما أذكر قول الشاعر :

كأن حياً في خلال حبيبه تسرب أثناء العناق فذا

لأن قوله هذا كان يصور لنا حالاً في كثير من الأحيان . كان ذلك
شأننا قبل أمومتى ، أما بعد أمومتى فلم أصبح قادرة على التضحية بحياتي من
أجل زوجي ، لأن حياتي أصبحت ملكاً لهذه الطفلة التي تطالبني بكل أسباب
الحياة ؛ وكنت أرى زوجي يحنو على هذه الطفلة التي انفجرت أحشائي عنها ،
ويلمع في عينيه حب أبوي ، ندى بمعاني العطف والرحمة ، فكنت أحبه
لذلك ، وكنت أزداد حباً له كلما ازداد حنوه على الطفلة وحبه لها ، وكنت
أحس بأنه مطالب وإيأى بتهيئة أسباب الحياة التامة لانتنا ، وأني مطالبه
لذلك بتشجيعه على أداء هذا الواجب المشترك ، وأنا لا أملك من أسباب
هذا التشجيع إلا الحب ، بهذا تغير لون حبي لزوجي وإن بقي قوياً كما كان ،
وبهذا صهرت الأمومة عاطفة الحب كما تصهر النار الذهب وشكلته بالصورة
التي نرضاها .

وللأمومة سلطان قوى قاهر لا يقف عند اختلاف التلوين لحب متبادل .
 قصت على إحدى زميلاتي ، وكانت قد سبقتني إلى الأمومة ، وكانت متروجة
 رجلاً يكبرها بخمس وعشرين سنة ، وكانت لذلك تحس نحوه الهيبة أكثر
 مما تحس الحب ، إنها حاولت المواءمة بين شبابها وكهولته ، وأنفقت في ذلك
 جهداً كاد ينتهي إلى اليأس . ثم إنها حملت ورزقت طفلة كطفلي فإذا
 لون الحياة كله يتغير أمامها ، وإذا هذه البضعة من وجودها والحشاشة من
 قلبها تحيل القمام المخيم عليها ضياء وضاء يكشف أمامها طريق السعادة في
 الحياة . وإذا هيبتها زوجها تنقلب تعلقاً به لصاحبه بهذه الطفلة ، وإذا هي
 تجد في العناية بالطفلة ونظافتها ورعايتها ما يسعدها ويشغل كل وقتها ، وإذا
 هي تنعم من أمومتها بكل ما تطمح فيه المرأة من نعمة الحياة .

وانقضت عشرون سنة أو تزيد على حديث رميلتي ثم جمعتي مجلس
 بشيخ من كبار مفكرينا قصصت عليه في أثنائه طرفاً من شغفي وشجوني ،
 وبعد أن أنصت إلى طويلاً في إصغاء زائدني إمعاناً في حديثي وسجية لهذا
 الشيخ الجليل قال : إن حديثك لساحر ، وما ذكرته عن أمومتك الأولى بعيد
 إلى ذاكرتي قصة المرحومة زوجتي - وكانت روجه قد توفيت منذ أكثر من
 أربعين عاماً - لقد تزوجتها ولا أبلغ الثلاثين . وكانت هي طفلة رفيقة متعلمة
 كأحسن ما تتعلم الفتاة في ذلك الجيل . وكنت أترجم إذ ذاك كتاباً في الفلسفة
 السياسية . وكنت أملئ عليها في الصباح ما ترجمته العشية لتكتبه بحطها
 الجميل .

وانقضت بعد ذلك أشهر رزقنا بعدها اتناً . فلما استعادت صحتها

ونشاطها خيال إلى أنا قادران على العود إلى ما كنا فيه . فأملينا ونكتب ، ولم يد من جانبها على ذلك أى اعتراض . لكنى أدركت بعد قليل أنى أطلب المحال . فقد كنت أبداً الإملاء . وتبدأ الكتابة ، ثم سرعان ما تعتذر بأن الطفل يبكى . وتنقلت لرى سبب بكائه . وكثيراً ما كنت أتبعها لعل أستطيع معاوتها فى شأنها كما كانت تعاوينى فى شأى . وكثيراً ما كنت أحمل الطفل عنها لتهبى له ما ترى أن تهته . وكانت تعتذرلى أحياناً وتحاول أن تدعو الخادم لتسبل معوتها فكنت أرجوها ألا تفعل . وكنت أجد فى صحبتها وفى معاوتى لها . وفى تدليلي الطفل مكانها - على ما فى هذا التدليل من سخف لم أكن أسيغه - لذة أكبر اللذة . لأنها كانت تسرُّه ويمزجني عنه مزيداً من العطف والحب .

سمعت حديث جليسى الشيخ المفكر وهو يسوقه فى طلاوة تسحر الأذن وقدفعه إلى القلب . فلما أتمه قلت فيما بينى وبين نفسى :

ما أشبه حال هذا الرجل العظيم وزوجه بحالى أنا وزوجى ! . . لقد كانت زوجه تحبه من أجل طفلها . وكان هو يحب طفلها من أجلها ، وكانت الأمومة سرَّ هذا وذاك ، كما كانت السر فى إنقاذ زميلتى من يأمر يهددها ، حتى أضاعت الأمومة قلبها بتور الحياة ونعمائها .

كان من بين صديقاتى اللاتى جنن بهتني بمولد طفلى ثم استمر تزاورنا ، من اشتركن فى مظاهرة السيدات السيامية التى أشرت إليها من قبل ، وكانت كل واحدة منهن تتحدث عن مكانها فى هذه المظاهرة وعن المجهود الذى بذلته قبلها وفى أثائها بإفاحضة وحمامة ، يشهدان بأنها تركت فى نفوسهن أثراً عميقاً ، ولم يقف حديث بعضهن عن المظاهرة وعن الأثر السياسى العميق

بدي كنت ها . بل أحسن بتحدثن عما نستطيعه امرأة في ميادين الحياة
خدمة سياسية وجماعية . ويدكون أن حجاب المرأة الذي حال إلى يومنا
يها وبين اقتحام هذه الميادين يجب أن يزول . ولقد ذهبن إلى أن هذا الحجاب
سنة يجب التخلص منه . لأنه ينزل بكرامة المرأة إلى مكان وضع يهوى
بقيتها الإنسانية إلى حيث تصبح عبداً ومتاعاً للرجل لا أكثر . وشعرت في هذا
الحديث بتقدمه ثورة اجتماعية وجوب . إن قدر لها السام - أن تم في هدوء
وطمأنينة . على أنني لم أكن أستطيع الاشتراك في هذه الثورة الاجتماعية على شدة
اقتناعي بضرورتها . لأن أومتي كانت تشغل كل وقتي وكل جهدي .
ولأنني خشيت أن أثير بيني وبين زوجي روية لا خير في إثارتها . لهذا بقيت
راضية بما أنا فيه لأتمم بأومتي . وبحب زوجي . وتركت لها تلك الآثار
أن يفتح الطريق إن وجدنا إلى فتحه الوسيلة

وأستطيع اليوم أن أقول إسن نحصر في ثورتين إلى حد بعيد ، ويرجع
نجاحهن إلى أنهن سلكن في هذه الثورة سبل الحكمة والتصون عن كل
عنف . فقد مدأن جهادهن في سبل حريتهن بالنهوض بأعمال الخير .
عناية بالمرضى . وبراً بالفقراء . وعطفاً على الطفولة المشردة ، وما إلى ذلك من
أعمال إنسانية تتفق مع فطرتهن . ومع ما جبلت المرأة عليه من بروحان .
وما كان للرجال أن يمتدحوا طريقتهن في هذا السبل ، بل أعانوهن وشجعوهن .
وكان طبيعياً بعد ذلك أن تطلع المرأة حجابها وأن تلقى جانباً هذا الرفع ،
ثم هذه البيشة التي كانت تسربها وجهها . لأن فاعل الخير والقائم بالعمل
الإنساني لا يستحي ولا يتستر . وإنما يستحي المريب وذو النية المتبهمة .

وطالب النساء بعد ذلك بألوان من الإصلاح الاجتماعي أقرهم الرجال عليها ،
ورأوا فيها للمجتمع صلاحاً وخيراً . وبهذه الحكمة وهذا الاعتدال استطاعت
الثورة الاجتماعية التي تمخضت عنها تلك المظاهرة السياسية الأولى أن تحطم
الحجاب ، وأن تفتح أمام الفتاة وأمام المرأة أبواباً كريمة ، كانت من قبل
موصلة في وجهها . ولعلنا - نحن النساء - نستطيع بهذه الحكمة أن تحقق
لأنفسنا وللرجال والمجتمع المصري كله غاية ما تصبو الشعوب المتحضرة
إليه من رفق وتقدم .

استدار العام منذ مولد طفلي ، فإذا أحشائي تتحرك بأموعة جديدة .
ورزقت هذه المرة غلاماً كان قرة عين لي ولوالده ، برغم وضع متعسر ،
أشرف لي على الموت. ولهذا شعرت بأنني أدبت للإنسانية وللجماعة المصرية
ما لهما علي وعلى زوجي من حق ، بعد أن أنجبت هذين الطفلين ، وعاهدت
نفسى أن أقف بأمويتي عند هذا الحد ! .

وقد وفيت بالمعهد وإن كنت أعرف بأن نفسى نازعتني غير مرة إلى تقضه
وفي كل واحدة من هذه المرات كنت أقاوم غريزة ليست مقاومتها أمراً يسيراً ،
ولست أدري أكان ما قاست حين مولد غلامى هو الذى شجعتني على هذا
المقاومة ، أم شجعتني عليها اعتبارات أخرى كنت أراها رأى العين ، ولا يحسب
كثيرات من النساء لها حساباً . بل إنى لأعرف من هاتيك الكثيرات من
لا تكاد تضع حملها وتتخلص من آلام ولادتها حتى تبسم رجاء أمومة
جديدة ، وكأنها تجد في ألم الوضع لذة ، أو كأنها يعوضها الطفل الذى تنزعج
عنه أحشاؤها عن كل ألم ، وكأن ما يحشمها هذا الطفل من مشقة هو لذة

حياتها وكذب سعادتها .

والعجب أن النسوة الثلاث يتولين بأنفسهن شؤون أطفالهن ولا تسمح
بمسائلهن بالاستعانة بحرية أو خادم هن اللواتي تتحكم فيهن غريزة الأمومة
ولا يفكرن في مقاومة سلطانها القاهر . مؤمنات بأن ذلك من أمر الله . وأن
الأطفال عطاؤه المحبب . وقد يكون لها تلك المؤنات عندهن يائمان .
أما يئات طبقى المستسلمات لغريزة الأمومة . العاجزات عن مقاومتها بعد
أن يرزقن طفلين أو ثلاثة . فهن في نظري أعجب وأغرب . لأنهن لا يدعن
أطفالهن للطبيعة كما تفعل الأوليات . وتربية الطفل أشد عسراً من حمله
وميلاده ألف مرة .

وكان حرصى على عهدى أول ما اشتد الخلاف عليه بينى وبين زوجى .
فقد كان يؤمن إيمان العجائز بأن كل طفل يأتى ورزقه معه . وبأنه هو الذى
يكذب لحياة الأسرة . وبأننا يجب ألا نعترض إرادة الله ! . . . وكنت أجيبه بأن
السعى للرزق لن يريده إلهائنا . وبأنى أنا التى أحمل مشقة الأطفال . حملاً
ورضاعة وتربية . لأنى لا أستطيع أن أدع طفلى لمرضع . ولا أن أعتمد الاعتماد
التمام على المربية التى عندنا . برغم ثقى التامة بها .

وقد تكررت اختلافى مع زوجى في هذا الأمر غير مرة في فترات متباعدة
امتدت بضع سنوات . وكان كل منا يسوق خلال جدله ألواناً من الحجج
لا تغلو من طرافة . . كان زوجى يقول لى أحياناً :

أوتأمتين غدرات القدر بأحد هذين الطفلين أو بهما جميعاً ؟ . . . وكنت

أجيبه :

وهل تأمن عذر القدر بك أوي أوبنا معاً فيتم أطفالنا ؟ . . أولاً ترى
أنهم كلما كانوا أقل عدداً كان رزقهم فينا أحف حملاً ؟ . .
وكان يقول لي :

لقد نشرت الصحف اليوم أن فرنسا قررت للأسر التي يزيد أبنائها
على طفلين مكافأة يرتفع قدرها كلما زاد عدد الأطفال
وكنت أجيبه :

إنما تريد فرنسا زيادة سكانها لتزيد في الجيش ولترداد الأيدي العاملة
عندها ! . . ولا أحسبنا أنا وأنت ، نريد أن يكون أبنائنا جنوداً أو عمالاً ! . .
فلتدع هذه المكافأة وهذا القدر للمؤمنات بأمومتهن ، واللاتي جعل القدر
من حظهن وحظ ذريتهن أن يكونوا جنوداً أو عمالاً ، أو محرضات أو عاملات .
وكان إذا مرض أحد طفلينا ورأى نازعتني عريضة الأمومة وطمع في أن أضعف
أمامها أظهر لي من الحب والحنان ما أكاد أنهزم دونه ، ولكنني سرعان
ما كنت أستجمع قوة المقاومة وأسمو بها فوق ضعفي وبوازعي وأقف بها إلى
حانب عهدي .

وكثيراً ما كان يبدى دهشته ويقول :

هذا أعجب ما رأيت ! . . امرأة تقاوم سلطان الأمومة ، وتبالي أن
تحمل وتلد ، وأب يريد لها أن تنجب فتقاوم إرادته . . لقد رأيت عكس ذلك
غير مرة إشفافاً من الآباء على أولادهم في مستقبل حياتهم وعيشهم ، أما أن
تقف امرأة هذا الموقف ، فلا تفسير له عندي إلا من أنانيتها وحرصها على
شبابها وحرمتها .

وإن يكن هذا الضحية يزعمنى . بل كنت أقاومه بسلاح المرأة . كنت
أستمر وأعانق زوجى وأقول له :

هه هنا الاتهام الذى توجهه إلى صحيحاً . فلمن أحفظ بهذا
الشباب ؟ . . . أأست أحفظ به لك ؟ . . . وأنت تعلم أن حريقى كقلبى فى
ملكك . وكنت أسوق إليه من مسول القول ما يذيب اعتراضه وغضبه .
وما يرده إلى حال من الرضا لا سبيل له إلى مقاومتها . لأنه يحبى بقلبه وعقله
وكل وجوده .

على أن ذوبان غضبه لم يكن ينقله إلى معسكرى . فقد كان عنيداً فى إصراره
على رأيه . لا ترحضه عنه حجة ولا بصرفه عنه برهان . وكان برغم ذلك
ضعيفاً أمامى كل الضعف . ضعف الأم لابنها . فكنت أنا طفله المدلل .
يسل جهده إلى إجابة رغباتى وإن لم تعجبه . ما دام لا يرى فيها مضرة
ولا شناعة . وقد انتهى بعد المناقشات التى دارت بيننا إلى الاقتناع بأن أهمى
من شأنى . وأنه لا يستطيع أن يرغمى فيها على شيء لا أريده .

وشاءت الأقدار أن تعاوتنى على التشبث بعزمى والوفاء بعهدى . فقد
كان فى مقدمة ما أدت إليه مظاهره السيدات السياسية من تطور اجتماعى أن
رفعت المعجاب . وأباحن للمرأة أن تخرج مع زوجها أو أختها أو أخيها
أو الأقربين من محارمها . وأن تتحدث إلى من يلقونهم فى هذه الحال من
الرجال . وكانت المرأة من طبقتنا لا تملك إلى ذلك العهد أن تتحدث رجلاً
غير محرم . فإذا خرجت إلى الطريق مع زوجها . وصادفاً رجلاً يعرف
الزوج . وأراد أن يتبادل معه مجرد التحية . انتحلت المرأة جانباً . وأدارت

وجيها . حتى لا يراه هذا الأجنبي . لأن وجهها كصورتها كانا عورة لا يجوز أن يطلع عليها الرجال . وكان لزوجي أصدقاء من رجال السلك السياسي الأجانب لا أدري كيف ولا متى عرفهم . فلما حدث ذلك التطور بدأ زوجي يدعوهم وقريناتهم لتناول الشاي عندنا . وكان طيباً أن أقابلهم وأن أتحدث إليهم كما كان هو يقابل زوجاتهم ويتحدث إليهن

ومصادف ذلك التطور الاجتماعي تطور سياسي يقابله . ذلك أن اعترفت إنجلترا باستقلال مصر ، وأن أعيدت وزارة الخارجية المصرية . وكانت قد ألغيت منذ بداية الحرب العالمية الأولى . وترتب على عود وزارة الخارجية للدولة مستقلة أن بدأت تلك الوزارة تنظم التمثيل السياسي والقنصلي للبلاد في الخارج . وبدأت أسمع أنهم يرشحون لهذه المناصب من فئات مختلفة كانت فئة الأطباء من بينهم ، ثم علمت أن أطباء من معارفنا رشحوا بالفعل لهذه المناصب

قلت فيما بيني وبين نفسي :

ولم لا يعين زوجي في لندن أو باريس أو روما فتستمتع بالحياة في هذه العواصم الكبرى بما فيها من آثار الفس والجمال ، ويكون بيننا وبين الدبلوماسيين والقنصلين من كل الأمم علاقات طيبة نستريح إليها ونفيد مصر منها ؟ . . . فإذا تحقق هذا الأمل كان أوجب علي أن أستمسك بعهدي وأن أقف بأمرتي عند ابني وابنتي ! . . .

وداعيني الأمل ، ثم تحكمت في رغبة الالتحاق بالسلك الدبلوماسي ، فأقضيت لزوجي بخلجات نفسي ، وذكرت له أسماء الأطباء المرشحين لهذا

لذلك . وطلبت إليه أن يعمل جهده ليرشح كما رشحوا ، وكنت أظن أنه سيرحب بهذه الرغبة ويعطى لتحقيقها . ولشد ما كانت دهشتي عندما أبدى لي الرغبة عن كل تفكير في هذا الأمر . وكانت حجته أن الأطباء الذين رشحوا للسلك ليست لهم في عالم الطب مكانة . وليس لهم بين الأطباء مثل اعتبره . فإذا هو بذلك من جانبه أي معنى لتحقيق رغبتي بجني ذلك على مركزه وعلى عمله . . . وهو ، بعد . طيب ناشئ استطاع أن يبلغ في فنه بمجهوده مقاماً محسباً . فمن سوء الرأي صرفه عن الطب إلى غيره إرضاء لثروة طارئة .

وعيناً حاولت أن أعدل به عن رأيه . فقد بلغ من شبهته به أن طلب إلى ألا أعود إلى مخاطبته في الأمر ، أو إظهار الأسف على رغبته عنه ، وزارني ولدت يوماً فأبدت له رغبتي وذكرت له عناد زوجي ، فابتسم وقال : إن زوجك رجل عاقل . وهو يعلم كما يعلم كثيرون أن هذه المناصب لا تعطى اليوم للشبان المتزوجين محضاً ، فهل أنت مستعدة لدفع الثمن ؟ . . وأخلفت قرعة لسامع هذه العبارة ولم أجبر جواباً ، ولم أعاود الحديث مع زوجي في هذا الموضوع من بعد ! . .

ثم إنني قدرت بعد أن رؤيت في هذا الأمر أن أبي أراد بعبارة المرعجة أن يصدمني ، ليصرفني عن التفكير في أمر لا يرغب فيه زوجي ، وذلك إبقاء على مودتنا . وما يعرف من حبنا المتبادل .

ويمكن هذا التفكير من نفسي ، ودس إلى قلبي جرثومة أخذت تعبت بعاطفتي نحو زوجي وصلت هذه الجرثومة عملها بتوالي الأيام ، حتى توهمت

أن ما بقوله زوجي عن مكانته في الطب لا حقيقة له ، وأنه من قبيل الخداع
النفسى . اعتذاراً عن عجزه عن أن يسعى لينال المنصب الذى أصبو إليه
وأن هذا العجز ضعف غير لائق بالرجال .

كان لاختلافنا هذه المرة من الأثر في نفسي ما لم أشعر بمثله حين اختلفنا
على تحديد النسل ، ففي هذه المرة الأولى كان الأمر كله بيدي ، وكان النصر
لذلك حليتي ، من غير أن أتحمّل في سبيله أية تضحية . ونحن في هذه
الحال أشد عطفاً على المزيّم وإشفاقاً من أن يناله بسبب انتصارنا ما يسوءه .
لذلك كنت أقل زوجي إثر كل مناقشة بيننا ، في أمر نسلنا لأهول عليه
هزيمته . أما بعد اختلافنا الأخير ورفضه أن يبذل أى مسعى لانتقالنا إلى
السلك الدبلوماسي ؛ فقد شعرت بأنني انتهزمت ، وبأن هذه الهزيمة آذت
كرامتي ، وخيل إليّ أن زوجي قصد إلى هذا الإيذاء متعمداً ، ولم يكن
يضيره أن يسمى ، فإن وفق فقد بلغت ما أردت ، وإن لم يوفق فلا ذنب
عليه ، ولن يصيبه من جراء ذلك في عمله أى ضرر .

وحزّت هذه الكرامة المهينة في نفسي : أأجزي بكل ما بذلته لإرضاء
زوجي بألا يعبأ بالسعي لمطلب يناله من هو أقل منه وثأله من هي أقل
منى ؟ . . .

وبلغ من حتى أن خيل إليّ أن زوجي ذهب إلى والدي وطلب إليه
أن يردني عن الإلحاح في أمر لا يرضاه ، وأن ذلك كان السبب في قسوة الجواب
الذى واجهني به والدي ، حين أفضت إليه برغيتي . ولو أن زوجي لم يفعل من
ذلك ما فعل ؛ ولم يظهر لوالدي معارضته ورغبتي لاستطعت أن أستعين بوالدي

في اسمي لتحقيق عرصي . فله كلمة مسموعة في دوائر رسمية كثيرة . وصلاته
بأذن الأمر تدعوهم لمجاملته ! . . .

وجعلت أشكو حالي لبعض صديقاتي اللواتي هن في مثل ستي . فإذا
كل واحدة منهن تشكو حالها . وتكاد تعلن الثورة على زوجها . وجمعت هذه
الحال بين خمس منا . فكثرت تراورنا وكثرت ترديدنا الشكوى من حالنا . تقول
إحداهن إنها رعبت إلى زوجها في تغيير مسكنها فأني . وتقول ثانية إنها لا تكاد
تري زوجها الطيب إلا ساعات الطعام . فإذا حدثت في ذلك اعتذر بكثرة
عمله . ونسوق الياقات أمثال هذه الأقاويل . ويتكرر ذلك في كل زيارتنا
ثم لا تزيد على الشكوى لأننا لم نكن نستطيع أكثر منها .

وفت في عضدنا أن إحدانا غضبت من زوجها ولحأت إلى بيت أهلها
عقلها أبوها عابس الوجه مقطب الجبين ، وقال لها في صرامة وحدة :
الواجب عليك أن تحمدى الله على ما أنت فيه . وأن تقبلي يد زوجك
صباح مساء . فكم من مثيلاتك تعيش مثل عيشك في بحبوحة ونعمة ؟! . .
وزوجك رجل رقيق مهذب رضى الخلق . وأنا لا أشك من غير تحقيق في
أن الحق عليك من رأسك إلى رجلك . فارجعي إلى بيت زوجك واعتذري
إليه . وإلا ذهبت أنا بنفسى ، واعتذرت إليه .

والمجب أن زوجي لم يتغير على في هذا الطرف برغم ما بدا من نفوري ،
بل لقد ازداد لطفاً بي وعظماً على . وقد بلغ من ذلك أن زال من نفسي كل شك
في أنه يحبنى من أعماق قلبه . . مع ذلك بقيت الرعية الدينية في الانتقال من
الطلب إلى السلك الدبلوماسي تساورنى . وكان اعتدائى بنفسى وبسحر حديثى

مصدر هذه الرغبة والمحاحها على فكنت أقدر أنني سأبلغ في محيط هذا السلك مالا تبليه امرأة غيرة . وقد بقي هذا الاعتقاد متشبثاً بنفسى إلى عدة سنوات من بعد . وإلى لأذكر يوماً بعد هذه السنوات دخلت فيه إلى اجتماع للسيدات ، مصرية وأجنبيات ، فلقينى بما تعودت من ترحيب . إلا زوج وزير ألمانيا المفوض ، وكانت متعالية تعتد بجمالها . ويجسها ، ويمركز زوجها ، وبواسع ثقافتها ، فلم يسعنى إلا أن وجهت إليها نظرة ازدراء زلزلت كبرياءها ، ثم آليت على نفسى أن أتفن الألمانية . وأن أقرأ خير مؤلفاتها بلغة العظماء من كتابها ، وعرفت السيدة المتعالية من بعض صديقاتى ما أقدمت عليه فانهزت أول فرصة تلاقينا فيها لتقدم إلى معاذيرها . بذلك تصافيتا واتصلت مودتنا ، ولم يلفتنى ذلك عما أخذت به نفسى فأتقنبت الألمانية، وقرأت بها « جينى » و « هينى » و « بيتشه » ، وتأثرت إلى حد كبير بآراء « بيتشه » من أن القوة، والقوة وحدها ، هى مصدر كل سلطان فى الحياة . وللمعركة من أسباب القوة ووسائلها الكثير مما لا سبيل للرجل إليه . لها الذكاء ، ولها الحيلة ، ولها الرقة ، ولها سحر النظرات والحديث ، ولها الصبر . . . الصبر الذى يمكنها من أن تحمل الجنين تسعة أشهر ، وترضعه عاماً أو أكثر من عام ، وتتولى بعد ذلك تربيته والعناية به . . . أين للرجل هذه الوسائل التى تجمعها كلمة الأنوثة ؟ . . . وهل تستطيع قوته المادية أن تغلب عليها ؟ . . .

وقد استطاع زوجى بعد اختلافنا على الانتقال إلى السلك الدبلوماسى ، أن يتغلب على نفورى بحنانه ولطفه ، وبحبه إياى حياً كان يحرك كل قلبه

وكن حوسه وكل رجولته . ثم إنه كان يحدثني كل يوم عن عمله في الضب .
وعن اضداد مكائته في السعويين وملائته . وعن كسه البعير منه . كما أتخذ
يعلق على من صنوف اقداء ما يهواه قلب المرأة من حلل ومجوهرات . ومن
تحف زخرفيه بديعه تزدان بها حجرات المنزل وتتمتع العين بدقة صنعها وبارع
جمعها . وكيم أغرائي للذهاب بنفسى أختار من الثياب وأدوات الزينة ومن
هذه التحف الزخرفية ما أشاء . وانتهى به لطفه إلى أن سكن نفوسى فعلمنا
إلى سابق مودتنا .

ولكن حبي يباه كان قد حدث . ولم يكن لي مع ذلك يد من التظاهر بأن
شيئاً لم يحدث . وبأننا ما زلنا نتبادل الحب صغواً كاملاً . وماذا عساي كنت
قادرة أن أصع وبين يدي هذان الطفلان لا يزالان في غرارة طفولتهما بحاجة
إلى عناية أبيهما ومطعمه . ولن يدور بخاطري أن ألبأ إلى بيت أبي فتشمت في
زوجه . ويلقائي هو بوجه عابس أن ليس لي فيه أم يغفر حنانها ما لا يرضاه
الأب القصوب . لا مفر إذن من الصبر من أجل هذين الطفلين ، ومن أن
أعمل على مداراة ذلك الحدث إن استطعت إلى مداراته سبيلاً .

وبالغ زوجي في العمل على مرضائى . فلما كان الصيف سافرنا جميعاً
إلى أوروبا . وسافرت معنا مربية أولادنا ، وقضيت في هذه الفترة زمناً سعيدت
به وبرئت نفسى في أثنائه حتى خيل إلى أنى كنت متعجبة على هذا الزوج
العزیز الكريم . . كم مر مرة وقفت إلى جانبه على سطح الباخرة التى تجرى
فوق لجنة بحيرة « ليمان » واستمتعت معه بمغرب الشمس فوق قن الجبال
المحيطة بها وبالهواء العذب الساحر ، الذى يساب مع أشعتها الذهبية إلى



خادمہ شعیقہ تنہا ہی علیٰ وتسلخل علی طاقت کثیرہ من لڑمار شعی

أصدور . يعشب وينعش القلوب معها .

وكم من مرة درت معه في أنحاء باريس في الليل أوفى النهار . وكم نعمنا
بمشاهدنا ومسارحها وبمظاهر الفتن التي لاحصر لها فيها . وكم . . . وكم . .
وقد بلغ من إعجابي بهذا الرجل في هذه الفترة أنني كنت أنظر إليه في بعض
الأحيان لا على أنه زوجي ، بل على أنه حبيبي . حبيب قلبي وروحي . قد وهبني
كل نفسه ليله ونهاره ، فلم يكن لي بد من أن أحبه كل نفسي وكل حياتي .
فلما عدنا إلى مصر . وعاد زوجي إلى عمله ، وعدت إلى حياة المنزل
الرتبة . وانتشعت من حول هذه القمامة الشعرية التي أحاطت بي في أوروبا ،
فلم يبق لي إلا ذكرها والتحدث لصديقاتي عنها ، عارضة الأسف أنا لم نتقل
إلى السلك السياسي ، ونحل إلى أن أهل هذا السلك يقضون حياتهم كما يقضى
المصطافون حياتهم . يتقلون حيث يشاءون ، وينعمون بجمال الطبيعة وبجمال
المضارة أبها يريدون .

رحلت ذات مساء بعد أسابيع من عودتنا إلى مصر أتحدث إلى زوجي ،
وكان قد عاد من عمله وعليه آثار الغبطة ، فذكرت له رحلتنا وأثرها الجميل في
نفسي ، فقال :

أرجو يا عزيزي أن تتمكن من قضاء الصيف كل عام في بعض دواجر
أوروبا الجميلة ، وما دام هذا يرضيك فإنه يسعدني ، وهل لي من سعادة إلا في
رضاك وغبطة طفلينا وراحتهما ؟ . . .

ولم أملك نفسي وقد سمعت عبارته ، فعاقته وقبلته شاكراً أجزل الشكر ،
إذ رأيت في عمله هذا بعض العوض ، إن لم يكن كل العوض ، عن السلك
السياسي . وقد كنت راغبة في الانتقال إليه أشد الرغبة !

الفصل الرابع

في الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر ، من تلك السنة . أصبت طفلتنا بترلة شعبة حادة أرقنتي وأرقت والدتها ، فلما برئت رأى زوجي أن أسافر بها وبأخيها والمريّة ، إلى الأقصر ، ليقضي دفيه جوها على كل أثر للمرض . وحجزنا أماكتنا بفندق الأقصر وسافرنا بقطار الصباح اتقاء برد الليل ، وصحبنا زوجي إلى محطة العاصمة ثم ودعنا ساعة تحرك القطار وعاد قوا إلى عيادته يزاول عمله .

وقد شعرت ساعة وجدتي وحيدة مع الطفلين بدويان سكة الحديد بشيء من الرهبة . . . إن الديوان مخصص للسيدات ويغلب ألا يشاركنا فيه أحد طول الطريق ، فالأوربيات يجلس مع أزواجهن إلا أن يكن مسافرات وحدهن . . . أما ولم نشاركنا مصرية ولا أوربية حين سفر القطار من القاهرة ومن الجيزة فلا خوف من أن تصعد مسافرة بعد ذلك من محطة أخرى . وزايلتني الرهبة بعض الشيء بعد ساعة أو نحوها من انطلاق القطار . وإن بقيت أحسب ألف حساب لطارئ من الرجال يفتح الباب علينا ويحاول الجلوس معنا . ماذا عساي أن أصنع لو أن ذلك حدث ؟ . فليس في الديوان جرس أستطيع أن أدعوه من يتقلى من مثل هذا الموقف ! .

وصلنا إلى الأقصر ولم يحدث ما توهمته مخاوفى ، فلما بلغت الفندق وصعدت إلى غرفتنا عاودتنى المخاوف . لقد نزلت في أروبا فنادق كبيرة شتى . ولم يخامرني مثل هذا الشعور . أترانى هناك كنت أكثر شجاعة ، أم ترانى كنت أكثر اطمئناناً إلى الناس ! . . لا هذا ولا ذاك ، لكننى كنت في حماية زوجي وكنت مطمئنة في جواره . . أما الآن وليس معي إلا المريية والطفلان فقد ألفتني عزلاء مجردة من كل دفاع . . على أن مدير الفندق - وكان سويسرياً - أبدى لي من اللطف ما يبدد الكثير من مخاوفى .

واستقظت في الصباح وأخذت زبنتي وتناولت فطوري ونزلت إلى جو الفندق . فأقبل عليّ مديره ليطمئن على راحتي وراحة أطفالي . واتصل حديثنا بالفرنسية . فسألني إن كنت أريد أن أزور قبره ، توف عتخ آمون ، وكان قد كشف من ستين ، ليوفر لي أسباب هذه الزيارة . ولما كنت لم أزر الأقصر من قبل . وكنت لا أريد أن يعرف الرجل ذلك عني ، فقد ذكرت له أنني مرحة زيارة الآثاء حتى أطمئن على راحة طفلي ، وقصصت عليه مرض ابنتي . وأنتي جئت إلى الأقصر من أجلها . . وأبدى الرجل أشد الاهتمام بأمر الطفلة وقال :

« إن الشمس تغمر فناء الفندق معظم النهار . . وشمس الأقصر ممتعة جداً ، يستطيع الصغيرة أن تتلى باللعب مع أخيها في حديقة الفندق ، وبين نزلنا أطفال استفادوا من جو هذا الفصل في الأقصر فائدة كبيرة . . . » . وخرجت مع الطفلين والمريية إلى فناء الفندق يستمتع بدفء الشمس . وخرج الطفلان بهذا التغير في لون حياتهما واندهما إلى ناحية حديقة الفندق ،

وتبعتهما مريينهما ، فقصت زمناً أحلق فيما حولى ، وأرقب هؤلاء السانحين ،
رجالاً ونساء ، وقد جاءوا إلى مصر من أقصى الأرض ، يسمعون بحجراتها
المتعش ، وبمشاهدة مناظرها الخالدة على صنمحات الطبيعة وفي صحف
التاريخ .

فلما قربت الظهيرة قمت أسير في طريق يشطر الحديقة حتى بلغت باباً
من الخشب مقفلاً ولكنه غير موصد . وصاحقتى عند هذا الباب يستأنى حيانى
وقدم لى باقة من زهر البنفسج ، ثم فتح لى الباب الخشبي وقال :
تفضلى يا سيدتى إن شئت ، فقد نجد بين بعض معارفك فى حديقة
« ونتر بالاس » ! . .

وكان هذا الباب الخشبي يفصل بالفعل بين حديقتي الفندقين : الأقصر
ونتر بالاس ، وذكرت هذه اللحظة صديقتى التى ماتت زوجها ، تاركاً لها
والذريتها الضعاف تركة قيمة ، طمع فيها أهله فتمروا ورثته من الاستيلاء عليها
وعلى إيرادها . وكانت أم صديقتى ذات ثراء ، وكانت شديدة الإعزاز لابنتها ،
لأنها كانت وحيدتها بين إخوة ثلاثة قادرين على الكسب الوفير ، لذلك أتلحت
لها المتاع بالحياة بعد انقضاء مراسم الحزن على زوجها ، فسافرت إلى
الأقصر ، وتركت أبناءها فى رعاية أمها ونزلت ونتر بالاس ! فلما ذكرتها
تخطيت إلى حديقة الفندق الفخم لعل أجدها : ألا ما أبدع هذه الحديقة
وأبهاها ! . . وما أحقر حديقة فندق الأقصر إلى جانبها ! . . فهذه الأشجار
الباسقة وهذه الأزهار النضيرة ، وهذه الملاعب الفسيحة للنس ، وهذه
الغزلان والطيور الجميلة فى الحظائر ، وهذه المقاعد الوثيرة بأشكالها المختلفة

مشيرة في كل ناحية من الحديقة . والشمس والظلال تتدور جوارب المكان
المعطر بشدا الأزهار . هذا كله لم أشهد له نظيراً فيما ذكرت من فنادق أودنا .
وهذا كله يجوس خلاله نفر قليل من الرجال والسيدات . كثرتهم من الأجانب
ولعب في بعض أرجائه أطفال . كأنهم الأزاهير . لفرط العناية بهم وبما
يلبسون .

دريت في أرجاء الحديقة الشمس صديقتي فلم أجدها . وعلوت النلم
المؤدى من الحديقة إلى الفندق آمل أن أجدها في بعض أبياته . أو أسأل
عنها بعض رجاله . فعلمت من الثواب أنها ذهبت في صحبة إلى بيان الملوك .
وأنها ستكون لا رب ساعة الشاي في البهو الكبير ، ودلف من باب الفندق
إلى شرفته . . بالجلال والبهاء والعظمة والجمال ! . . فهذه الشرفة الرفيعة
البديعة . تطل على منظر كله الروعة لا نظير له في العالم ، تطل على النيل
تساب مياهه الساوية الزوقة ، هادئة هدوء هذا الفصل الرقيق من السنة ،
وتساب فوق مياهه الزوارق . ذاهبة آية بين طسة الأحياء ، وطية الأموات ،
وقد تطوف أحياناً حول جزيرة نائكة في النهر حتى تعمها مياه الفيضان .
وعلى الجانب الآخر من النيل تتدرج هضاب « طية الأموات » في ارتفاع
حتى تختلط بالسماء عند مدى النظر .

وقفت إلى جانبي سيدة رأتني أحلق في إعجاب إلى هذا المنظر البديع ،
وعلمت أنني نزلت الأقصر العشية ، فحيتني بالإنجليزية وقالت :

إن هذا المنظر يكون أبديع بكرة الصباح وساعة المغرب وأشد سحراً .
وهذه الجبال التي تبدو أمامك الساعة وقد غمرها ضوء الشمس ، وكاد وجهها

يحجبها عن النظر ، تبدو في الإصباح والإساء وقد بادرت الشمس . فواحدت
من ورائها ، ورسمت عليها خطوطاً من أشعتها الذهبية . تحاليلها مطوراً تنطق
بما احتوته هذه الجبال في جوفها ، من قرايين وملكات . ومن قيس ووزراء .
ومن فعال هؤلاء وأولئك وكيف كتبوا من تاريخ الإنسانية صحفه الأولى . إنني
أهيب بك أن تجئني إلى موقفك هذا بكرة الصبح ، وساعة المغرب ،
ليضاعف متاعك بالنيل والصحراء والجبال وما تحدث عنه من تاريخ ما قبل
التاريخ ! . .

وأنت مكاني زمناً مأخوذة بالمنظر الساحر أمامي ، فلما امتلأت منه
العين والجوانح عدت إلى فنلق انفق الطقلين العزيزين وأشرف مع المربة
على طعامهما ، وتحدث إلى زوجي تليعوتياً من القاهرة ، ليطمن علينا
فطمأنته على كل شيء ، وغفوت غفوة الظهيرة ، أستريح بها من شقة سفر
أسس ، فلما دنا موعد الشاي ذهبت من جديد إلى « وتر بالاس » وما كنت
أدخل البهو الكبير حتى رأيت صديقتي في جانب منه ، فقصدت إليها وجلسنا
معاً إلى مائدة لا ثالث معنا حولها ، وإنا لتجاذب أطراف الحديث إذ أقبل
علنا رجل ناهز الثلاثين ، فحيا صديقتي ثم أحى رأسه نحية لي واستأذن
وجلس . وعلمت أن هذا الرجل من الأقصر وأن له في فنادقها شأنًا ، وسرعان
ما أدركت أنه كثير التردد على نزلاء هذه الفنادق ونزيلاتها . فأكاد يشاركنا
الحديث حتى رأيت يذكر لصديقتي أسماء طائفة من نزلاء « وتر بالاس »
ونزيلاته ، ومن نزلاء فنلق الأقصر ونزيلاته . ويروي عن هؤلاء وأولئك ،
وبخاصة عن هاتيك اللاتي ذكر أسماءهن ، أبناء تنقلاتهن وملابسهن ومبلغ

سجد ملابس السهرة على هذه وعدم اتسجامها على تلك ، وكيف ترقص عنده . وكيف ترقص تلك . والحق أنى ضقت بحديثه . لكن ما أبداء في اثناء الحديث من استعداد للقيام بأية خدمة أرغب فيها اقتضاني بمجاملته بل ملاطفته . . ولعل كثيرات غيري من نزيلات الفنادق كن في مثل موقعي . يتظاهرن بالمجاملة والملاطفة انتظاراً لخدمة يؤديها هذا الرجل ، أو تقديراً لخدمة سبق له أدائها ! . .

وأحسست ساعة المغرب تدنو . فاستأذنت صاحتي وصاحبا لخمس دقائق . ودلفت إلى الشرفة فألقيت السيدة التي وقفت إلى جانبي ساعة الظهيرة . وكأنها في انتظاري . . ورائتي مقبله فصاحت :

« أتريين هذا المغيب البديع ؟ . . لكأن الشمس علمت بأنك تريدن مشاهدتها فجعلت الوجود كله بزينتها . . انظري . . انظري إلى النهر والسماء والجبال . وكأن المغيب يصمها جميعاً في غلالة من ذهب » .

وانطلقت السيدة تصف ما ترى مأخوذة . كأنها واقعة تحت سلطان متوهم مغناطيسي مفره فرص الشمس ! . . وأحدثت بالمنظر وبحديثها ووقعت أبا الأحرى تحت سلطان هذا المشهد القذ من مشاهد الطبيعة ، فلما آن للمساء والنهر والجبال أن تخلع زينتها عدت إلى مجلسي مع صديقتي . وقد غلبني البهر ففقد لساني ، فلما أهدت من بهري أخذت أتكلم وأصف ما شهدت : وأصغيت لصوتي ولعباراتي ، فإذا هي أنغام توقع لحن هذا المشهد القذ الرائع ، وقضيت في هذا الحديث زمناً رأيت الرجل في أثناءه مسحوراً فلما كاد يتولاه البهر الذي كان قد تولاني ، تركت « وتر بالاس » وعدت إلى فندقى وإلى طفلى

وأصبحت بكرة الغد وتناولت لظهوري . ثم إذا خادم الفندق تسأذن
على وقد خل إلى طاقة كبيرة من أزهار شتى كلها الفشة والجمال . شيكت بها
بطاقة صاحبها الأقصرى الذى تناول الشاى معنا أمس فى « وتر بالاس » . . .
ولم يكن عجبى لجرأته دون سرورى بهذه الأزهار البديعة الفاتنة . وطلبت إلى
الخادم فأحضرت من الآنية ما وزعت فيه الأزهار لأزير بها جوانب غرقى .
فلما اطمانت إلى أن كل آنية وضعت حيث يجب أن توضع أدت نظرى
فى الغرفة . وارتسمت على ثغرى ابتسامه الرضا . فالأزهار تشرى فى المكان الذى
توضع فيه بهجة ، وتبعث إلى القلب المسرة ، وإلى النفس القبضة والطمأنينة .
ودعوت طفلى ومريبتها ، فاستمتعوا معى بهذه البهجة وهذا الجمال .

وهبطت إلى بهو الفندق فإذا صاحبنا الأقصرى جالس فى صدره .
وكانه يتظرنى فلما رآنى أقبل على وحيائى وعلى ثغره ابتسامة عريضة . .
وشكرته وأثنت على أزهاره وتحدثت إليه هنية حاولت الانصراف بعدها ،
فاستوقفنى وقال إن عربته تحت تصرفى ، لأزور بها آثار الأقصر جميعاً ،
وإنه يسر إذا قبلت مصاحبتى إياى فى زيارة معبد الكرنك ، ليشرح لى من أسرار
ما لا يعرفه أقدر التراجمة من أبناء المدينة . فشكرته واعتذرت له أن لدى
اليوم شواغل تحول دون معادرتى الفندق إلى زمن طويل ، وإنى مضطرة لذلك
أن أوجى زيارة الآثار إلى يوم آخر . وقبل اعتذارى فى لطف وأسف ،
ثم قال إن صديقى لا تبرح « وتر بالاس » اليوم ، لأنها تريد أن تستريح من
مشقة زيارتها ببيان الملوك أمس .

وانصرف الرجل ، وخرجت أرى طفلى فى فناء الفندق وحقيقته . .

ثم إني اصطحبتهما ومريتهما إلى حديقة « ووتر فالاس » . وهناك ألبست
صديقتي ممددة على كرسي طويل . وفي يدها قصة تقرأها . فهي لم تكن
تظن أن تقرأ من الكتب غير القصص . وانجذبت نحوها فلما دفوت منها ودعت
بصرها عن كتابها ثم قامت وحينئذ ودعت البستاني فجاء بكرسي طويل آخر
تمددت عليه . إلى جانب كرسيها . فلما استقر بنا المجلس انجذبت إلى
بنظراتها الفاتنة وقالت :

« أخبريني ! . . ماذا فعلت بهذا الأقصرى ؟ ! . . لقد سحر بك سحراً ،
بل جن بك جنوناً . . إني لم أوه قط . كما رأيته أمس بعد أن غادرتنا . .
لقد انقلب حلي حين فجأة شاعراً مقلماً . فنظراتك . ولفتاتك ، وحديثك ،
وهندامك . ورقتك . ولا أدري ماذا كذلك كانت مدار حديثه طول سهرته !
ولقد سهر طويلاً وأسهرني معه . ولم يكن تابع بنظراته الحائرة حركة الرقص
على عادته . فقد كان في شغل شاغل عن ذلك كله بالحديث عنك ، عنك
أنت وحديثك حتى عيّل إلى أنه يعرفك من زمن وأن بينكما مودة ، فلما أخبرني
أنه رآك أمس أول مرة وأنت معي . . . تولفتي الحيرة : أي طلمس نحملين
أضله عن صوابه كل هذا الضلال ؟ » .

وتبسمت ضاحكة من قولها وقلت :

« أنت نبالعين يا عزيزتي . وإن هناك لطرافاً من الرجال ذلك شأنهم
حين يرون امرأة لأول مرة . وما يدريك لعل هذا الأقصرى يوم رآك للمرة
الأولى قد قضى سهرته حديثاً عنك ، وقضى ليله تفكيراً فيك ، وهو لا ريب

قد حمل إليك صبح الغداة من ذلك اليوم طاقة كبيرة من أزهار جميلة شبكت
بها بطاقته ، ووضع تحت تصرفك عربته تزورين بها الآثار ، واستأذنتك في
أن يصحبك إلى معبد الكرنك ، ليشرح لك من أسراره ما لا يعرفه أحد
الترجمة في المدينة .

وقالت صديقتي :

« بل أنت التي تبالغين ، صحيح أنني تلقيت غداة وصولي إلى هنا
ومقابلته إيائي للمرة الأولى طاقة من الأزهار ، لكنها لم تكن كبيرة ولم تشك
بها بطاقة ما ، وهو قد صحبني إلى الكرنك ، لكنه لم يصحبني وحدي ،
بل كنا جماعة من زوار الأقصر رجالا ونساء ، وكان أكثرنا من الأجانب ،
وكان معنا ترجمان طويل الشرح ولم يتوله غيره ، أما عربته فإنه يتلطف بإرسالنا
إلى كل ما ذكرت له أنني ذاهبة إلى نزهة خلوية ، أثرية أو غير أثرية . . . »

مصر : دارت عيشتي فشتال بين ما ذكرته صديقتي وما كان معي ،
وصديقتي جميلة حقاً ، فارعة القوام ممتلئة و غير ممثلة ، في عينيها حور وفي
نظراتها سحر ، إذا مشيت لفتت مشيتها النظر ، وإذا ابتسمت أسعدت
إبتساماتها جليسها . وهي مؤمنة بجمالها وسلطانها على كل من يراها ، وهي
مع ذلك تذكر لي من أمر الأقصر ما ذكرت ، ليس الجمال وحده صاحب
السلطان إذن على الرجال ، فهذا الأقصرى الذي سحر في لحظات - بحديث
عن جمال بلده - يستطيع أن يقرأ مثله أو خيراً منه في الكتب ، ويستطيع
أن يسمع مثله أو خيراً منه من غيري ، قد سحره لا ويب شيء آخر غير الألفاظ
التي اشتمل عليها الحديث ، وهذا الشيء الآخر هو سر السحر الذي يهر كل

من يسمعى . هو سرى أنا . سر السلطان الذى أحسه . ولا يحيط التحصيل
بكل مصدريه .

ولكن من هذا الأقصرى الذى صفت أمس بحديثه حتى تخرجنى للعبقة
بسحرة نى عن موجب الرزانة وحسن التقدير ! . . لقد أحسست صنعاً بالاعتذار
عن مصاحبتى إياى إلى الكرتك . . . وخير لشاة مثل أن نلزم جانب اليقظة والحذر .
مرت هذه الخواطر بنفسى فى مثل لمح البصر . فلم تلاحظ صديقتى
شيئاً منها . واستطرد بنا الحديث وأنا إلى جانبها فى شئون وشجون . بعد أن
قصت على فى إنجاز مشاهداتها فى آثار الأقصر وبيان الملوك وبيان الملكات .
وإننا لفى حديثنا إذ مر بنا أحسن وقف إلى جانبها فحياتها بيده . وحيالى بإشارة
من رأسه . وتحدث إليها لحظات حديثاً عادياً . دعاها بعده . ودعائى
وإنماها . لتناول الشاي ثم انصرف . وذكرت لى صديقتى بعد انصرافه أنه
المانى مهذب مشغل بالآثار . وأنه يحضر إلى الأقصر كل شتاء منذ سنوات
لتتابعه أبحاثه . وأردت منها أن تعتذر إليه عن عدم قبولى دعوة لم نوجه لى :
إلا لوجوبى معها . فابتسمت وقالت :

« من يدري ! . . لعلها وجهت إلى أنا من أجلك » وعلى أية حال لا ضرر
عليك من قوليها . وأؤكد لك أنك لن تأسى لمعرفة هذا الرجل : فهو مهذب
واسع الأفق والثقافة . حلو الحديث : لطيف المجلس . وهو لا يقيم بهذا
التسدى . ولا يكثر التردد عليه . ولم أره هنا يومين متعاقبين منذ جئت إلى
الأقصر . لهذا أرجوك أن تكونى معاً هنا ساعة الشاي . ولك أن تعتذرى
وتتصرفى بعد قليل من تناوله ! . . .

وألحت الشاة الجميلة فنزلت على رجائها . وجئت للموعد فألقيت
الرجل قد حفر لنا مائدة وجلس إليها ينتظرننا ، وأقبلت صديقتي وطلبتا الشاي
وأخذنا نتحدث . وعلم مضيفنا أني جئت الأقصر لأول مرة في حياتي . فأخذ
نفسه بأن يرسم لي - من هذه المدينة الصغيرة التي كانت من قبل عاصمة
القراعة - صورة بحيبها أمام خيالي في عهود عزها وجلالها . وتصفها في
نحضرها بعيدة كل البعد عن هذه العزة وهذا الجلال . لولا مبعدها الضخم
القائم على شاطئ النيل الأيمن ، ولولا القبور العجيبة التي نحيا القراعة
مقراً لحياتهم الآخرة في جوف الهضاب النائية على الشاطئ الأيسر . وأخذ
يتحدث في هذا حديث علم ساحر الحديث طيله تناولنا الشاي . فلما فرغ
من القول شكرته ثم أبديت له عجيبي من أولئك الأقدمين ، كيف تحيلوا
حاجة الروح بعد الموت لطعام هذه الدنيا ومتاعها ، حتى كانوا يدفعون
مع الميت القمح والزهرة والحلى . وما إلى ذلك من ألوان المتاع . وانتقلت
من هذا الحديث إلى غيره ، وإلى غيره ، وجعل هو ينجيني إلى ما أسأل عنه .
وطاب لي المجلس فلم أعتذر ولم أنصرف . بل أقمت أستمع بحديث
مضيفنا وبأنغام الموسيقى ، حتى لم يبق في بهو الفندق معنا إلا نفر قليل . .
عند ذلك قلت مبتسمة :

« أظن أنا لم يبق لنا من الانصراف بد ، وأنا أشكر صديقتي وأشكرك
يا سيدتي ، وأستأذنكما في العود إلى فندق »

قال الأملاني .

« أو تأذنين يا سيدتي أن أصاحبك إلى هناك فالطريق طريق وأنا أقم

على مقربة من فندق الأقصر . وانتقل الحديث في أثناء الطريق من القراعة
إلى مشهديات في أوروبا . وأصغى الرجل للحديث عن جمال سويسرا .
ثم سألتني عما إذا كنت قد زرت ألمانيا . وأبدى الأسف حين قلت إنني لم
أزورها . وذكر أنه سيكون في برلين الصنف المقبل وتمنى لو التقينا بها وتعرف إلى
زوجي هناك .

نزلت صبح الغد إلى بهو الفندق . فالتقيت صاحبتنا الأقصرى في مكانه
لألمس . وأقبل عليَّ حين رأني وذكر لي بعد التحية أن الأثرى الفرنسي . الذي
يشرف على عملية التنقيب بالكرنك . ويقيم في منزله تجاه المعبد . يقيم
اليوم حفلة شاي . وأنه علم بمقدمي من مصر . فأبدى الرغبة في حضورى هذه
الحفلة والاستعداد للمحبة . إلى الفندق للدعوى إذا كنت مستعدة لقبولها .
وتحدثت الأقصرى عن هذا الأثرى الفرنسي . مثبِّتاً على أعماله . محبداً
قبل الدعوة . فلما أبدت أنني لا أرفضها قدم بطلبها باسمي : قلت :
لا داعي إذن لتجسيم الرجل مشقة الحضور بنفسه . فبدت على محيا
الأقصرى علائم الغبطة . وقال :

« سأصحبك إنك في عربتي إلى هناك » .

ودعنا بعد الظهر معاً وتم التعارف بيني وبين الفرنسي وسافر المدعوين إلى
الحفلة . وبعد أن تناولنا الشاي ذهبنا في زيارة قصيرة إلى الكرنك . رأينا
خلالها ما أسفرت عنه عملية التنقيب . على أنني خرجت من هذه الزيارة
القصيرة وأنا لا أكاد أصدق ما رأيت من جلال هذا المعبد وفخامته وعظمته .
ورأى الفرنسي إعجابي بذلك إنه يسرُّ بمصاحبتى في أرجاء المعبد كله دليلاً

يشرح لي بعض أسرارها . ونظرت إلى صاحبي الأقصرى مبتسمة ابتسامة
من يسأل :

« أي الدليلين أختار ، هو أم المشرف الفرنسي على المعبد ؟ » . وجواباً
على ابتسامتي وجهه هو الحديث إلى المشرف قائلاً :

« متى قررت السيدة زيارة المعبد أحطتك تليفونياً وحضرت معها لأستفيد
جديداً عن آخر ما وصل إليه تفكيرك ! . . . » .

قضيت أسبوعين على هذا النحو بالأقصر ، أستبشر كل صباح بمشاهدة
طفلي زادهما هذا الجو البديع نشاطاً وصحة . وأتفق مع الطاهي على ما سيقدم
لهما من طعام ، وأقضي ما وراء ذلك متاعاً بنفسى وبصديفى وبمعارفى .
الذين ألقاهم في حديقة « وتر بالاس » أو أجلس إليهم ساعة الشاي في بهوها ،
أو أزورهم بعد العشاء أحياناً قليلة ، أسمع موسيقى الرقص ، وأمتع النظر
بحركات الراقصين . وفي هذين الأسبوعين زرت آثار الأقصر في طيبة الأحياء
ومقابر القراعنة ملوكاً وملكات في بيئاتها ، وزرت الكرنك مع فوج من
السائحين في ضوء القمر . وأشهد لقد كنت سعيدة بمن عرفت عن الأحياء
سعادتي بهذه المشاهد الحالدة الباقية على الدهر بقاء الدهر ، فكانت هذه
وأولئك يشغلونني في يقظتي وفي نومي ، لأنني لم يكن يشغلني شيء سواهم ،
ولأنني كنت في هذه الفترة أقضي نهاري وليلي كما يقضي السائحون نهاريهم
وليلهم ، لا هم لهم إلا التمتع بالحاضر ، لا يشغلهم غدهم عن يومهم .
ولا يفكرون إلا فيما تقع عليه أنظارهم وما تلهيه مشاعرهم وحواسهم ، وكذلك
نسيت السلك الدبلوماسي ، ونسيت تحديده النسل ، ونسيت القاهرة . بل

نسيت أودع . لأن الحاضر أمامي كأن يملأ فراغ وقتي . ولا يدع لي فرصة
للتفكير في شيء غيره .

قلما صدمني الواقع بأننا عائدون إلى القاهرة بعد غد . شعرت كأنني
أفقد من حلم سعيد لذبة . وكأنني إنما جئت إلى الأقصر لأمسي . واستبد لي
هذا الشعور حين رأيت المرية صبح الغد تعد متاعنا للسفر لم يبق لي إذن
إلا أن أودع كل ما رأيت ومن رأيت خلال هذين الأسبوعين السعيدين .
لم يبق لي إلا أن أودع هذه العرفة التي احتوت أحلام يقظتي وبومي بفندق
الأقصر . وهذا اليوم وقاعة الطعام . وهذا الفناء . وهذه الحديقة . ولقد
كانت ملعب طفلي ومهبط أشعة الشمس المحسنة إليهما ، وأن أودع حديقة
وتنير بالأس وبهوها وشرقها واليل وبيان الملوك والملكات مما تطل هذه الشرفة
عليه . وأن أودع صديقتي وصاحبها الأقصري وهذا الألماني المثقف الطريف
الذي تردد علينا بضع مرات كنت أحس ، كل مرة بها بأنه أوسع ثقافة .
وأكثر ظرفاً ! . . نعم . . لم يبق لي إلا أن أودع من رأيت ، وما رأيت .
وأن أقول لهم ولها .

إلى الملتقى إن قدر لنا أن نلتقي ما هنا مرة أخرى . . .

ونخرجت إلى فناء الفندق أشرف على الطفلين حتى تنزل المرية إليهما
بعد أن تفرغ من إعداد المتاع . واتجه نظري إلى باب الفندق الخارجي
فيما وراء الحديقة ، ودارت برأسي حواظر مبهمة أوجت بها عذابات نفسي .
نرى لو أنني جئت إلى هنا العام المقبل ، أتراني ألتقي بمن أودع اليوم ؟ . .
وابتسمت في مرارة حين ارتسم أمام بصيرتي الجواب الطبيعي لهذا السؤال :

نعم . سأرى الصديقين وحديثتهما ، وسأرى النبل والمعابد ، وقبور الملوك والملكات ، كما أرى شمس الأقصر وقمرها .

أما صديقتي والأقصرى والألماني ومديرا القندين ومن إليهم من رجال ونساء يقيمون هنا ، دعك من السائحين والسائحات ، فلا علم لي ولا علم لأبيهم ما مصيره بعد عام ، بل بعد شهر ، بل بعد يوم . فقد يرجع الألماني إلى وطنه ثم لا يعود ، وقد يمرض أحدهم وقد يموت . ألا تعساً لهذه الحياة لا نملك منها إلا بخيال سريع التقل سريع الزوال . . وما أشهاها مع ذلك وما أذلها وما أظلم ما تسيغه من حلوماتها ! . . أتراها تكون كذلك لو أن الأحياء كتب لهم البقاء كما كتب على المعابد والنيل والشمس والقمر ؟ . . ونزلت المرية فتركتها مع الطفلين ، وأخذت طريقاً إلى حديقة « وتر بالاس » . وهناك جلست أتحدث إلى صديقتي حديث الداع . وإنا لكذلك ، إذ أقبل الأقصرى فجلس إلينا يشاركنا في هذا الحديث ، ثم قال ساعة انصرافه إنه دعا الألماني ، كما دعا الفرنسي المشرف على أعمال التنقيب بمعبد الكرنك ، لتناول الشاي معنا قبل المغيب ليقوم الجميع بتوديعي .

واجتمعنا حول مائدة الشاي ، واستمعنا إلى الموسيقى ، وتحدثنا فلما آن موعد انصرافي حيافى الفرنسي بكلمات تسيل رقة ، وعنى لي صوداً سعيداً إلى بيتي ، وعانفتني صديقتي وتبادلنا قبلات حارة . . وقال الأقصرى إنه سيراني مرة أخرى على محطة سكة الحديد صبح الغد . أما الألماني فقد أصر على مصاحبتني إلى فندق . فطريق طريقه إلى مسكنه . فلما بلغنا باب الفندق وقف يودعني وأخرج من جيبه علبة صغيرة وقال :

أحمد - سيدتي أن ثقلي هذا التذكار الصغير لتعاقبنا التفسير . خلال
هذه الفترة الوجيزة ! . . . يا به لا يعبر عما أشعر به نحك من إكثار وتقدير محاسب .
ولكنه يذكرني كذلك عندك كلما رأيته . . . وشكرته وفتحت العلبة قبل أن
بصرف . فرأيت بها حلية صغيرة دقيقة الصنع غاية الدقة . فلما أبديت
إعجابي بها قال :

« لقد صنعتها بنفسى . وإن لم تكن صباغة الحلى صناعى » . ثم ودعنى
وانصرف .

وفي الصباح الباكر جاءت عربة الأقصرى فانتقلنا بها إلى المحطة فإذا هو
ينتظرننا على إفريزها . فلما آن لنا أن نستقل القطار وصعد إليه الحمال بمناعنا
رأيت مع المتاع زنبيلاً أشار إليه الأقصرى وقال :

« إنها هدية سعيدية لا تلبى بالمقام . تأكلوها شفاء وعافية » ! .
وانطلق بنا القطار . وأنا رسيده في السيوان مع طفلى . أشعر رهبة ،
ولم أشعر بحاجة إلى دفاع . وغلب النوم الطفلين لتبكيرهما في اليقظة ، فاستلقى
كل في ناحية . ورحلت أنا يردد خيالى بين الأقصر ومقامى بها ، والقاهرة
وإقبالى عليها . لكننى ما لبثت بعد قليل أن نسيت القاهرة وتعلقت بالأقصر .
ذلك أننى حاست من الثغاة إلى متاعها فأخذ الزنبيل بظرى ، وأحيا صورة
الأقصرى في ذهنى . وأحيا صورة بلده . ودفعنى منظر الزنبيل ، وزوهم ما فيه
إلى المقارنة بينه وبين الحلية التى أهدانيها الألمانى ، وبين دوق كل من صاحبي
المدينتين . وأدت بي هذه المقارنة إلى أن أسأل نفسى :

أهكان من حتى أن أقبل أيا من المدينتين ؟ . . صحيح أن هدية الأقصرى

قد ربح بها بين متاعى من غير عسى . وأنها هوى ذلك طعام لمن يبقى له عدأ
و بعد غد أثر . وأستطيع إذا سألتى زوجى أن أذكر له كل شيء عنها . .
وتكن ماذا عساي أقول إذا مثلت عن هدية الألمانى . وكيف سولت لى
نفسى قولها ؟ . .

وأعترف ، لقد بهت وتولتتى الحيرة . حين أردت الجواب على هذا
السؤال . . وفى الحق كيف قبلت هذا التذكار ؟ . . وكيف جرؤ الألمانى على
تقديمه لى ؟ . وما معنى هذا الصنيع من جانبه ؟ . ليس للتذكار قيمة مادية
ذات شأن : لكن تقديمه إلى ساعة تودعى مشفوعاً بالعبارات التى نطق بها
كان يوجب على أن أتدبر الأمر أكثر مما فعلت ، وأن أشكر وأعتذر عن عدم
قبول هذا التذكار . . ولكن بماذا كتب أعطى اعتذارى ، من غير أن أدخل
بواجب الأدب والمجاملة ؟ . . إن الرجل لم يندرسه فى كل المرات لقيت جلس
إليها فيها أية بادرة لا ترضاها أدق قواعد الذوق . وعبارته الأخيرة أنه يقدم
لى هذا التذكار ، لما يشعر به نحوى من إكبار وتقدير ، عبارة مختارة أدق اختيار .
فلو أننى اعتذرت ولم أقبل تذكاره ، لكان اعتذارى جافاً لا يصدر عن إنسان
مهذب !

لكن ما عساي أن أقول لزوجى حين يرى هذا التذكار ؟ وهلا أقص عليه
أنباء جولانى ، وكل ما رأيت فى الأقصر . وأنا إنما سافرت إليها من أجل
ابتنا لتسام برئها ؟ إن هذا التذكار ليفتح على أبواباً ما أغنائى عن فتحها
أفأخيه عن زوجى مخلصاً من كل سؤال وجواب ؟ إن كبير بانى وكرامتى
لتأيان ذلك على ، لأننى لم أرتكب إثماً فأتسر عليه . . ولكن هلا بشر هذا

دئد كار في نفسه من الغيرة ما قد ينجي على مودتنا وعلى حبتنا المتبادل ثم يعسره
كل بسن عن غيره . وإن لم يكن لي في ذلك ذنب ولا جريرة . .

جعلت أقلب هذه الأمور في نفسي . والتقطار ينهب بنا الطريق إلى
العامسة فلما بلغنا القيت زوجي في انتظارى على المخطئة . ولحمت في
نظراته وهج الشوق العنيف . وحيل إلى أنه يريد أن يتلغى اتلاعا . لكنه
اكتفى بتقبيل الصغلي وإظهار الرضا عن صحبهما . فلما دخلت منزلا وأزلت
عني عيار السفر ولياسه . وتريت اللوم . وأوى الطعلان إلى مصحبهما ألفت
بنفسى بين أحضانه وسكبت في فمه كل ما اجتمع في جسمي . وفي قلبي .
وفي عواطفى . وفي وجودى كله مدى وجودى بالأقصر من مشاعر وإحساس .
وتلى هو قبلى فزادته شوقاً لي وأذيت نفسى وروحى فيه . واشترمت بذلك
في كل وجوده . فلما آن لنا أن نتحدث لم نجد ما نقوله . إتنا كليتا هنا وكفى .
وبعد ألفاظ قليلة مبعرة تبادلنا ما قال :

أحسبك متعبة من مشقة السفر طول النهار فليرد عليك النوم راحتك
وطمأينتك . ولتحدث غداً عن الأقصر وما كان فيها . .

وامتبطت صبح الغد في ساعة متأخرة فألقيته ذهب إلى عمله وعدت
أفكر فيما كان يشغلنى وأنا بالتقطار فقلت : يجب أن أقص عليه كل شيء . .
ويجب أن أذكر له الألمانى وتذكاره . . إن ما شهادته منذ بلغت القاهرة
ليدلى على أن لي عليه من السلطان ما كان لحواء حين أعوت آدم فأكل
من شجرة الخلد . وسأرى ما يكون لذلك من أثر ثم أتصرف .

وعاد من عمله مكرراً وقبلنى قبلة شدت من عزمى . فلما جلسنا سألنى

وعلى ثغره ابتسامة الرضا عما رأيت وصنعت في الأقصر ، فذكرت له
صديقتي التي مات زوجها ، فاستولى أهله على تركته . وذكرت كيف كان
يختم إلى مائدتها « بونتر بالاس » قوم أولو ظرف وكيامة . يتناولون الشاي
ويتحدثون ، مهم الأقصرى الذى أهدانى الزنيل ساعة سفرى ، ومن هديته
ستناول طعاما بعد هنية . ومنهم ألماني مهذب واسع الثقافة ، كان قليل
التردد علينا ، وقد قضى عليه ظرفه ساعة ودعنى أن هدينى تذكاراً دقيقاً من
صنع يده . وفتحت العلبة الصغيرة التي احتوت التذكارات وأريتها لزوجي ، فلما
رأها قليلة القيمة المادية لم يبد اهتماماً بها . وذكرت الأثرى الفرنسى المشرف
على أعمال التنقيب بالكرك . ثم ذكرت الكرك وما تركه في نفسي من أثر
عميق حين زورته مع صحبة في ضوء القمر ، وبيان الملوك ، وقبر توت عنخ آمون ،
ومقابر الملوك ، وذكرت ذلك كله وذكرت النيل ومغارب الشمس البدعة .
وأخذت أتحدث وأتحدث وهو يصنى إصغاء مأخوذاً من سحر حديثي .
ثم ختمت الحديث بأنى كنت أغتبط بذلك كله ، ثم أوداد غبطة حين
أستيقظ في الصباح ، فأرى طفلينا يزدادان نشاطاً وصحة ، ويزيداني
بذلك هناءة وسعادة ، ويجعلان من مقامنا بالأقصر فلذة من نعم ، كان
يضاعف لو أن والدهما كان معنا يستمتع بمناجاة ، ويزيدنا سعادة بمناجاة ؟ . .
قبلنى زوجي حين فرغت من حديثي ، وشكر لي صلاتي بالطفلين .
ثم قمنا وتناولنا غداءنا وخلوت بعد ذلك إلى نفسي راضية عن نفسي . هأنذا
لم أخف شيئاً عن زوجي ، وما هو ذا مطمئن مقتبط ، وهذا طيعي .
فلا جناح على امرأة إذا رأى الناس فيها جاذية أدتهم منها وحيث إليهم

مجلسها . أوراوا في حديثها ما أخذ سمعهم وأبصارهم . . فهم إذن كان ترددي وأنا بالقطار ؟ . . وفيهم كانت خشيتي أن أثير هواجس الرجل أو أثير غيرته ؟ . . إتنا كثيراً ما نجسم أمام خيالنا أموراً لا جسامه في الواقع لها . وكثيراً ما نضطرب أمام اعتبارات لا شيء فيها يوجب الاضطراب .

على أنني ابتسمت بعد هنيهة في نفسي وتساءلت :

أكان الأمر يتم بكل هذا اليسر لولا أنني سكبت في جنان زوجي كل ما اجتمع في جسمي وفي عواطلي ، وفي وجودي كله ، من حس ورغبة ، ولولا أنني أذيت نفسي وروحي فيه . وانتشرت في كل وجوده لأول ما خلوت إليه بعد أن بلغنا القاهرة ؟ . . وهل كان الأمر يتم في مثل هذا اليسر لولا لواعج الشوق التي كانت تحرك كل روحه وكل عصبه ، ولولا ما يكن قلبه من حب فرض عليه كل سلطانه ؟ . . إن شوقه وحبه هما اللذان يصراني بعد أن أرضيتهما بكل ما ينطوي عليه وجودي من أسباب إرضائهما ، وبعد أن تعاونت أسباب هذا الإرضاء في ذكاء ومقدرة فلا أعسط حتى نفسي ، ولا أهون من قدر سلطان القاهرة ، فلولا هذا السلطان لواجهت اليوم موقفاً ما أدقه وأعسره ! . .

وتعاقبت الأيام وأقبل الصيف وفكرت في السفر إلى أوروبا . ولم أكن في ريب من إجابة زوجي رغبتني . فقد رضي سلطانني وأقره وحضيم لحكمه برغم ما كان يبدو أحياناً من تحككه ، لأنه رأى في هذا التحكم لونا من دل المحب يزيده إغراء . على أن أمراً حدث حال دون هذا السفر ، فقد مرض والدي واشتد به المرض حتى كان الأطباء يعودونه صباح مساء ، وكان زوجي

هو المشرف على تنفيذ العلاج الذى يقررونه . فلم يكن مستطاعاً أن مدعه
في حلقه وسافر إلى ربوع الاصطياف والتسليه . فلما برئ كان الصيف في
ميلياته ، ولم أكن أحب الإسكندرية منذ سافرت مع والدى إليها بعد موت
أمى ، لذلك استقر مقامنا بالقاهرة حتى إذا كنا في الأيام الأخيرة من شهر
ديسمبر رأى زوجى أن من حق أن أستريح ، فاقترح أن أذهب مع الطقلين
والمرية إلى الأقصر كما فعلت في العام الماضى . وحبزنا أماكتنا في فندق
الأقصر وسافرنا بقطار الصباح اتقاء برد الليل ، فلما بلغت الفندق وجدت
الأقصرى والألماني في بهوه . . وأقبلا مع مدير الفندق وقالوا :

لقد أخبرنا المدير بمجيئك فانتظرناك لتقول لك : حمد الله على
السلامة . . ثم ذكر أن صديقتى نزلت « وتر بالاس » وودعاني وانصرفا .
وذهب مبكرة بعد ظهر الغد إلى « وتر بالاس » فألقيت بهوها خالياً
فتخطيت إلى شرفتها أودى للنيل ولما ورائه في الجانب الغربى ناحية إكبار
وإجلال . ولم يطل وقوفى حتى رأيت الإنجليزية التى وقفت إلى جانبي في العام
الماضى تقبل على وتقول :

« هاللو ، أرايت أنك لم تستطيعي مقاومة ما لهذا المنظر الساحر من سلطان
فجئت حاجة إليه هذا العام كرة أخرى . ذلك شأنى معه من أعوام عدة ،
لا يكاد الشتاء يقبل حتى أشعر بدافع يجذبني إلى هنا لأودى لهذا المشهد القند
فرضاً ، حاولت غير مرة أن أتصل منه ، ثم لم أجده مفراً من أدائه . وحديثي
بربك ، أى شعور يملكك حين تبهطن مئات الدرج إلى قعر فرعون نقشت
جوانبه بطلاسم « كتاب الموتى » ، ثم ترين مكان تابوته أوبغيه من آثاره ! . .

إن الرهبة نبي تملكى في تلك اللحظات لترى العالم الآخر وترى ملكوت
السموات ألا ترى أنت أيضاً شيئاً من ذلك ؟
وأجبتها :

« إننى لم أتردد بعد على تلك المفاهيم ما ترددت لأرى فيها ما ترى . .
إنما ملكنى شعور العجب كيف ينفق هؤلاء الملوك . كل ذلك الجهد ويسخرون
في سبيله ألوف العمال وعشرات الآلاف . ليقرؤا في جوف الصخر قصور
قبورهم ! . . » قالت - وفي لهجتها شيء من الإنكار على :

« كلا ياسيدتى . لا تقول هذا الكلام . فلو أنهم لم يفعلوا لما خلدوا
للأجيال المتعاقبة على الدهر هذه الآثار الباهرة الضخمة . التى تحدث عن
حضارة روحية أضاعها عالمنا المادى الأحمق ! . . إن هؤلاء الأقدمين في
مصر والهند والصين قد هدتهم حكمتهم . وخلدوا من آثار علمهم وفهم وحضارتهم
مالا قبل لعالم اليوم بمثله ! . . إنهم كانوا يعيشون مطمئنين إلى خلد أرواحهم
فكانوا يقيمون لهذه الأرواح المقر اللائق بها . أما نحن فنعيش في عالم
مضطرب سريع التغير لا نستطيع أن نمسك منه بمعنى من معانى القاء ،
وحسناً لذلك منه حياتنا على الأرض وما أقصرها ، وما أنقذ ما تكسبه
أرواحنا في أثنائها ! . . وإنى لأشعر يوم ملتقى هؤلاء الأقدمين في ملكوت
السموات أنا سئرى أنفسنا أقراماً إلى جانبهم ، ونرى حضارتنا هباء إلى جانب
حضارتهم . »

ولست أذنت محدثتى وعدت إلى بهو الفندق وجلست إلى مائدة في أحد
جوانبه . وبعد قليل رأيت صدقتى قادمة من ناحية المصعد فقامت إليها .

وبهذه التحية ، وجلسنا حول المائدة وعدنا إلى مثل حالتنا منذ عام . . .
وبما لكذلك إذ جاء الألماني ووقف هيئة يتحدث إلينا ثم انصرف معتبراً
بأن لديه موعداً لا فكاك له منه . قالت صديقتي : « خبريني . ماذا صنعت
هذا الرجل ؟ إن الأقصرى ليدكر أنه مجنون بك ، وإنه يقول إنه يرى الله
في السماء ويراك على الأوص . . . فضحكك ضحكة ذات مغزى وقلت .
« وهل تصدقين الأقصرى . لعله يرائي أضيق به أسبانياً . وأنى أجمال
هذا الألماني ، فدفعته الغيرة لأن يقول لك ما قال . إنني لم أر هذا الألماني في
العام الماضي إلا معك ، وكنت أراه معجباً بك . وما أحسب الأقصرى يريد
بكلامه لك وقية بيننا ! . . . »

قالت صديقتي :

« لا أظن بالأقصرى هذا الظن . والألماني رجل مهذب رقيق . ألا ترين
أنه كان يأبى إلا أن يرافقك إلى الفندق كل مرة يجالسنا فيها ، فكان يدعنا
وينصرف معك حتى لا يدعك تسيرين وحدك . »

ولم أر أن أحجب فأنصرفت بالحديث إلى موضوع آخر .

لست أنكر أنني اغتبطت في دخيلة نفسي لما ذكرته صديقتي عن عواطف
الألماني نحوي ، لكني رأيت أن أقطع عني ألسنة المتكولين بالترام حانب
« حيلة والحكمة ، فكنت إذا أردت الانصراف وهو في مجلسنا ، دعوت
سيدة تقم مثلي بفندق الأقصر ، ولو كانت على مائدة غير مائدتنا ، لتعود
بعد ذلك إلى الفندق معاً ، فلا يفكر هو في مراقبتي ، فإن فعل لم يكن
لصديقتي ولا للأقصرى ولا لغيرهما أن يقولوا شيئاً . »

ورأيت يوماً زوج صديقة لي ، كنت أعجب بمنطقه ، وكنت أعلم أنه يترك وتر بالاس - فلما رآني جاء يحيينا فاستبقته هنية ثم قلت :

« حان موعد ذهابي إلى فندق » . وقلتها بلهجة فهم منها أنني أريد مرافقته يتي . وكان ذلك بالفعل قصدي إيعاداً لشبهه الألماني . وصحبنى زوج الصديقة وهبطنا الدرج إلى الحديقة والوقت قد أمسى والظلام مد رواقه . وعثرت قدمه ، فقال وكأنما يعتذر عن عثرته :

« تبا لإدارة هذا الفندق . ما ضر لو يعثروا بين أشجار الحديقة بعض الثريات الكهربائية ؟ » . . . ويدرمني عن غير عمد أن قلت :

« يا عيط ! » . . . ولم ترضه كلمتي فلم يسكت عليها بل قال :

« لو لم يكون لي زوجاً لصديق ! ! » . ولم أجب للحظتي ، ولولا الظلام لبدت على وجهي حمرة الخجل . . . على أنني قلت بعد برهة : « مالكم معشر الرجال تسرعون إلى سوء الظن حين لا يكون لسوء الظن موضع ؟ » . . . ولم يرد هو متابعاً هذا الحديث فأداره يذكاء إلى اتجاه آخر .

ويظهر أن الألماني فطن لحذري وأراد التغلب عليه ، فقد صادفته يوماً ساعه نزول من غرقى لأذهب إلى موعد الشاي « بوتتر بالاس » . فلما رآني تقدم إلي ، وجاني في لطف وأدب وقال :

جئت أدعوك لقضاء النهار بعد غدا في البر القري حتى تشهدى ما تجربته مصلحة الآثار في الدير البحري ، وستتناول طعام الغداء هناك . وبدت على الحيرة ، فلم يدع لي فرصة للاعتذار بل قال :

« وقد لاحظت ما بدا من حذرك هذا العام ، فدعوت صاحبتنا الأقصرى

ليكون معنا ، وقد رجوته أن يقنع صديقك بمراغقتنا كذلك !
قلت :

إن كان الأمر كما تقول فأنعم بها من صحة ! . .
قال وكأنا صفعته عياري :

« لست أفهم يا سيدتي حزنك هذا . فهل بدرنى ما يوجب الريبة ؟ . .
وعلى سمعت منى كلمة خلدت صمك ؟ . . أم أن ذنبي يل جريمتي أنني
مسجب بك إعجاباً لا حد له ، معجب بكائك ، وپروحك المضيئة ،
وبحديثك الساحر ، وبكل شيء ؟ . .

« ومنى كان الإعجاب جريمة يعزى مجزئها هذا الجزء القاسى ؟ . .
هأنذا صارحك بما يدور فى نفسى تحوكت من عاطفة ، لن تزداد على الأيام
إلا سموً ، ولست أنا وحدى الذى ملكنى الإعجاب بك ، فكثيرون ممن
رأوك أو استمعوا إليك يعجبون كيف يكون فندق الأقصر أو فندق وتر بالاس
مكناً لملك مثلك . ولو أن ذلك كان سائغاً لشاهدوا لك قصرأ يحجبون
إليه كلما تزله ، فأمثالك اللاتى وهين القدر ما وهبك يا سيدتى قليلات ،
فلا تسرقى فى التواضع ولا تجعلى من إعجابى بك جريمة تقتضى العنتر منى
والبعد منى ! . . إنى لا أريد أن أسمع منك جواباً على ما قلت ، فإلى بعد
عد ، بعد فطورك ، إلى اللتى ! . . وتركنى وانصرف .

وتولتنى إثر هذا الحديث الذى يكاد يشبه الاعتراف دهشة أذهلتنى ،
فبقيت مستلقية فى مقعدى مضطربة النفس ، لا أدرى ماذا عسأى أفعل .
فلما هدأت قمت متحاملة على نفسى إلى « وتر بالاس » وجلست مع

صدقتي . وسرعان ما جاء الأقصرى . وبعد هدية عذريته وقال :
 « نحن إذن ضيوف الألمانى بعد غد إلى الجانب الغربى . لئلا نرى الدبر
 المحرى وما يحرى فيه »
 وقالت صديقتى .
 « وقد ألح صاحبنا هذا على لأقبل الدعوة برغم علمه بأننى شهدت من
 الآثار ما لا حاجة لى بعده أن أشهد جليداً »
 قلت فى هدوء متكلف .
 « لقد كنت موشكة أن أعتذر لولا حرصى على صحتكما . فإن شئنا
 اعتذرنا جميعاً . ولا يزال فى الوقت متسع » .
 قال الأقصرى مسحماً : « كلا ياسيدتى . إن اعتذارنا يسىء إلى رجل
 رقيق مهذب جالسنا بدعوته إيانا . ولم يسئ قط إلينا وأنا مؤمن أننا سنقضى
 بعد غد يوماً من الأيام التى لا تنسى ! » .
 وقضينا بعد غد يوماً بالهزل لا يسىء . كانت الشمس محسنة كعادتها .
 وكان الهواء ناعماً رقيقاً . ونخطينا النيل فى زورق شراعى انساب على هوى فوق
 مياهه الهادئة المطمئنة . ودربنا بين آثار « طيبة الأموات » ونمايلها ومقابرها .
 حتى إذا انحدرت الشمس شيئاً ما بعد الزوال تناولنا غداً فى استراحة
 نيك . وذهبا بعد ذلك إلى الدبر البحرى . فطلقنا القرنسى الذى يقوم
 بالأعمال هناك ودار معنا فى أرجاء الدبر . وأرانا فى مخزن إلى جانبه بعض
 ما عثر عليه فى أثناء حفره وتنقيته . وكان يشملنا طول نهارنا جو موده أدهب
 عنى الحذر . وجعلنى أشكر الألمانى من كل قلبى أن هباً لنا فرصة هذا اليوم

المتع العزيز ، وكان الأقصرى يتعد عنا أحياناً مع صديقتي فلا أضيق بذلك ولا أنكره . إن ما صبه الألمانى فى سمعى من آيات إعجابه قد صادف هوى فى قواذى وأرضى كبريائى ، وهو اليوم سعيد بصحبتى . يريد أن يسمع منى أكثر مما يريد أن يتحدث إلى . وأنا ضئيلة بالكلام وهو راضى مع ذلك كل الرضا بما أقول . ويرتد الأقصرى مع صديقتي إلى ناحيتنا فتولاها الدعشة لصمتنا ، لأنهما لا يدركان للمعنى الإنسانى السامى الذى تنطوى عليه جوانحننا والذى يقرب بين روحينا وعقليتنا . وإن لم تضطرب بسبب ذرة من أعصابنا أو جسدنا .

وعندنا حين قاربت الشمس المغيب فأقلنا الزورق إلى ونتر بالاس ، ورافقنى الألمانى إلى فندق الأقصر بعد أن اعتذرت لصديقتي بأننى متعبة شديدة الحاجة إلى الراحة . واحوتنى غرقى فأزلت عنى غبار النهار . واستلقيت على سربرى أستعيد صور هذا اليوم الجميل السعيد . وهذه الصورة اتصل الحديث الذى صبه الألمانى فى أذنى أول أمس فازددت غبطة وسرت فى عروفي نشوة أشعرتنى الرضا والنعم ، وتناولت طعام العشاء فى عرقى وأويت من جلبد إلى فراشى كأنما أريد أن أستعيد هذه الصورة المنعشة المسعدة . وارسم خيال الألمانى وراء هذه الصور كأنه يحركها ، وأغمضت جفنى لعلى أنام فإذا اليوم يحفونى ، وإذا هذه الصور تزداد وضوحاً أمامى ، وإذا بي أشعر كأن هذه الصور تنحدر بي إلى لون من الحسن يقشعر له بدنى ، ويضطرب به تفكيرى . وطال ذلك بي إلى ساعة من الليل لم أدر ما هيه ، وأخيراً غفوت وبظهر أتنى قد طالت غفوتى ، فقد صبحت فإذا الأطفال هبطوا مع مربيه

إلى الحديقة . ودعوت الخادم فأقبلت تسألني ما لي ؟ ثم أحضرت لي طعام
مطوري ووقفت إلى جانبي تطمئن على صحتي . وهبطت إلى البهو . وطلبت
زوجي بالقاهرة تليفونيا . ومكنت سوية أنتظر دعوتي لمحدثته .

وإعما طلبت زوجي لأتق شمرت بالحاجة الماسة إلى سماع صوته ،
بل شمرت بالحاجة الماسة إلى وجوده بجانبني . لقد رأيت في أثناء غفوتي أنني
علوت أعلى هضبة في الشاطئ الغربي . وأن ريحا عاتية هبت ساعة المغيب
فدفعتني ألتدحرج على سفحها ، وأصيح بأعلى صوتي فلا يتقذى أحد ، ولعل
هذا الصباح هو الذي دعا الخادم لتسألني عن صحتي وما لي ، وجعلت
ألتدحرج وألتدحرج ، وأصيح وأصيح ، ثم إذا بد مسحة ومصدر حنون
تلقاني . ونظرت إلى صاحب هذه اليد وهذا الصدر فإذا هو زوجي ، فلما
استيقظت صممت على محادثته ودعوته ليجيء إلينا ! . .

ودعيت لمحدثته وسمعت صوته يسألني في انزعاج :

« كيف أنتم ؟ ماذا حدث ؟ . . لماذا طلبتني ؟ ؟ قلت : « كن مطمئنا ،
إبتنا جميعا على خير ما تحب ، لكنني شعرت منذ تركت القاهرة أننا ظلمناك .
فأنت أخرج إلى الراحة منا ، إنك لم تسرح طول الصيف ، فاحضر إلينا
فاقض معنا أسبوعا فالجو هنا كليل بأن يعيد إليك طمأنينة نفسك وراحة
أعصابك ، وحسبك أن ترى الأطفال يرحلون سعداء فتكون سعيدا بهم ، ولي ،
فتي تحضر ؟ . . حبرني لأخطرهم هنا في الفندق » . . قال :

لا شيء أحب إلي من أن أراكم هاتين سعداء ، وسأحضر بعد يومين
بالقطار الذي يصل الأقصر بكرة الصباح . وماذا تريدان أن أحضر لكم من

القاهرة ، لك وللأطفال ؟ . . وشكرته وقلت له :

إلى اللقاء . . وانتهى حديثنا ، وأنا أسعد الزوجات

وأسرع إلى « وتر بالاس » وأخبرت صديقتي بأن زوجي سيحضر بعد يومين ، وأدأعت صديقتي اتباً وعرفه كل معارفنا ساعة الشاي ، فلما أويت إلى مخدعي بعد السهرة تولاني العجب من نفسي ، فلماذا دعوت زوجي ؟ . . يجب ألا أعلم أحد أنني أنا التي دعوته ، بل يجب أن يعلموا أنه هو الذي قرر الحضور من تلقاء نفسه ، ويجب أن يفهم الألمان ذلك بنوع خاص حتى لا يظن أنني أردت أن أحمي زوجي منه . . ومن نفسي . . إن كبريائي لثاني على أن أضعف ، أو أن يتوهم أحد أنني عرضة لأن أضعف ، يجب أن أكون دائماً صاحبة الرأي ، وصاحبة السلطان ، وأن يستجيب الغير لإرادتي وسلطاني بدافع من أنفسهم ، ومن غير أن أطلب إليهم شيئاً طلباً صريحاً . فلما جاء زوجي بكرت لملاقاته ، وبعد أن نهدينا تحية كلها الود ، وبعد أن اطمأن إلى صحة الطفلين وهما، قلنا له

« لقد فهم الناس هنا أنك أنت الذي أردت أن تحضر بدافع من عواطفك نحونا وشوقك لنا ، وراقى هذا الذي فهموا قلم أعترضه ، ولا شك في أن ما فهموا من ذلك يرصيك ويسرك ؟ . . » واعتبط زوجي لفهمهم الأمر على هذا الوجه وأكله لهم ، وأقام معنا أسبوعاً عدداً بعده إلى القاهرة ! . . وفي خلال هذا الأسبوع دعوت الألمان والأفصرى ودعوت صديقتي لتناول الشاي ولتناول العشاء معنا بفندق الأقصر ، وأعدت على مسامع زوجي أمام الألمان أنه هو الذي أعداني التذكار الذي أريته إياه في العام الماضي ، وطفنا

حبيباً معاً لرى زوجى من آثار الأقصر ما لم يكن رآه . فلما اقترب موعد سفرنا وحانت لحظة استطاع الألمان أن يحدثنى فيها على حدة قال : « أرجو أن أراك هنا العام المقبل . وأرجو أن تأذنى لى إذا حضرت إلى القاهرة أن أزورك هناك » قلت :

« أولاً تريد أن ترى زوجى كذلك بالقاهرة ؟ » .

قال : « ذلك شأنك أنت . لكننى أصبحت أشعر أنه لا غنى لى عن أن أراك وأستمع إلى حديثك ولو مرة فى كل عام . ولو اقتصرانى الأمر أن أجمع إليك كما يحج المسلم إلى مكة والمسيحى إلى بيت المقدس ، ليرفع إلى ربه دعاءه . كذلك أريد أن أرفع إليك فى كل عام دعائى وآيات إعجابى صادقة خالصة لوجهك الكريم ! » .

وابتسمت ولم أنجب أمارة أنى أخطب بذلك ولا أعرضه . وكنته ابتسامتى . ليشكرنى وليحمد لى أن لم أر فى إعجابه إثماً يوجب التريب عليه . . .

وعدت مع زوجى والطفلين والريية إلى القاهرة وأنا مغتبطة أشد الاغتباط بأن دعوته فحضر إلينا بالأقصر . ولم يكن مرجع غبطتى أنه حمائى من ضعف نفسى . علم يكن أيسر على من أن أعقب على هذا الضعف ، وأن أتخصه لإرادتى وسلطانى . لكن هذا الأسرع الذى قضاه بالأقصر أتاح له فرصة لا يسمع عمله بأن يتاح له مثلها بالقاهرة أتاح له أن يرى إعجاب المعجيين بى . أحانب ومصريين . وأن يدرك أنى لست امرأة ككل النساء . صحيح أنه يحبنى ويقبلونى ويستجيب لكل رغبائى ، لكنه كان فى حاجة إلى أن يرى

ما أرى ليزداد إكباراً لى . وتقديراً لما يجب أن يكون لى فى الحياة من مكانة .
وليعلم أنى يوم أردت أن نتقل إلى السلك الدبلوماسى إنما أردت أن أسمر
بنفسى وبه إلى هذه المكانة الوجيهة لى وله !

أما وقد رأى بعبى رأسه هذه الهالة التى كانت تحيط بى فقد غمرت
لنفسى لحظة الضعف التى دفعتى سطلت بحبته إلى الأقصر . بل حملت
هذه اللحظة واطمأن قلبي كل الطمأنينة لما صنعت فى أثنائها . وعاد زوجى
إلى عمله ، وعدت إلى حياتى الرتيبة المتشابهة التى تبعث إلى نفسى السآمة
لولا هذان الطفلان العزيزان اللذان كانا مصدر سعادتى ومتاعى . ولولا أنى
شعرت بأن زوجى قد تبدلت عواطفه نحوى ، فأصبح شديد الإعجاب بى ،
سريعاً إلى تلبية رغباتى فى إذعان جعله لا يناقشنى فى شيء . بل يسبقنى إلى
ما أريد إذا بدرت منى أمانة تدل على إرادتى .

من ذلك أنه أظهر لى أن سكنتا لم يعد يليق بنا ، وأنه يبحث عن مسكن
ما أريد إذا بدرت منى أمانة تدل على إرادتى . من ذلك أنه أظهر لى أن
سكنتا لم يعد يليق بنا ، وأنه يبحث عن مسكن يعجبنى . وبه أن الصيف لم
يكذ يقرب ، حتى رغب إلى أن أعد العدة لسفرنا إلى أوروبا ، وأن أعد
نفسى بوع خاص للمكان الذى يسنى لى فى المجتمعات التى نغشاها .

الفضل الخامس

قبل أيام من سفرنا إلى أوروبا صحبني زوجي إلى منزل مملوك لإحدى اللواتر الكبرى ، لأرى مبلغ صلاحه سكناً لنا . وأخبرني أن الدائرة مستعدة أن تدخل عليه من الإصلاح كل ما يقترحه . وأنها ستقوم بهذا الإصلاح خلال الصيف ، فإذا عدنا من سفرنا ألقيناه معاً لانتقالنا إليه ، ويقع هذا المنزل في حي ممتد على النيل . وقد أعجبنى موقع المنزل وأعجبنى بمجموع نظامه ، لكنني رأيت إدخال بعض التعديلات الجوهرية عليه ، كما أبدت اقتراحاتي في طلاء غرفه طلاء يوافق أذناننا . وبعد الظهر عاد زوجي فأخبرني أن الدائرة قبلت اقتراحاتي كلها ، وأنه أمضى العقد معها ، وعهد إلى صديق قديم لنا أن يشرف على إجراء الإصلاح في أثناء غيابنا .

وكنت قد أعددت لسفرنا إلى أوروبا ما أوصاني . وسافرنا وقضينا هناك صيفاً ممتازاً حقاً . وقد ألفت حياة الفنادق الكبرى واغتنطت بها لأنها كانت تعفي من تدبير المنزل وما يقتضيه من مشقة ، ولأنني كنت أرى من نزلاتها أشخاصاً أسيربح إليهم ، وأعلمون إلى معاشرتهم . من هؤلاء سيدة أمريكية رقيقة ساحرة الحديث ، بلغت رقها أن كانت تبدو ناحلة الجسم حائلة اللون بعض الشيء ، ولكنه شحوب يزيد بها رقة ويزيد حديثها أنراً في العرس .

ويدعو للطف بها والميل إليها . وقد اتصلت بيني وبينها مودة اقتضت أن أسأل
عنه . كلما قيل لي إنها لم تترك غرفتها . وسمحت لها أن تدعوني إليها ، إذا لزم
سريرها لتسريح من تعب ألم بها . وكنت أحد عندها أحياناً من أصحابها
من تسلي محدثهم وحديثها . وقد سألتني يوماً أن أدعور ورجي معي . ليعودها
وليصف لها دواءها . وكان روجي يصحني بعد ذلك أحياناً إليها . وإن لم تكن
في حاجة إلى طبه وعلاجه .

وكانت هذه السيدة تزين في سريرها أجمل زينة وأبرعها . ولست أبالغ
إذا أقول إنها كانت أكثر عناية بزينة سريرها منها بزينة خروجها وزهتها . .
وكانت ملابس سريرها آتة في الجمال وحسن الدوق . . كانت قمصان نومها
من حرير رقيق مطرز بأبداع تطريز . وكانت ألوان هذه القمصان هادئة ،
سماوية أو وردية أو بنفسجية أو ما إليها ، خلا قميصاً أحمر قانياً كانت تلبسه
أحياناً ، وقد سألتها يوماً عن تباين هذا القميص القاني مع سائر لباسها
فقلت : « إنما ألبسه حين يدمى قلبي ليعبر بلونه عن دخيلة نفسي » .
وكانت كثيراً ما تضع على رأسها لباساً ينسجم مع لون وجهها ، ولون قميصها ،
ويظهرها في براءة الطفل المدلل ويزيدها بذلك إغراء وقتة .

وكن أحب لي هذه السيدة كل شيء إلا حبها الشراب وإن قل ما رأيتها
متأثرة به ، فقد كانت إذا تنصف الليل لا تطيق صبراً على كثرت تحتسبها ،
ولو كانت في سرير نومها ، وقد دعنتني غير مرة لمشاركتها في شرابها فاعتذرت
ولم أقبل . وكانت إذا أطلق الشراب لسانها تروي من هموم حياتها ما يثير
الشفقة بها . هذا مع أنها كانت تنفق عن سعة تشهد بوسع ثرائها ، وبأن

المال وحده لا يديب المصوم ، ولا يكفل السعادة .

وكانت هذه السيدة تعرف من دقائق الجمال الذى تترين به الطبيعة فى أرجاء أوروبا المختلفة ما لا يعرفه إلا الأقلون . وقد أشارت علينا بجولات فى أرجاء النمسا وشمال إيطاليا وفى بلاد الشمال الأوروبى لم نستطع ذلك الصيف أن نتمها جميعاً ، ولكن متاعنا بنا رأيتنا نناق كل ما كنت أتصور . فلما كنا فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر عدنا إلى القاهرة ، وأنا أحسب لانتقالنا إلى منزلنا الجديد ألف حساب

ونزلنا القاهرة فإذا بالإصلاح المطلوب فى المنزل لم يتم كله ، وإذا ما تم منه لا يعجبنى ، وأبدت رأى فى ذلك بطريقة أغضببت الصديق الذى تولى الإشراف على الإصلاح فى غيابنا ، وقد كان يتوقع أن نشكره لا أن تلومه ، وأدى به الغضب إلى الإقلال من التردد علينا . وساء زوجى غضبه وانقطاعه ، لكن رأى فى الأمر كان حاسماً . . .

قال زوجى :

« وما العمل الآن ؟ . . إن منزلنا الأول قد سكنه مستأجروه الجدد ، وأنا أنا كما تعلمين مودع فى مخازنه » .

قلت :

« ذلك شأنك ، فإن شئت بحثنا عن مسكن آخر ، وإن شئت نزلنا فى الفندق حتى يتم إصلاح هذه الدار التى استأجرناها » . . .

فذهب إلى النائرة المؤجرة ، ثم عاد يقول :

« بهم وعدنى أن يتم الإصلاح فى شهر ، فلا حاجة بنا إلى البحث عن

مترج جديد . وقد اتفقت مع إداوة « منا هاوس » لنقيم فيه ريثما يتم الإصلاح .
 واغتبطت بما سمعت ، ونزلنا « منا هاوس » . وكم سعدت بأيام مقامي
 هناك ، وإن شئت بعد ذلك بمعقياتها . كان زوجي يستيقظ مبكراً ويتناول
 فطوره في غرفة الطعام ، ويذهب إلى عمله ، فإذا أردت الذهاب إلى المدينة
 لبعض شئ أو لأرى ما تم في منزلنا الجديد طلبت السيارة فأقلنتني إلى حيث
 أشاء ، ثم عدت بها مع زوجي إلى الفندق . وكنت قلما أغادر « منا هاوس »
 بعد الظهر ، إلا أن نجيب دعوة إلى الشاي أو العشاء في المدينة . وكان كثير من
 من أصدقائنا يزوروننا بالفندق . وكنت أشعر في بعض الأيام بالتعب ،
 فلا أرى بأساً من أن أستقبل في غرفة نومي أية صديقة نحضر لزيارتي ، فإذا
 كان معها زوجها لم أربأساً بأن يصحبها إلى غرفة النوم . واضطر زوجي إلى
 قبول هذا الوضع حين ذكرته بأنه كان بصحفي أحياناً في زيارة الأمريكية
 ونحن في أوروبا . واقتضاني هذا الوضع أن أحاكي الأمريكية في زينة
 سريري ، وقد جعلت من غرفة نومي بهو استقبال يحضر إليه الرجال مع
 زوجاتهم ، وإن لم أكن قد تسامحت بعد في أن يصعد إليه الرجال وحدهم .
 وكان الإصلاح يسير في منزلنا الجديد ببطء شديد ، ولعل كنت مسئولة
 بعض الشيء عن هذا البطء ، وقد تخطت مسئوليتي البطء إلى نفقات الإصلاح .
 ذلك أتى قلوت أن هذا المنزل سيكون مسكناً لنا سنوات عدة ، ويجب لذلك
 أن يبلغ الإصلاح غاية ما يرضينا ، لذا كنت لا أقر الكثير مما قاموا به وسعوه
 إصلاحاً ، وكنت أطلب إعادة العمل على الوجه الذي أُسريح له . فإذا
 قيل لي إن الدائرة لا يمكن أن تتكفل بهذا ، قلت :

« لا بهم ، نفقروا ما أطلب على نفقتنا » .

وتحدث إلى زوجي يوماً أنا ندفع أجر المنزل من أول أكتوبر ، أى منذ
عدنا من أورما ، وندفع أجر الفندق وملحقاته ، وندفع نفقة ما أطلب من
إصلاح لا تلتزم اللاتر به ، وأن في ذلك إرهاقاً لنا طال أمده .
قلب :

« فم إذن كان تفكيرك في انتقالنا إلى مسكن جديد إذا كان هذا الممكن
لا يرضى خوفاً ؟ لقد كان خيراً لو بقينا في مسكننا القديم إذا لم نشر
نحن ، ولم يشعر الناس جميعاً بالفارق الكبير بين السكين ، وسيم الإصلاح
عما قريب وتنتهى نفقاته ونفقات الفندق وينتفى بذلك ما نشكونه » .
وسكت زوجي ولم يعقب بكلمة . ويومئذ شعرت بأنه رجل عاجز الحيلة ،
فليس يضيق بأمر المال في رأيي إلا الذين يعوزهم الإقدام ، فإن من معارفنا
من كانوا يتطلعون إلينا أول زواجنا على أننا من الأغنياء واسعى الثراء ،
ثم إذا هؤلاء المعارف أصبحوا بإقدامهم من أصحاب الألف ، بل من
أصحاب الملايين ، والعجز عن الإقدام نقص وأي نقص .

لم يعقب زوجي بكلمة على مراجعتي في هذا الأمر ، ولم يفانحنى من
بعد فيه . ولعله استشف ما دار في خاطري أو شعر من ناسيتي بأنى لست راضية
عنه كل الرضا على نحو ما عودته ، فقد رأيته مشغول البال ، بآدى أهم ،
كثير الأرق ، وإن لم يتغير في صلته بي عما عودته من مودتي والاستجابة لكل
رغباتي ، وهو لم يكن يستطيع أن يتغير ، فقد كان يحبنى . وكان يخشى أن
تغير أنا عليه بعد الذى رآه من إعجاب المعجيين بي وإذعانهم لسلطان

جاذبتني وسحر حديثي . والواقع أنني شعرت بعد الذي رأيته من همه وأدبه .
بأنى أبلغ في محبتي وإكباري إياه ، لأنه لا يجاري في طموحي ولا يحاول
أن يصعد بي ومعى إلى الصف الأول من صفوف الحياة في مصر .

وتمت الإصلاحات و منزلنا الجديد وانتقلنا إليه ، وإن بقيت فيه
أشياء لم تل كل رضاي ، وأردت لمناسبة هذا الانتقال أن أقم حفلة ساهرة
كبيرة . فاعترض زوجي بأن مألوف عاداتنا المصرية لا يسمح مثل هذه
الحفلات ، واقترح إن شئت أن أقم حفلة شاي يتحقق بها غرضي ورأيت
حفلة الشاي دون ما ترضاه نفسي فأبيت ولم أقم أيًا من الحفلاتين ، وكذلك
نم انتقالنا في صمت جنائزي ، كما أنني لم أستطع أن أبلغ كل ما أريد
من تجديد أثاثنا ليتسجم على ما أريد مع الدار الجديدة بعد إصلاحها .

على أنني عانيت بتأثيث غرفة النوم عنائي بزييتي في سريري ، فقد
أدركت إبان مقامي بالفندق ما لهذه الغرفة من سحر وصاحبها في سريرها ،
وفهمت لماذا كانت صاحبتنا الأمريكية في أوروبا تؤثرها على كل ما سواها
من أهواء الفندق الفخم وصلاته ، واصطناع المرح أو التعب الذي يلزم
الإنسان سريريه لا يشق على امرأة ، هما عندها كالدموع تلبس بها قلب الرجل ،
وتكسب بها عطفه ومودته . وغرفة النوم أشد إثارة لطلعة السيدات وأدعى
لترثرهن من غرفة الاستقبال ومن كل غرفة أخرى في المنزل .

وقد أَرْضاني أثاث هذه الغرفة بعد تمامه ، وكان زوجي أشد سحرًا به
لأنه كان أعلم بأسراره إذ ذاك من كل من سواه .

وكانت كل واحدة من صديقاتي تزور هذه الغرفة تبدي من الإعجاب بها

ما يزيد رضاي عنها ، أما أزواج صديقاتي الذين كانوا يصحبون ، فكان
نظرم يندور في أرجاء الغرفة دورة خاطفة - ليستقر آخر الأمر على السرير
وزيته -

كان الصديق الذي عهد إليه زوجي بالإشراف على إصلاح المنزل في
أثناء غيابنا في أوروبا ، والذي انقطع عنا أوكاد حين عرف رأيي في الإصلاح
الذي تم بإشرافه ، قد بالغ في انقطاعه منذ انتقلنا إلى المنزل ، فلم يحضر إلينا
فيه إلا في زيارة تقليدية تهنئتنا بالانتقال ، وكان هذا الصديق غير متزوج ،
وكان يعلبه سريماً إلى دفع الكلفة كثير فلتات اللسان ، وكان ما بينه وبين
زوجي من صداقة قديمة وود متصل قد جعل زوجي يضيق بانقطاعه عنا
وعدم تردده علينا ، وقد قال لي يوماً وكأنه يعاتبني :

« لقد أوحشني انقطاعه عن ريارتنا ، ولم تحسني أنت جزاءه عن إشرافه
على الإصلاح للمنزل في أثناء غيابنا ، ولعله يخشى أن يسوءك مجيئه إلينا » .
قلت :

« عجباً لكما أنت وهو ، إني لم أزد على إبداء رأيي في الإصلاح الذي
تم في غيابنا ، ولم يدبر بخاطري أن يستاء صديقنا من هذا الرأي حتى يتقطع
عنا ، وإنه ليسرني أن يعود إلى سابق مودته ، وليسرني أن يبدي رأيه في المنزل
بعد إصلاحه الأخير ، وتستطيع أن تؤكد له أنني لن أضيق بملاحظاته
ولن أغضب منه إذا أبدى من التقدير أشده ، فالأفواق تختلف ولا يدل
اختلافها على شيء سوء صاحب هذا الرأي أو ذاك » .

وألح زوجي على صديقه فجاء يوماً معه ، فلما فرغ من شرب القهوة

قلت له :

« الآن تفضل وحر في أرجاء المنزل وقل لي رأيك في صراحة في إصلاحه » .
قال في تهكم : « وهل لمثل أن يبدي رأيه فيما يتم بإشرافك أنت يا صاحبة
الدوق السليم » .

قلت :

« لا يسوقني أن تهكم في ولا أن تنتقد عملي ، ولكنني حريصة على أن
أعرف رأيك » ، فقام بعد تمنع ودارسى في أرجاء المنزل ، فلما أتم زيارة
الطابق الأول قال : « وهل كانت الدائرة تسمح لي بأن أنفق ما أنفقتم أنتم
ليبلغ الإصلاح هذا المدى ؟ ! . . . والآن أفهم شكوى زوجك من باهظ
التفقة ، أنت جارة لا تحافين الله ، لقد كان خيراً بدل أن بعثت ما بعثت في
إصلاح هذا المنزل أن تشتروا منزلاً جديداً بيني لكم ولأولادكم من بعدكم ! . . . »
قلت مبتسمة : « لعلك قلت هذا الكلام لزوجي فكان ذلك سبب تغيره
عليَّ ؟ ! » .

فنظر إلي نظرة خبيثة ، وقال :

« زوجك يستطيع أن يتغير عليك ! . . . مسكين هذا الرجل ، لقد
كبتك من عنقه ومن يديه ومن رجله فأصبح لا يستطيع حراكاً أمامك ، إنه
يوم حدثتني في شأن الإصلاح ، وما أنفقت فيه استعطفتني بقبر أبي ألا أذكر
من حديثه حرفاً : ولولا غيظي منك لبروت برعدي له » .

قلت :

« ألا تصعد إلى الطابق العلوي ؟ لقد عانيت به أكثر من عاتبي بهذا

الطابق الذى يزورنا الناس فيه ، فالطابق العلوى هو عشنا الحقيقى ، هو
سكننا بالليل ، والجانب الأكبر من النهار ، هو ملجئنا من أعين الناس
ومصوبهم ، ولهذا أخالف الذين يبدلون النفقة إرضاء للناس وخوفاً من الشتم
ولا يبدلونها إرضاء لأنفسهم ومتاعاً بحياتهم . . .

قال : « ألم أقل إنك جبار لا تخافين الله ، إذا كانت نفقة هذا
الطابق قد بلغت ما أرى ، وكنت قد ضاعفت العناية بالطابق الأعلى
فأى نفقة كلفتكم هذه العناية ؟ » . .

قلت : « دعك الآن من النفقة وقل لى رأيك فى الإصلاح ؟ » . .
وصعد معى إلى الطابق الثانى فلما دخل غرفة النوم الفسيحة ، ودار بنظرة فى
أرجائها فتح عينيه واسمعتين وقال :

« هذه غرفتك أنت أم غرفة مدام ركابيه ؟ أقسم أن غرفة
« زبيدة » للملكة زوج « هارون الرشيد » لم تكن فى جمال غرفتك
هذه وإبداعها . . الآن أعترف أن ذوقك لا يعلوه ذوق ، ولو أن الأقدار
كانت منصفة لوجب أن تكونى من أصحاب الملايين ، حتى لا يقف فى
سبيل ذوقك الجميل عائق » ! . . قلت فيما بينى وبين نفسى : « ترى ماذا
عساه كان يقول لو أنه دخل هذه الغرفة ، وأنا فى زينة سربرى » ! . . وشرد
ذهنى لحظة حين كان هو يتفقد كل قطعة من قطع الغرفة ، ويقف أمامها
هنية ، فلما عاد إلى ناحية الباب حيث كنت أقف قال :

« كل ما هنا بديع بارع ، لكن هذا لا يمنعنى من أن أقول لك إنك
ظلمت زوجك فى النفقة ظلم الحسن والحسين » ! . .

ضقت ذرعاً بتكراره عبارة النفقة وظلّنى زوجى ، فقلت :

« وهل يصيق بأمور المال رجل ذو همة وذكاء ؟ ! .. إنما يقعد العجز بصاحبه عن الإقدام لبلوغ ما يريد ! .. وهل أمطرت السماء ذهباً على من تعرف ممن جمسوا مئات الألوف بل الملايين ، أم أن إقدامهم وحسن حياتهم هما اللذان نصباً للمال شباكاً فصادته ، وكانوا قبل ذلك فقراء لم يرثوا عن أهلهم ما ورث زوجى عن أبيه ، معذرة عن كلامى هذا ، لكنك أكثر الحديث عن النفقة وإسرافى فيها ، وقد حملت ما قلته أول الأمر ، على أنه اعتذار عن عدم بلوغ الإصلاح ما يرضينى حين إشرافك عليه . . أما الآن فأنى أشعر أن زوجى يكرر عليك الكلام فيه وكأنه يوجه إلى الاتهام بشأنه ، وأنا إنما أردت أن يعيش كما يجب أن يعيش ، فإن كنت أسرفت فى حسن قلنى به فاستغفره لى وقل له إنى نبت لعله يقبل توبتى ! ! .

قلت هذا الكلام فى حدة روعت الرجل فقال :

« مهلاً مهلاً ! .. لا تسرفى فى التشريب على الرجل إلى حد اتهامه بالضعف والعجز . . إن أولئك الذين تذكرين ممن تصيدوا الملايين لم يتصيدوها فى عام ولا فى بضعة أعوام ، وزوجك اليوم أعمت تفكيراً فى التحايل على المال منه فى الغضب منك أو فى اتهامك . . إنه يريد إرضاءك . . إرضاءك بكل وسيلة لا تخش شرفه ولا تودى سمعته بين الناس . ولست أدرى أيستطيع إنسان أن يجمع بين المال والشرف وحسن السمعة ؟ . . لكن تصيد للمال هو ما يشغل زوجك الآن إرضاء لطموحك . ولعلّ لو كنت مكانه لما صنعت صنيعه ، ولوقفت فى طريق اندفاعك إبقاء على نفسى من الاتزلاق فى سبيل لا يقامر

بالانزلاق إليها إلا الذين لا يهتمون بشيء ، فإن تحقق ما غامروا في سبيله ارتفعوا
بشرتهم إلى السماء ، وإن لم يتحقق ظلوا في القاع الذي يحاولون الخروج منه .
وتحسبنا كلانا أن يسرقنا الوقت إلى ما نثير هواجس زوجي من بطئنا ،
فلما رآه صديقنا قال له :

« هنيئاً لك يا صديقي هذا المنزل الفخم ، بل القصر المنيق ، لم أكن أتصور أن
يخلق الإصلاح من تلك الدار التي رأيت أول الصيف هذه الصحة التي أرى الآن ! »
ثم التفت إلي وقال :

« وأنا أهتلك يا سيدى ، لقد منح إعجابى بذوقك كل غضب آثاره
في نفسى عديم رضاك عن إشرافى ، وهو إعجاب لا حد له ، ولو أن أصحاب
هذه الدار كانوا أهل ذوق ومروءة لاحتملوا نفقات هذا الإصلاح كلها .
وأنا مستعد لأن أحاطبهم في ذلك وأحملهم ما أستطيع منها إذا لم يكن لكما على
تدخلى اعتراض ! »

وشكرناه وقلنا له إنا لا اعتراض لنا على تدخله . والعجب أنه لم يمس
على حديثنا في الأمر غير ثلاثة أيام ثم إذا هو يحمل إلينا النبا بأن الدائرة قبلت
أن تتحمل نصف ما أضيف علينا من نفقات الإصلاح . وشعرت كأن زوجي
انتشل من هذه لسماع هذا النبا السار ، واغتبطت أنا كذلك ، ولكن هذه
الفرحة التي بدت على زوجي جعلتني أشفق عليه لمعجزه عن أن يفعل ما فعله
صديقنا ، ويحمل الدائرة على ما حملها هذا الصديق عليه ، وكان هو آخرى
بهذا وهو صاحب الشأن الأول والمصلحة المباشرة . ولو أنه فعل لرفع عن
عائقه هما وارقاً كاد أثرهما يسىء إلى صحته . »

وعاد صديقنا سيرته الأولى إلى مودتنا والتردد علينا ، وعاد يعاين روجي
مفلاتات لسانه . . ويعاين أحياناً كذلك ، ولم يكن روجي يحجب معايشه
إلا بالسخر منه وعدم الاكتراث لعبه ، وكان هذا الموقف وذلك من جانب
الرجلين طبيعياً . ولكم صجبت كيف جمعت الصداقة بين طعين مختلفين هذا
الاختلاف ، فزوجي دزين شديد الاتزان يقدر كل كلمة يقولها ويألف في
احترام الناس احتراماً لنفسه ، وصديقنا على التقيض يلقى الكلام جزافاً ولا يعبأ
بمظاهر الاحترام ، وزوجي شديد الحياء إلى حد أصبح به أحياناً ، وصديقنا
يجد الحياء سخفاً لا معنى له ، وزوجي ودود متخفف مع ذلك في وده ،
وصديقنا مسرف في الود مريح مع ذلك إلى المناخبة ، ولكن صداقة الرجلين
اتصلت منذ كانوا طالين معا في المدرسة الثانوية ، وصداقة الصبا قل أن
يعتد عليها الزمان وإن أمكن أن يعتد عليها النسان . . .

وكان صديقنا يعرف صديقتي التي مات زوجها منذ عامين فقطع أهله
في تركته ومنعها وذريتها الصغار من الاستيلاء عليها أو على إيرادها . وكان
صديقنا كذلك صديقاً لزوجها ولأمها ، وكان فيها يميل إلى معجباً بجمالها
ويطبعها ، وقد كان زوجها شديد الغيرة عليها ، وكان يعرف في طبعها خفة
لا تؤدي وفاءها وعفتها ، ولكن تؤدي غيرته ، ولذلك انتقل بها إلى الضواحي
وسكن معها فيها ومنعها من أن تنزل إلى المدينة إلا بإذنه وفي رفقته ، فلما مات
عادت إلى القاهرة وأظهرت من الحزن عليه ما رق له قلب صديقنا وفاء للزوج
المتوفى ، وإعجاباً بالزوج الأرملة . ولقد عرف بعد قليل ما تضطرب فيه
هذه الزوج الأرملة من مشاكل ميراث مع أهل زوجها لا قبل لها وحدها

ببطلها . فتبرع مشكوراً لمعاونتها واضطر من أجل ذلك أن يكثر التردد عليها .
واقضت هذه المشاكل مشورة طبيب فأشرك صديقتنا زوجي معه في مهمته .
ولم يبد زوجي بادی الأمر حماسة لهذه المعاونة لولا أن دفعته أنا إليها .
وقد أدهشني بباطوه عن المباحرة إلى عمل إنساني يثق مع طيبة قلبه وحب الخير
للناس ، وزادني دهشة أنه كان يعرف صديقتي في حياة زوجها ، وكان يتردد
عليها لعيادتها ، ولعيادة أطفالها ، ثم كان يحدثني عنها حديثه عن أي مريض
أو مريضة يعود أو يعودها ، ولم يبد من مظاهر الإعجاب بحماها ما يريى . .
لكنه لم يلبث بعد حين من مشاركته صديقتنا في معاونتها أن ازدادت حماسه
لهذه المعاونة ، حتى بلغت أشدها ، وأن صار يتحدث عنها وكأنه يقوم بعمل
يمس قلبه بل يحركه . . فإذا حدث ؟ . . أترأه أذعن لفتتها فصار يبدى
لميراث أبنائها كل هذه الحماسة ؟ ثم إنه أخذ يتردد عليها في بيت أمها
المجوز الشمطاء ، وهي في غير حاجة إلى طبه وعلاجه ، فهل تراها تنصب له
شباكه ليوقع في حبالها ؟ . هتالك بدأت الغيرة تدب في صدري ، وإن
حرصت على ألا يبدو من أثرها أي مظهر ، وبدأت أفكر كيف أستعيد هذا
الرجل خالصاً لي كما كان . . .

ولم يكن دافعي إلى هذا التفكير محبتي إياه ، بقدر ما كان الدافع إليه
عبرتي وفجوري من أن تأخذ امرأة مني رجلاً ملكته يدي وأصبح طوع يميني ،
فصار لا يستطيع حراكاً بغير إرادتي ! . .

واستخلصت صديقتي ميراثها بمعونة زوجي ومعونة صديقتنا ، وأصبحت
بذلك في سعة تسمح لها أن تنهض بحياتها وحياة أولادها في رخاء ونعمة .

عاشت في مسكن اختارته لنفسها ، ولم يكفها أن تذهب إلى الأقصر في الشتاء لترتها ، بل كانت تصطاف في أوروبا وتغضي في ربوعها شهور متاع ومرح وسرة .

ولم ينقطع زوجي عن التردد عليها بعد أن استخلصت ميراثها ، ولم تنقطع هي عن زيارتنا برغم قلة زيارتي بيتها . . وكانت غيرتي تزداد لذلك خراباً ، وكنت أوميء إلى زوجي أن الناس يتحدثون في تردده عليها ، فلا يأبه لهذا التلميح ، مكفياً بقوله : « ما دمت واثقة بي مطمئنة إلى فإن كلام الناس لا يعني » . وكانت كبيراتي تأتي عليّ حين أسمع منه هذا القول أن أخبره بمكتون صديري ، وإن استبد بي التفكير في النماس الوسيلة للتخلص من هذه المرأة ومن تردد زوجي عليها . وإني لأقلب هذا الأمر على وجهه إذ أخبرني زوجي أن الألماني الذي عرفنا في الأقصر قد جاء إلى القاهرة ، وأنه تحدث إليه بالتليفون ، وأنه دعاه لتناول الشاي معنا . قلت : « إذن فادع صديقنا لنحدث التعارف بينهما ، وإذا لم يكن لديك مانع فادع كذلك صديقتي فإنه يسرها لا ريب لقاء الألماني بالقاهرة ، بعد أن تلاقيا طويلاً بالأقصر . . » ولم يجد زوجي بأساً بدعونهما فكادت أظير من القرح مؤمنة بأن الحظ الذي جاء بالألماني إلى القاهرة في هذا الوقت لا بد مسعدي في تفكيرى . . .

وستمخض هذه المصادفة الطيبة عن نتائج أرضاها .

وجاء المدعون ساعة الشاي ، وأقبل عليّ الألماني يحييني ومكاد عيناه لا تنظران إلى غيري ، وكانت أولى عبارة قالها : « لم لم تحضري إلى الأقصر هذا العام يا سبلى ؟ . . إن جميع معارفك والمجيين بك كانوا يسألون

عن موعد مجيئك بشغف ليس كمثله شغف ! . . . سلى صديقتك . لقد
عرفت من ذلك ما عرفت . . . وأظنها أبلغتك بحياتهم واحتراماتهم ! . . .
لم يثر هذا الكلام من صديقتي أى صدى ، بل تشاغلت عن الإصغاء
إليه بالحديث إلى زوجي وإلى صديقتا ، وزادنى ذلك إقبالا على الألمانى ،
وترحيباً به ، وعملا على أن أصل الحديث بينه وبين سائر الحاضرين .
لم توجه صديقتى إلى الألمانى فى أثناء الشاى إلا كلمات متقطعة . لكنها
كانت المودة مع زوجى كل المودة . وكانت تلهم صديقتنا بعينها التهاماً ،
وتكاد تأكله بهما أكلا . وكان صديقنا يجاهد لكى لا يغيب عنا مسحوراً
بهاذين العبين الفاتسين ، زانهما حور زاده الكحل الرقيق سحراً وزاد صاحبه
لغته ، وكانت صديقتى تعرف سحر عينيها وتعرف كيف تزيد نظراتهما فتنة
وسحراً ، ومع ذلك جرى الألمانى صدها عنه بالإقبال على وتوجيه الحديث
كله إلى إلا عبارات كان يبعثها هنا وهناك حتى لا يحسب زوجى أو صديقتنا
أنه نسيهما لفرط اشتغاله به .

فلما فرغنا من الشاى قلت : « ألا تريد أن نزل إلى الحديقة ؟ » . . .
قال : بكل سرور ، فدعوت صديقتنا ونخطيت مع الرجلين غرف الطابق
الأول ونزلنا من السلم الخلقى إلى حديقة الدار . أما صديقتى فقد اعتفرت
وآثرت المكث حيث هى ، واضطر زوجى للبقاء فى صحبتها . ولم تطل
دورتنا فى الحديقة ، فلما عدنا منها قال الألمانى موجهاً الكلام إلى زوجى .
« ما أجمل داركما ! . . . إن براعة اللوق فى نظامها وتنسيقها لتتفق بأن
السيدة قد بثت فيها من روحها بعض ما تتطوى عليه من تناسق وجمال . . . »

وشكره زوجي . ثم ودعنا ضيوفنا وأوصلناهم إلى الباب الخارجي .
فلما خلوت إلى زوجي قلت له : « ما وأبك في أن تدعو الرجل للعشاء
غداً ؟ » إنه ينزل فندق الكونتنتال . وليس أيسر من أن تحادثه بكرة الصباح
تليفونيا . وما أحسبه إلا قابلاً دعوتنا . . . وأجاب زوجي في هدوء مصطنع
لا يتفق مع ألفاظ عبارته : « ألم يكفك أني دعوتك اليوم للشاي إرضاء لك :
أنت تعلمين ، كما أعلم أنه لم يخاطبني في التليفون حين جاء إلى القاهرة ، حرصاً
على مقابلي . بل حرصاً على مقابلتك أنت ، فإذا دعوتاه للعشاء غداً أثار
ذلك حديث أصدقائنا حولنا . ولا أحسك تغتبطين بأن يذاع هذا
الحديث ! . . . »

قلب وأنا أكظم في نفسي سروراً كادت تلمع به عيناى : « وماذا عسى
يستطيعون أن يقولوا ؟ . . . هذا رجل سافر بعد غد إلى بلاده في أوروبا ،
ليقيم بها ستة أشهر أو تزيد . وقد أكرمتني في الأقصر العامين الماضيين ،
فلا عجب أن تكرمه بمناسبة مروره بالقاهرة . . . وأنا مع ذلك لا ألع عليك
في دعوتك . وإن كنت أعجب لكلامك عن حديث الناس وكأنهم لا يتكلمون
اليوم عنا لمبالغتك في العناية بصديقتي ، ولو أنك عرفت ما يقولون لما ذكرت
حديثهم في دعوة بريئة لرجل أكرمتنا من قبل ، وأكررتني لا ألع في دعوتك ،
بل أعتذر إليك وأرجوك أن تنسى أني طلبتها ! »

وتلجلج زوجي حين سمع هذا الكلام وكأنما طعته في صدره ، فوجم
هيبه ، ثم قال : « يغفر الله للذين يتحدثون عني . . . إنما دفعتني للعناية
التي تذكرين عاطفة بيعة لأطفال ما أخرجهم إلى ميراث أبيهم ، وللعطف

عليه . أما أمهم فلا شأن لي بها . ولا شأن لها بي إلا أن تشكرني على العناية
بأطفالها . وصديقتنا هو المعنى الأول بالأمر . وهو الذي يحفزني كلما طن
أني بحاجة إلى حافز لمضاعفة عابتي . وقد لا تعلمين أن صديقتنا يفكر في
الزواج من هذه السيدة ، أو أنها هي التي تفكر في الزواج منه .

كنت أسمع أحاديث عن هذا الزواج وكنت في ريب منها ، فلما أكلتها
زوجي كنت كس فوجئ بها ، والعجيب أني شعرت حين تحققت منها كأن
صديقتي تخونني . وفكرت لذلك في إفساد ذلك الزواج الذي نعترم . كيف
ننت هذا الشعور في نفسي وصديقتي مخلصه في مودتها لنا ، ولا جناح عليها
وهي أرملة أن تفكر في الزواج ، ولا حق لي وأنا متروجة أن ألومها فيه ؟ . .
ولم أكن أحسب أن بيني وبين صديقتنا عاطفة تسوغ مثل هذا الشعور ! . .
لا جواب على هذه الأسئلة ، ولكن ذلك ما حدث . . وسرعان ما ترعرع
هذا الثبث فحرك شجوني وأنساني الألماني ، وأنساني زوجي ، وأنساني حديث
الناس ، وجعلني لا أعني بشيء إلا بإفساد هذا الزواج ! . .

ولطالما فكرت من بعد : أي داع دفع هذا العزم إلى نفسي ؟ . . وكل
ما اهتمت إليه بعد طول البحث والتحليل أقي كنت أجد في زيارات صديقتنا
وأحاديثه متعة أستمع بها على الملأ ، بل أسعد بها في الساعات الطويلة التي
كان العمل يشغل زوجي في أثنائها ، وأن عقلي الباطن أوحى إلي أن زواجه
بهذه المرأة سيشتغل عني ويأخذني ، ومن يدري ، فلعلها يوم تتروجه تجعل
من دارها قنوة يأوي إليها زوجي ثم بذلك عزلي ، ويصبح انتصار هذه
القائه اللعوب على حاسماً يحطم كبريائي وعمرغها في التراب ؟ . . فلما

إن استطعت إفساد هذا الزواج فسيفي صديقنا يؤنس وحلى . ويعد
المسرة إلى قلبي . وسأجد في أحاديثه مسلائي ، بل هنائي ، وسيفي منزلي
مقصده ومقصود زوجي ، هذا ما اعتديت إليه من بعد . تفسيراً لغزى على
إفساد هذا الزواج .

وأحكمت يومئذ تدبيرى . فلما رضت ولزمت سريرى ، وكنت إذا أصبحت
وخرج زوجى إلى عمله تزيت للسريز أجمل زينة وأشدها إغراء ، وبقيت به
طيلة النهار واستقبلت الزائرين وأزواجهن في غرفة نومى ، وجاعلى زوجى غداة
اعتكافى ، وأخبرنى أن صديقنا يستغفر عن صحفى . وأنه في بهو الاستقبال !..
قلت : لو أن صديقتى كانت هنا لما رأيت بأساً باستقبالهما في غرفة النوم
ما داما بعترمان الزواج .

ولم أعجب حين رأيت صديقتى تحبى الغداة ومعها صديقنا ، بحجة
أنها تريد محادثة زوجى في بعض الشؤون المتعلقة بأبنائها ، فلما خلا الجو
لصديقنا قال : « أشكرك على السماح بزيارتك وأنت في هذه الزينة الباردة ،
لقد ضاعف وجودك هنا من جمال هذه الغرفة ورادها سحرأ » . . قلت :
« دعك من هذا الحديث فأنا متعبة لا طاقة لى بساعه . وأين جمال هذه
الغرفة وساكنتها من جمال عروسك وسحر عينيها القاتنين ؟ . . فلا تكادان
تنظران إلى رجل حتى ينخر على قدميه ساجداً ! . . » وسكت لحظة ثم قلت :
« إنتى هلى التعب والمرض ، وأنا أشكرك لتفضلك بالسؤال عنى ! » قلت
هذا وصحبته بامتسامة حار في دلالتها ، أهى التهمك أم الصديق أم مجرد
الإغراء ؟ . . ونظر الرجل إلى بعينين واسعتين وقال : « يا ماكرة ! أمتعبة أنت

حَتَّى أَن تَرِيدِينَ أَن تَعْبِي مِنْ يَزُورُونَكَ هَـمَا لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْإِمْسَاكَ عَنْ
التَّفَكُّيرِ فِي صُورَتِكَ الْجَذَابَةِ ، وَفِي الْإِطَارِ الْبَدِيعِ الَّذِي أَحْطَتَ نَفْسُكَ بِهِ .
وَعَادَتِ صَدِيقَتِي فَأَمْسَكْنَا عَنِ الْكَلَامِ . عَلَى أَنَّ صَدِيقَتَنَا عَادَ الْغَدَاةَ
مَعَ زَوْجِي وَصَعِدَ مَعَهُ إِلَى غُرْفَةِ نِجَاسٍ ، وَقَدْ أَقْنَعَتْهُ سُرْعَتُهُ إِلَى رَفْعِ الْكَفَّةِ بِأَنَّهُ
لَمْ يَبْقَ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ زِيَارَتِي فِيهَا . وَابْتَسَمَتْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي لِتَنْجَاحِ الْخُطْوَةِ
الْأُولَى مِنْ تَحْطِئَتِي . فَلَوْلَا أَنِّي أَذْنَتُ بِصُعُودِهِ إِلَيَّ مَعَ صَدِيقَتِي لَبَقِيَ كَارِهًا فِي
تَحْفِظِهِ . وَرَأَيْتُ حِينَ دَخَلَ الْغُرْفَةَ فِي زِيَةِ غَيْرِ الَّتِي رَأَاهَا لِأَمْسِهِ . فَاتَهَرَّ فَرَصَهُ
خَرَجَ فِيهَا زَوْجِي لِبَعْضِ شَأْنِهِ وَقَالَ : « مَا أَجْمَلَ الْمَرَضَ فِي هَذَا السَّرِيرِ ! »
قُلْتُ : « وَمَا لَكَ أَنْتَ وَذَلِكَ وَأَنْتَ مُوشِكٌ أَنْ تَتَزَوَّجَ ؟ » . اسْتَحْضَرْتُ بِمِثْلِ هَذِهِ
التَّحِيَّاتِ لِنَقُولَهَا لِأَهْلِ بَيْتِكَ . . . مَتَعَكَ اللَّهُ فِي الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَسْطُرُكَ ،
وَأَرْجُو يَوْمَئِذٍ أَنْ تَسْبِيحَ هَذِهِ الْحَيَاةَ أَصْدَقَاءَكَ ! . . .

وَبَعْدَ هَذِهِ سَأَلْتُهُ : « مَا بِأَلِ صَدِيقَتِي لَمْ تَحْضُرْ مَعَهُ كَمَا فَعَلْتَ أَمْسَ
وَهِيَ تَعْلَمُ أَنِّي مُتَعَبَةٌ ؟ » . . . قَالَ : « مَرَرْتُ بِهَا فَالْقَيْتُهَا غَادِرَتْ مِزْطَاحًا ، وَلَمْ تَذْكُرْ
لِخَادِمِهَا أَبَانَ ذَهَبَتْ ، وَسَأَلْتُ عَنْهَا فِي بَيْتِ أَهْلِهَا فَلَمْ أَجِدْهَا هُنَاكَ ! . . .

كَانَتْ أَعْرِفُ فِي هَذِهِ الصَّدِيقَةِ خُفَّةَ تَسْبِيحٍ مَعَهَا أَنَّ تَصَحُّبَ الْمُعْجِبِينَ بِهَا
إِلَى تَزَاهَاتٍ خُلُوبِيَّةٍ ، وَكَانَتْ أَعْرِفُ مِنْ أَقَارِبِي شَابًّا جَمِيلَ الطَّلَعَةِ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهَا
مَسْحُورًا بِجَمَالِهَا وَبِفَتْنَةِ عَيْنَيْهَا ، وَقَدْ شَجَعَتْهُ هَذِهِ الْقُرَّةُ الْأَخِيرَةُ عَلَى مَصَاحَبَتِهَا .
وَعَلِمْتُ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنَّهُمَا سَيَخْرُجَانِ لِتَزَهَةِ عَلَى طَرِيقِ السُّوَيْسِ بَعْدَ مَصَرِ
الْجَدِيدَةِ ، فَأَوْحَيْتُ إِلَى صَدِيقَتَنَا أَنَّ يَذْهَبَ إِلَى هَذِهِ الْمُنْطَقَةِ فَإِذَا صَادَفَ
قَرِيبِي هُنَاكَ ، فَلْيَبْعَثْ بِهِ إِلَيَّ لِأَمْرِهِمْ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَحْدِثَ فِيهِ . وَلَمْ يَجِدْ صَدِيقِي

بعد زيارته الأخيرة إياي في غرفة نومي مفراً من أن ينزل على رغبتي . وبعد الغروب عاد إلى وعيناه تقدحان الشرر وهو يقول : « أهشك يا سيدى بنجاحك في إفساد هذا الزواج ، وأشكرك لقد رأيت قريبك مع صديقك داخل السيارة في جوف الصحراء وهما في وضع لا أستطيع أن أصفه ! » قلت : « هون عليك يا أخى ! . . . » . فقد حملني الوفاء لصداقتك على أن أتبع لك فرصة ليس يسيراً أن تتاح لإنسان . فإن كان قد ساءك ما فعلت فلي من حسن قصدي حذير ! . . . » قال : « ولكنك قاسية ، وكان حبك أن تبهني ، » قلت : « إني أردت أن ترى بعينك ما لا تستطيع أن تصدقه حين تسمعه ! » فأطرق إطراقة طويلة ثم ارتقى على مقعد ، وكأنما تفرقت في عينه دمة ، وقال : « شكراً لك أن أزلت عن ناظري غشاوة حجبت عني خطراً داهماً ! . . » وبعد برهة ودعني وانصرف !

أما صديقتي فلم تخاطبني ولم أخاطبها بعد ذلك اليوم ، ولم يكفها أن قاطعتني ، بل ذهبت تضيع في كل صالون ، وفي كل ناد ، وفي كل مجتمع في المدينة آلى أحب صديقنا ، وأتى أريد أن يطلقني زوجي لأتوجه ، وأن الغيرة دبت في نفسي منها منذ عني زوجي بشأنها وأهم بمراث أطلاقها ، وقد كان عذرها في مهاجمتي أنها تدافع عن نفسها ، فقد أخبرني قريبى الذى كان معها في السيارة في الصحراء أن صديقنا هاجأها وهو بمسك يدها بين يديه ، وهى ملقبة رأسها على كفه ، وأنها حين رأت صديقنا سحبت يدها من يديه وصفعت على وجهه قائلة : « أو بلغ من سفالتك أن تدبر مع قريبك هذا الموقف المشين يا نذل ! » وأقسمت أن لن ترانى ، وأنها ستفصحني .

وكان مما قالته له والسبارة تعود بهما أدراجهما : « لماذا تدلّيتم إلى هذا الحضيض يا أخط من خلق ، هل أخذت منها روجها ؟ . لقد كان في مقدوري أن أفعل .
 وأنا أجمل منها ألف مرة ، ولكنني حفظت عهد الصداقة ورحيت ما بيننا من خالص الود ، هل أخذت منها الألمانى في الأقصر . ولم تكن تراه إلا على مائدتي في « وشر بالاس » ؟ وإذا كانت تعشق هذا الذى كنت أريد أن أتزوج ف لماذا لم تخبرني ، فأدعه لها وألقيه صاغراً تحت أقدامها ؟ . .
 أم حسبت أنني أنافسيا في محبته فتآمرت معك هذه المؤامرة الدنيئة ! . .
 بد يكن ذلك ظنها فهي مخطئة . إنه رجل ماحس ولكنه أظهر صدق الإخلاص إثر وفاة زوجي ، وعمل جهده لمعاويتي على استخلاص ميراث أطفالي حتى استخلصه ، فقدرت له هذا الصنيع وأردت أن أجزيه عنه بالتزوج منه ، فإن كانت قريبتك قد ظنت رغبتى في التزوج منه عشقاً أوجباً فهي مخطئة ، وليس بين الرجال من يستحق في سنى أن أحبه ، وإن كان منهم من يستحق أن أحرمه ، ولست أتت ممن يستحقون الاحترام بعد أن انحدرت إلى هاوية المؤامرة التي انحدرت إليها . . . » .

قص على غريبى هذا كله غداة حديثه واشتد في لومى أن أوقفته هذا الموقف ، وطبأته بكلمات لم تزل غصيه ، ولم يرعنى هذا الغضب وأنا أحسب أني في أوج انتصاري ، لقد دبرت فتجع تلييري ، وكنت أعلم أن مجاحي معناه القطيعة الحاسمة بيني وبين صديقتي ، وأن تلييري لن يضير غريبى وهو شاب وسيم ومن حقه في نظر الناس جميعاً أن يخرج للترهة مع أى امرأة يقربها شبابه وجماله ، فلن يرعنى إذن أن يتبع عملى كل آثاره .

واقفت أيام انقطع صديقتا في أثالثها عن المجيء إلينا حتى حشيت
أن يكون قد خاصمني ، وإنتى لى بفرقة زيتى إذ دخل على زوجى متجهماً
صامتاً ، فسألته ما به ؟ فقال : إن صديقنا مريض تزلت به الحمى منذ
عادرني آخر مرة عائداً إلى منزله ، وأنه قص عليه ما كان بين صديقتى وقريبى ،
وأنه اليوم أحسن حالاً ، وسكت زوجى بعد ذلك طويلاً ثم قال : « وقد سأله
لم لم يدعى لعيادته لأول ما نزل به المرض ، فقال : إنه لم يرد إذعاجك ،
ولت أدري كيف سولت لك نفسك أن تقدمى على ما أقدمت عليه . »
قلت : « لقد كنت أحسبك أكثر وفاء لصديقك وأشد حرصاً على طمانيته في
حياته . . . » قال : « أوقاصر هولتصبي نفسك وصية عليه ! . . » قلت
وقد بدأ هدولى يزابلنى : « وهل يبلغ من حرصك على عواطف صديقتى وعلى
رفيق مزاجها أن تلومنى من أجلها . تروجها إذن أنت إن كانت قد قتلتك ! . .
لقد طالما خلشتى نفسى عن سر عتابك بشأنها ، وطالما حاولت أن أقنع نفسى
بأن إنسانيتك وطيبة قلبك وشفقتك على أطفالها هي مصدر هذه العناية . .
أما الآن فقد فضحت شرك واستبان لى خنى أمرك ! . . اذهب فترجها
أنت إن شئت . اذهب يا منافق ! . . »

قلت عبارتى الأخيرة في ثورة غضب حاولت أن أكتظها فلم أجمع .
وأبت كبريائى على أن أصبح لأنفسى عن نفسى ، واستلقيت منهدة في
مقعدى ، وانهمرت الدموع من عيني . وأخذت أبكى بكاء الطفل ، وأراد
زوجى أن يسكن روعى فدفعه عنى ملقية نظرى إلى الأرض ، لآنى كرهت
أن أرى وجهه . ووقف الرجل قبالتى وانتظر حتى هدأ روعى بعض الشيء ،

ثم نظر إلى نظرة إشفاف وقال : « أو لو كان بيني وبين صديقك من الود
ما تترعجين له . أفكنت أنظر مقتبضاً لزواج صديقنا بها . لينقطع الود بيني
وبينها . أم كنت أصبح صديقك فأفسد هذا الزواج لتخلص لي ١٤ . .
لقد كنت أحبك أوفر ذكاء من أن تفضل الغيرة الحمقاء بصيرتك .
وتدفعك إلى صنيع غير لائق بأمثالك ! . . . »

قلت وقد غالبت نفسي حتى ملكت ما استطعت روعي : « أنت تهم
ذكائي وتحسب حججك تقنعني ! . . كلا يا سيدي ، أنت تعلم كما أعلم
أنها إذا تم زواجها بصديقنا فسيفتح هذا اليت أمانها على مصراحيه ،
وسيكون لك من الحرية في استدامة ودنا أضعاف ما لك اليوم ، ولن أستطيع
أما يومئذ أن أقول شيئاً ، فتخير إن شئت حجة أخرى أجدر بقدرتك على
استنباط الحيل ! » قال وقد كاد يخرج عن طوره : « يا عجباً ! . . أوبلغ
من الحيلة أن يسلب رجل زوجة صديقه ، أو تسلب امرأة زوج صديقها .
ذلك أمر لا يمكن أن يدور بخاطري ، وأنت فوق ذلك تعلمين أن لك عندي
من المكافاة ما كنت أحبه يسمو عندي فوق كل شبهة ! . . لقد أصفيتك
وأصفيت أولادنا حبة قلبي ، فإن كنت في ريب من ذلك فالقنب ذنبك
لا ديني ! . . »

ثم إنه أخذ بمجامع يدي وجذبتني نحوه وضمني إليه ليسكن من تأثرتي ،
ولم أستطع إزاء عطفه ورقته أن أتابع المعركة ، وإن شعرت بأن شيئاً يستأ
قد تحطم ، وأن حياتنا الهائلة الهائلة قد أسدل عليها ستار كئيف ! . .
وبعد أيام جاعني صديقنا ، ولا تزال عليه آثار العلة ، فلما رأيته امتلأ قلبي

رحمة وشفقة ، وشعرت أني آمنت في حقّه ، فلما استقر به المجلس وتناول بعض المربطات قال : « جئت اليوم أسألك وأرجوك أن تحييني في صدق وصراحة ، إني أعرف صديقك منذ سنين ، وأعرف خفتها ، لكنني لم أعلم أن هذه الحكمة جنت قط على عفتها أو على وفائها لزوجها الأول ، فهل تستطيعين أن تذكرني لي بشرفك أنك تعلمين غير ما أعلم » ؟ . وأحسست من نبرة صوته أنه يريد أن يضعني موضع الاتهام فقلت : « وما شأنى أنا بهذا ؟ » . إني كنت تريد أن تتزوجها فقلت أنا التي أمنعك من زواجها ، إنما دفعني الوفاء لصداقتك لنا على أن أفتح عينيك على ما أعرف ، فإن لم تجد فيها رأيت ما يرييك فأنت أعلم بما يسرك وما يسوءك ، وأنا لا أعرف عن صديقتي أكثر مما تعرف أنت عنها ، وأنت كنت تعرف زوجها ولم أكن أعرفه ، وكنت تزوره يوم أسكنها الضواحي ولم أكن أرودها ، فلا نسلى عما لا علم لي به ، وأنت صاحب الشأن في زواجك منها بعد أن انقطعت صلتى بها . . . وتركتى صديقنا وخرجت تركتي خيرى أنعى ما فرحت به من نجاحي ، وأنعى إخفاقي المشين ، وأنعى ما تحطم بيني وبين زوجي ، وأنظر إلى المستقبل حين كلها اليأس والألمى . والحقيقة أني لم أكن أعلم عن صديقتي برغم خفتها ما يجرع عفتها . فأى شيطان دفعني إلى ما أقدمت عليه ، وما تفرمنى كل من أحب ، وضرب حول نطاقاً جعلني أدور حول نفسي في عزلي ، كما يدور الحيوان المقترس الحيس في قفصه ؟ ! . .

أولوتزوج صديقنا صديقتي برغم ما رأي فإذا يكون موافق منه ، ومنها ، ومن زوجي ؟ . . وإذا حدث ذلك ودعيت مع زوجي لحضور قرائتها فإذا

أستطيع أن أفعل ؟ . . أدعه يذهب وحده فيصدق الناس ما أذاعته من
أنى أحب زوجها ، وكنت أريد أن يطلقنى زوجى لأتزوجه ؟ . . أم أذهب
معه قطعاً لأغسنة الناس ؟ . . وإذا ذهبت فبأى وجه ألقاها ؟ مرت بخيال
أمثال هذه الأسئلة المحرجة حتى ضقت ذرعاً بها وحتى أظلمت الدنيا في
عيني .

وحب صديقتنا لم يتزوج فهل تظل صلته بي كسابق عهده في الأيام
الآخيرة إذ كان يروى في غرفة نومي وأنا في سريري ، أم تراه يتقضى عني
ولا يلتقاني إلا بحضور زوجي كما كانت الحال من قبل ؟ وبأى وجه
ألقى الناس في الحالى ، حال إقباله وحال إعراضه ؟ فهم لا ريب
سيقولون وسيعيدون ، ولن تفتأ صديقتي تدع ثم تدع لتجملتي أحلوة
للمجتمعات ، يتعربقستى المنتسرون ، ويرى لحالى الشامتون ، ويذهب من
شاء مذاهب أيسرها أن الحب والغيرة دفعاى لأزدرى ما تقضى به المروءة
وتفرضه الصداقة !

وعدت أسأل نفسي : « أى شيطان وسوس إلى ما أقدمت عليه ؟ فلو كنت
أحب صديقتنا حب غرام وعشق لكان حبي إياه عذيري عن مؤامرتي ،
أو لكنت التمسيت وسيلة أخرى لإرضاء حبي . ولكنى لا أحس نحوه بنار
الحب المحرقة التى تبيع لمن تحب أن تفعل ما فعلت . . إني أغتبط بمجلسه
وبحسن إصغائه ، لكنه ليس وحده الذى يتمتع عندي بهذه المترلة ، بل إن
غيره من أصدقائنا المهنيين المثقفين من أحب مجالستهم ، وأغتبط بإصغائهم
وإعجابهم بحدثنى ، وإن قلّ منهم من كان مثله كامل الرجولة ، جم الوفاء .

وإذا لم يكن حبي صديقنا حب غرام دافعي إلى فعلتي ، أفكانت غيرتي على زوجي ومخافتي أن تغصبه صديقتي مني هي هذا الدافع ؟ لقد ابتسمت ساخرة حين عرض لي هذا السؤال ، فزوجي آخر من تغار امرأة عليه . لقد تزوجته فراراً من زوج أبي ، ومن بيت أبي ، وتزوجته طقمة غريبة لا أعرف شاباً غيره ، فأصغيتته ودي ، وفتحته قلبي ، وشعرت بأنه يبادلني حباً بحب ووداً بود . وربما دام شعوري ذلك لو أن الدنيا بقيت كما كانت فلم أعرف رجلاً غيره . لكنني ما لبثت بعد سنوات قللائل أن رأيته يحيني بحكم الواجب لا من أعماق قلبه . ورأيت في طبيعتنا تفاوتاً يسأى في عنه ، فليس عنده من الطموح ما عندي ، وليست فيه رجولة العقل أو القلب ، أو أي من ألوان الرجولة التي تجعل المرأة تتعلق بالرجل وتبقى فيه . . . إنه طيب بالمع الطيبة ، فيه صفات رب الأسرة العطوف الذي يبذل غاية جهده لإرضاء أسرته ، لكنه ليس بالرجل الذي شير الغيرة لأنه لا يعرف الحب الذي لا يرضى بما دون قلب الحبيب وعقله وروحه وجسمه ليملكها جميعاً ملكاً تاماً مطلقاً ! . . .

ما الذي دفعني إذن إلى ما فعلت ؟ . . لا أدري ، وهأنذا أشعر الآن بأن حسرت المعركة وأضعت كل شيء ، أضعت حتى كرامتي وأذلت نفسي وكانت أعز من أن تنكح لإنسان ، وهأنذا أشعر بالعزلة وكأني من الحياة في سجن مظلم ، حتى أظلمالي أشعر حين أراهم أني غير جذيرة بأن أقبلهم ، لقد خاتني ذكائي فلم أقدر لكل هذه العوالب ، إنني تعسة وليس على الأرض امرأة أنعس مني .

واسبحشت حتى من نفسي فكنت إذا أقبل الصبح وخرج زوجي إلى



«الآن نخرج منها ونرى وقال : « ما أكمل المرض في هذا السرير »

عمله . خرجت أضرب في الأرض على غير هدى مخافة أن يسأل عني أحد معارفى بالتليفون ، أو يسألني من لا أعرف عما أجترحت ويؤنبني عليه ، فإذا كنت في الطريق ورأيت الناس وتعرضت لضجة الحياة عدت إلى نفسي بعض الشيء إبقاء على نفسي أن تدفعني سيارة ، أو يرتطم بي إنسان مشنت الذهن لأنه لا يجد قوت عياله ، أو آخر نزلت به كارثة اضطرب أمامها ولا يدري كيف يتخلص منها ، فإذا كان موعد الطعام رجعت إلى الدار أتي زوجي وأطلقني ، وأنا مضطربة الذهن خائفة القوى .

ودخل عليّ زوجي بعد أيام والتأثر بآد عليه وقال : « مسكين صديقنا ، لقد انتكس ولزم من جديد فراشه يعاني من الحمى أهوالا ، وقد دعاني صبح اليوم لميادته فلما ذهبت إليه وفحصته تولاني القلق عليه ، وأمره كل يوم مرتين لأرى أثر الدواء فيه ، والله يساعدي ! »

نزلت على هذه الكلمات نزول الصاعقة ، ألا لئن أصاب صديقنا مكروه لأكونن الآتمة الجانية ، وأردت أن أسأل زوجي عما إذا كانت حياته في خطر . فتلجلج لساني في فمي ، وعز عليّ أن يدور هذا الخاطر الأسود بخيالي ، فلما أُمسيت تولاني أرق اضطربت في أثناءه بين اليقظة والإغفاء ، فإذا أغفيت رأيت صديقنا ترعده الحمى وصعته بناديني . . . وحين بدت قياشير النهار هست من مرقدي كالمجنونة طائشة الصواب ، وحاولت جهدي ضبط أعصابي فإذا بي أرتعد . وكأن بي من الحمى ما بهلدا للرجل الذي جنب عليه . . واستيقظ زوجي وتناول فطوره وذهب إلى عمله وتركني مستلقية في غرفة أخرى وقد خيل إليّ حين دخل ورأني بهذه الصورة أتي أرقمت لي لي ثم نمت

وجه الصبح . وأن من الخير لذلك أن يدعني أستعيد بالثوم راحتي .
فلما استطعت أن أجمع قواي خرجت إلى الطريق هائمة على وجهي .
وجعلت أسير ثم أسير وأتلفت بين الحين والحين . مخسافة أن يراى
أحد معارفنا ، وكأني سجين هارب من سجنه . وطال لي السبر وأنا لا أعرف
لنفسى غاية أقصد إليها ، ورأيت نفسي بعد حين على مقربة من « كوبرى »
عباس . قلت إليه وسرت فوقه حتى توسطته . هنالك وقفت وأخذت أنظر
إلى صفحة الماء في النيل . . . أولو ألقيت بنفسى في النهر فأبطلتني لجهه ،
ألا تكون هذه الحاتمة خير جزاء لي ؟ . . . مر هذا الخاطر بذهني كلما سمع البصر ،
ثم استقر في رأسي لا يروحها . . . ولم أذكر لأول وهلة فجيحة أطلقالي بموتى ،
بل اعتبرته الوسيلة الوحيدة لنجائى من الهم المقيم الذى حتم على صلبرى منذ
انقلب على انتصارى ، وثبت نظرى على صفحة الماء فسحرت بها ولم أجده عن
إدامة النظر إليها منصرفاً ، وإبنى لكذلك تردد فكه الاشتجار تشبهاً بنفسى
إذا برق طيف الطفلى في خيالى ، وكأنا ينادينى : « بحماك يا أماء ! . . »
هنالك انهملت العبرات من مآقي وغامت الدنيا في عيني . واستندت يدي
إلى حاجز « الكوبرى » ولم أعد أرى شيئاً .

كم بقيت على هذه الحال ؟ . . ساعة أو أكثر أو أقل ! . . لا أدري !
وكل الذى شعرت به أن المارة كانوا ينظرون إلي ثم يتخطوننى لشأنهم .
ولا يعنهم أمرى . وإبنى لكذلك إذ وقفت إلى جانبي سيده ربت يديما
على كتي ، فشبعت فرقة فنظرت إليها فإذا هي زميلة قديمة من زميلات المدرسة ،
فلما استيفتها واستيقنتى قالت : « مالك يا حبيبتى وماذا يبكيك ؟ . . »

إنني لم أرك عند سنوات ، ولكني سرعان ما عرفتك . إنك لم تتغيري عما كنت عليه أيام المدرسة . . لماذا تبكين ؟ . . هوى عليك فالحياة أهون من أن تنزقي عليها دمة واحدة . . انظري إلى هؤلاء الذين يمرون الآن بنا ، أتحيينهم أسعد منك حالا ؟ بل أتحيينهم أقل مني ومنك هما وألأ ؟ . . إن منهم من لا يجد قوت يومه إلا يشق النفس ومنهم العاجز والمريض ، ومن أنقلته الأحزان والهموم . . نعم يا حبيبتى ! . . ومن نظر إلى بلوى الناس هانت عليه بلواه ، هوى عليك وكفكني عبراتك وتعالى معي ! . . .

قالت هذا الكلام ، ولم تنتظر منى جواباً ، بل جذبتني من يدي وصارت سرت أتبعها كأني طفلة ولا تكاد قدامي تحسلاقي . فلما جاوزنا الجسر إلى الطريق ، قالت : « أراك متعبة ، فخير أن نركب عربة أوصلك بها إلى متك تسريحين فيه ، ونادت سيارة وطلبت إلى أن ألقى إلى سائقها بعنوان منزلي ، وألقيت نفسي منقاداً لأوامرها كأني تلميذة من تلميذاتها ، فقد عرفت من حديثها أنها مدرسة ، وأنها مضطرة الساعة للذهاب إلى مدرستها ، ولولا ذلك لبيت معي حتى أسرد مكينتي . وألقيت إلى السائق بعنوان المنزل فلما كنا عند بابه نظرت زميلتي إليه ، ثم قالت : « أتسكنين هذا القصر ثم تبكين ؟ . . . »

وشكرتها من أعماق قلبي ، لا لأنها أنقذت حياتي ، بل لأنها ردتني إلى الطفلة الحرة . . قالت : « أسعدك الله بهما وأسعدهما بك » . وألقيت إلى السائق بعنوان مدرستها بعد أن اطمأنت إلى أنني دخلت المنزل ، وعبثاً حاولت من بعد أن أرى هذا الملاك الرحيم .

دخلت المنزل منهوكة القوى محطمة الأعصاب لا أكاد أقوى على تزع
ملاسى . فلما استطعت نزعها وألقيت بنفسى فى سريرى إذا البكاء يفلبنى
من جديد ، وإذا عيناى تجردان بدمع متون . وبعد برهة إذا جسمى كله
ترعده الحمى ، وإذا فى اضطرب فى قرأشى اضطراباً جعلنى أصبح نادبة
مرية أطفالى ، فلما دخلت على ورأتى محطمة اللون أسرعرت إلى «المرموم»
ثم سارعت بعد أن نظرت إليه إلى إسعافى . . .

وبعد سوية أقبل زوجى لموعده طعامه ، فلما عرف ما فى أسرع يفحصنى ،
ثم أمر بإقبال نوافذ الغرفة وبركى فى راحة تامة ، وجاء الطفلان بعد ذلك من
اللدسة ، فاستقبلتهما مرييتهما وأخبرتهما أننى مريضة ، ولذلك يجب عليهما
ألا يحدثا أية ضجة أو جلبة تزعجنى ، وأمسكت الطفلين ودخلت بهما على
فإذا هما ساهمان وكأنهما حدثتهما نفساهما البريثتان بأن أمراً حدث ، فلما
وقفنا إلى جانب سريرى اغرورقت عيناى بالدمع ونظرت إليهما كأنما أستغفرهما
أن كنت أجتى عليهما فأيتنهما ، وانصرف الطفلان كسيرى العفوف ثم عليهما
الطفولة فسمعتهما يضحكان ، عند ذلك شعرت بأنى كنت مقدمة على عمل
جنونى أتجانى القدر منه بأن بعث إلى ذلك الملاك الرحيم .

ولم يكن يشغلنى أيام مرضى غير نكسة صديقنا وحال صحته . . . وقد
سألت زوجى غير مرة عن حاله ، فأنبأنى أنه تخطفى الخطر وإن كان فى حاجة
إلى زمن طويل ليسترده عافيته ، فلما يرث واستطعت أن أخرج من منزلى
سألت زوجى أن أصبحه يوماً فى عيادة هذا الصديق العزيز . . .

وإذا رأيته وتبينت حاله رقى قلبى رقة لم يكن يسيراً معها أن أغالب دمعى ،

ثم ردت بقلبي رفته فأمسكت بيده وزوجى واقف بجانبى ، وقلت : « أستحلفك
باعز عزيز عليك أن تسامحنى . . أنا أعلم أن ذنبى لا يسعك الغفران ، ولكنى
أعلم كذلك أن وقامك لصداقتنا يسموبك إلى ما فوق الغفرة ، يسموبك
إلى الرحمة وإلى الإشفاق على بالسة مسكينة ! . . » .

فنظر إلى الرجل وهو ممدد على كرسية الطويل بعينين يشع فيهما عطف
يكاد يكون الحنان وقال : « لقد سامحتك منذ زمان طويل ، وليسامحك الله
وليسامحننا جميعاً ! . . » .

لم أشعر فى حياتى يتضاؤل كبرياتى مثل ما شعرت فى هذا اليوم . .
لقد شعرت بنفسى ، أنا المتعالية المعتزة بنفسى ، صغيرة ضئيلة تافهة محتاجة
إلى كلمة عطف تسند ضعفى وتسكب ماء البر الطهور على ذنوبى ، وهأنذى
قد سمعنا ، لكنى بقيت مع ذلك صغيرة ضئيلة تافهة .

وانقضت الأيام والأسابيع وعوفى صديقنا وعاد يتردد علينا ، لكنى بقيت
برغم ذلك محطة الأعصاب غلابد لى من جو جديد تتغير فيه نفسيتى ،
فلما أقبل الصيف قال لى زوجى : « ما أحسبك احتجت يوماً إلى السفر إلى
أوربا حاجتك هذا العام ، فأعدى علتك ! وقد لا أستطيع السفر معكم ،
ولذلك أعددت جواز سفر لك ولطفلين ، وأرجو أن يفيدكم تغيير الجوازات
التي أرجوها ، وشكركه ، وأخذت أفكر فى السفر فى إعداد عدته ! . . » .

الفصل السادس

لم أنظر إلى اصطيافنا بأوروبا هذا العام مطمئنة النفس فريدة العين .
أنا حقاً في أشد الحاجة إليه . فهذا الجو الذي يحيط بي خائق ولم يبق لي
طاقة باحثاله ، وأعصابي مرهقة بشرها من الهواء ، لكن الهواجس كانت
تزعجني وتلبل خاطرى وتزيد نفسى قلقاً وأعصابي اضطراباً . . فما بال زوجي
لا يريد أن يصحبنا إلى أوروبا ؟ . . أى شيء يحسكه بالقاهرة ليصلى صيها
القائظ ؟ . .

وهنا ارتست أمامي صورة صديقتى وهى تنظر بعينيها الجميلتين الساحرتين
إلى هذا الطبيب الذى وهبها كل عناية لإنقاذ ميراثها وميراث أطفالها ، ألا تكون
هذه المرأة هى السبب فى تخلفه عن مصاحبتنا وبقائه بالقاهرة ؟ . . أنا أعلم
أنها تصطاف بالإسكندرية . لكن الذهاب من القاهرة إلى الإسكندرية ،
آخر كل أسبوع لقضاء يومين أو ثلاثة على مقربة منها ، والتقاءهما كلما شاءا ،
أمر يسير ! . .

وإذا أنا كنت قد فعلت ما فعلت لأمنع زواجها من صديقتنا ، أفأسافر
إلى أوروبا وأدعها تعصب منى والد أطفالى ، على حين أتقل أنا بهما بين بلاد
المياه ، وفى أعالي الجبال الأوروبية الجميلة .

ودار بخاطرى أن أعتذر عن عدم السر . وأن أكتفى بالذهاب إلى الإسكندرية أقصى الصيف . وإني لأفكر كيف أصور الأمر لزوجي إذ مري صديقنا . وأخذ يسألني عن موعد السفر وبرايجه . قلت بعد حوار طويل : وما اهتمامك أنت وزوجي بهذا الأمر ؟ كأننا نريد أن إيعادي عن مصر لأمر تدبرانه ؟ . .

فبهت الرجل لسماع هذه العبارة . وقد قلتها بنفحة كلها الجدة والحزم ! .
وقال بعد هنيهة :

« أوهجست بنفسك هواجس جيئونه جديدة لتقول مثل هذا الكلام السحيف ؟ » قلت : « فلم إذن لا يصاحبنا زوجي إلى أوروبا ؟ » . .
هنا تبسم الرجل ضاحكاً وقال :

« إذن فاعلمي أنه استدان المبلغ اللازم لسفركم ، وكنت أنا واسطته وضامنه ، وهو يريد أن يشتغل في الصيف ليسدد ما استدان ، أويكفيك هذا العلم لهذا نفسك وتمسكن أعصابك ؟ »

قلت وأنا أحاول التسكين من وساوس نفسي :

« ما كان أغناه عن هذه الاستدانة وأغثناني عن التمرض لهذه الهواجس ! . .
إني لم أربح إليه في السفر ، بل هو الذي عرضه عليّ ! . . ولو علمت أن الأمر يقتضيه أن يستدين لما قبلته ، بل لكفانا أن نقضى معاً شهراً بأي مصيف وأن نقيم بقية الصيف هنا في وكرنا وملجئنا » ، وأجاب صديقنا مبتسماً .
« ثم تبقى أعصابك مضطربة وحسك مرهقاً طيلة العام المقبل فتجعلين حياته جيئاً ! لا تحسبي يا ميلتي أنه نسي في هذا الأمر نفسه ولم يفكر إلا فيك ،

فقد ذكرت له حين طلب إلى التوسط في الاستدانة وصيانته فيها هذا الكلام الذي قلب أنت الآن . وعرضت عليه أن تذهبوا إلى مكان قصي كمرسى مضروح . فحدثني بلغة الطبيب التي يعرفك خير معرفة أنك لا دواء لك إلا السفر إلى أوروبا . وأن ما يتكلفه في ذلك من النفقة ليسر عليه من بقائك فيها أنت فيه مما ينقص عليه وعلى الطفلين عيشهم . ألا ترى أنه يحسن التقدير والحساب ؟ فاطرحي من خيالك المريض هواجس لا وجود لها إلا في هذا الخيال . واستقبلي سفرك بنفس راضية لصود إليك صحتك ولبيود إلى طفليك مرحهما وابتمامهما . وسأمر بك بعد ثلاثة أيام لأعرف كيف أعددت لرحلتك وبرنامجها .

وصدق الرجل وعده وبري بعد ثلاثة أيام فألفاني أكثر هدوءاً وطمأنينة ، ذلك بأنني كنت قد أخذت أتق به وأطمئن إلى كلامه بعد أن أبقت من خلال أحاديثه المتكررة أنه لن يتزوج صديقتي . وداريسا في رفق حديث هادئ أطلسته في أثناءه على خطة سفرى وعدته . . .

وصحبتى هو وزوجى إلى الإسكندرية حتى ودعاني ساعة تحركت الباخرة ، فلما بعدت عن الشاطئ وغابت عنا آثاره ذهبته أستقبل هواء البحر أملاً منه صدرى ورتبى ، معتتعة بأن فيه الدواء الناجع لعلنى ، واستشقت هذا الهواء ملء خياشيمي فأحسست فيه حياة تتعش قلبي ، وترفع عن صدرى عبئاً كان يشقله ، وتحدثت على مقعد طويل أرحت إلى مسنده ظهري ليكون صدرى أكثر استقبالا لهذا الهواء المحسن ، وتطلعت بنظري إلى الأفق الممتد بين السماء والماء وكأما يتهادى مع الباخرة فوق ليج البحر العظيم . وانقضت ساعة

وانخرى وأنا على هذه الحال . ازداد كل ساعة شعوراً بأن الأعصاب المنهارة
التي كانت تتحكم في وجودي تستقيم وتقوى شيئاً فشيئاً . ألم يقل صديقنا إن
السفر إلى أوروبا فيه دواء علقى . وهأنذا أشعر بفعل هذا الدواء منذ اللحظات
الأولى .

وأقبل المساء فكنت أهدأ نوعاً ، وتقصت أيامنا على الباخرة وأنا أشعر
كل يوم بأننى أحس حالاً مما كنت عليه في اليوم الذي سبقه . وكان على الباخرة
سيدات رقيقات رأيتني ورأين أطفالاً فكان يداعين الأطفال ويحدثني في
مألوف ما يتحدث المسافرون فيه ، فلما أصبحت اليوم الأخير والباخرة تنأهب
لإلقاء مراسيها على رصيف المرفأ ، جئت بدعنى ، ثم قالت إحداهن وكأنها
تهمس في أذنى :

« أهنتك من كل قلبي يا سيدتى ، لقد أشفقت عليك ساعة رأيتك
تصعدين الباخرة في الإسكندرية . كان وجهك شاحباً ولامحك متعبة ،
وكان الجهد بادياً عليك ، وكأنما قضيت زمناً طويلاً في غرفة مظلمة ،
أما الآن - ولا حسد - فوجهك مشرق ولامحك باسمية وكذلك حيوية
وشاط . فشكرتها وقلت . « لقد كنت أحسن الإحياء حقاً ، لقد مرت بي
أحداث أزعجتني ، وأشر الآن أننى أنفت وحييت ا . »

وسافرنا نوا من المرفأ إلى الجبال وأخذت أنتقل مع الأطفال من مصيف
إلى مصيف وقد نسبت كل شيء إلا أننى حييت . فلما اطمأنتت إلى العافية
والإطفال أخذت أستعيد هذا الماضي القريب في دهشة ، وأعجب لما حدث
فيه . فإذا رأيته بدأ يشغل حيراً من تفكيرى لم يكن أيسر من أن أهرأ أكتافى

وعيد إلى متاعى بحمال الطبيعة من حيل . لكن أمرا واحدا لم يبرح ذهني .
ذلك أمر صديقتي وعناية زوجي بشأها وبميراث أطفالها عناية غير مألوفة .
فلن تحرك الرحمة والإنسانية وحدهما رجلا . ليعرض نفسه إلى ما تعرض له
زوجي من أجل هذه الفتاة ؟

وفيما تسفل بين المصاييف صادقتني السيدة الأمريكية المعية بزيته سريها
أكثر من عنايتها بزيته خروجها ونزهتها . وهي التي عرفتني الصيف الماضي
إذ كان زوجي معنا في أوروبا . فقد صادقتني أسير في بيت الفندق وطفلاي
يسيران معي . قلما وأنتى أقبلت على وعانقتني وأبدت من السرور بقلعالي
ما أنعش نفسي . وعدنا سيرتنا العام الماضي . وردنا عليها أنتى جلست وإياها
على مائدة واحدة في غرفة الطعام .

وكانت تدعو بعض أصدقائها وصديقاتها أحيانا لتناول الطعام معنا .
فشيح ذلك لنا فرصة الحديث في شؤون شتى . ولولاء الغريب حراة على
موضوعات بمنعنا الحياء في مصر أن نعرض لها . ولست أنسى لهم حديثاً
ترك في نفسي من بعد أثراً عميقاً ، وكان للسيدة الأمريكية فيه رأى جرى
لم أجد مثل صراحته فيما سبق من مطالعائي . فقد تحدثوا عن الحب وعن
صلات الرجل والمرأة ، وأيد بعضهم ما يقوله الروائيون من أن الحب عاطفة
يقصد بها الرجل تملك المرأة ، وأيد آخرون مذهب شوبنهاور من أن الحب
أسطورة تقصد الطبيعة من ورائها إلى تخليد النوع وتحسينه . قالت الأمريكية :
« أما أن الحب عاطفة يقصد بها الرجل تملك المرأة حديث خرافة ابتدعه
الرجال إرضاء لغرورهم ، فليست أعرف رجلا تملك امرأة في غير الكتب التي

يزوقها القصاصون . أما الواقع فإن النساء هن اللواتي يمتلكن الرجال ويسحرهن . كما يشأن لأغراض الحياة . وقصة آدم وحواء تصور هذا الواقع حير تصوير . فحواء هي التي أرادت أن تعلم من شجرة الخلد فسخرت آدم لما أرادت فأدعى لها وهو يعلم أنه يخالف هذا الإذعان أمر به . والمرأة هي التي تخلق من الرجل ملاكاً أو شيطاناً حسب هواها . ترتفع به إلى الدروة أو تهوى به إلى الحضيض . وقل أن كان العكس صحيحاً ، والرجال أنفسهم لا ينكرون على المرأة هذا السلطان ولا يأبونه . ألا يتحدث الشعراء من أقدم العصور عن ربة الشعر على أنها مصدر رحيهم وإلهامهم ، والغزل في الشعر من غنون الرجال يتنزلون به في المرأة ويتخلونه زلى إليها ؟ وقل أن روى التاريخ لامرأة شعر غزل إلا أن يكون الرجال قد زيفوه ليتزلوا بالمرأة إلى مثل مكائهم . وماذا يملك الرجل من المرأة فيما يزور القصاصون ؟ جسمها . إنه يملكه سوية يملك لصاحبه بعدها ما عاش ، وفي طبعها ما في طبع كل أنثى مما يذكركه شربنهور : أن تخلق للنوع . والرجل يحب أنه يملكها حين تسخره هي ليتم أسى غرض في الحياة وأرضه ، ذلك أن تخلق جيلاً جديداً ! . . .

قالت سدة من الحاضرات : « إن ما ذكرته يصدق على الزواج أو على التناسل إن شئت . لكنك لم تذكر شيئاً عن الحب ، والحب لا صلة له بالتناسل . بل هو عاطفة مجردة مكثفة بذاتها كالصدقة ! . . . والحب كلما ازداد تجرداً ازداد ممراً ، وكلما كان خالصاً لوجهه وحده كان رحيق العواطف وخلاصتها جميعاً »

أجابت الأمريكية . « إن هذا الحب الرحيق الذي تذكركين ، وهذه

العاطفة السامية المكتفية بذاتها ، حب ملائكي لا يعرفه بنو الإنسان . وهو على كل حال ليس الحب الذي يذكر القصاصون أن الرجل يقصد به إلى امتلاك المرأة . ولئن وجد هذا الحب الملائكي بين شاب وفتاة ، أو بين رجل وامرأة ، ونظر كلاهما لله أو للعدراء ألا يقرب أسهما صاحبه . وألا يكون بينهما قط شيء من صلة الجسد . إنهما إذن لمن أتى أبناء الكنيسة الكاثوليكية البررة المظهر ، وليس من أبناء علمنا نحن ، عالم الحياة والتجدد . أما حب الرجل والمرأة في عالم الحياة فغايتة إنشاء الشركة اللامعة لأداء واجب الحياة على خير وجه ، ووسيلته التجانس والتجاذب بين الشريكين على نحو يكفل انتقاء أحسن بذرة للتربة التي تصلح لها ، والتي تتكفل هذه الشركة بتعهد أُمّاتها هذه صورة مادية قد لا ترضى الخيال الشعري ، لكنها الصورة التي تستقل مع تاريخ الإنسانية منذ عرفنا تاريخ الإنسانية . قالتشريع الذي وضعه الرجال في مختلف العصور يقرها ، والواقع الذي تراه أعيننا يشهد بها . فإذا أراد رجل أو أرادت امرأة أن تسمع على هذه الصورة المادية فقد أنكر كلاهما واجب الحياة وتكرهه ، وهذا - مع الشيء الكثير من الأسف - ما تيفته أنا بعد تجارب كثيرة مريرة . . .

قلت - ملقية الكلام إلى الحاضرين من غير أن أوجهه إلى أحد بذاته : « والغيرة ! ، أها صلة بالحب ؟ أم أنها مستقلة عنه قائمة بذاتها ؟ » . . .
 قالت الأمريكية وكأنما حرك هذا السؤال عندها شجناً دقيماً : « غير المرأة عاطفة طليحة باعياً الدفاع عن النفس ، وعن الملك . فالمرأة كما ذكرت تملك الرجل الذي تحب وتعرض على ألا تفرط فيه ، وهي

تذلت تحميه بالصاية التي يحيط بها الإنسان أعز ما يملك . وهي تعتبر
عائته ملكها . وصحته ملكها . وقلبه ملكها . وسميته ملكها . ومكانته في
المجتمع ملكها . فإذا حاولت امرأة غيرها أن تنصب هذا الملك منها فمن
حقها أن تدفع هذا الاعتداء بكل وسائلها . وفي مقدمة هذه الوسائل أن
تنصب شاباً كها حول الرجل نفسه حتى لا يفلت منها . فإن نجحت فذاك .
وإن تقلبت عليها غريمها أو حاول رجلها أن يفر منها فمن حقها أن تعلن عليها
حرباً شعواء . قد تكون الهزيمة في هذه الحرب نصيبها . ولكن خوف الهزيمة
لا يجوز أن يثنيها عن النضال . فلا تقرب في قيد آمله من ملكها إلا مغلوبة
على أمرها . وإذا هزمت مع ذلك فلها العفو ولها من استماتتها في النضال
عن ملكها عراء عن قلعه آخر الأمر . وإن لم يرد هذا العزاء فائماً ولم ينجها
من أن تفرق نفسها فيما يذيب الهم ويقدم الحزن .

قالت الأمريكية عباواتها الأخيرة وقد شردت نظراتها وانخفض صوته
وكأنها حركت نفسها هواجس ماضٍ قاست فيه أهوالاً ، وانهمزت فيه بعد
دفاع طويل مجيد . . عند ذلك أدركت عرصها على الشراب . تفرق فيه معها .
وقد رأيتها ذلك اليوم أشد إكباباً عليه كأنها هاجت الذكرى أشجانها
قاستعانت بالشراب على تسياتها وخشيت أن يباردها من هذه الذكرى رجع
بشر من نفسي ما لا أريد أن يثرو وأنا حربصة على أن أفيد لصحتي ولأعصابي
ولكل حيوي من هذا الاصطياغ ما استطعت . فانتقلت إلى مصيف آخر
أكثر مرحاً وأخذت أعبت أنا وأطفالى وأرتع معهم . ترتفع إلى فنن الجبال .
ولعب في الثلوج البيضاء المراكمة عليها ، ونهبط إلى الوديان نستمع بخضرها

وبعد ذلك وتقبل ثم نتقل حتى لا يدع لي المقام في مكان واحد فرصة للتصكير في غير المرح والمتاع

وعلمنا آخر الصيف إلى مصر . واستقبلنا زوجي على ظهر الباخرة أول ما أرسيت بالإسكندرية . وفرح الطفلان بأييها فتعلقا بعنقه وأخذوا يشلان . فسألني هوكيف أمضينا صيفنا . فذكرت له طرفاً مما رأينا . وذكرت الأمريكية التي زارها معي العام الماضي في غرفة نومها . ولكني لم أذكر شيئاً من أحاديثها وأحاديث أصحابها . وسألته بدوري كيف قضى صيفه ؟ ورجوت ألا يكون قىظ القاهرة أرقه . وأجابني أنه استطاع أن يشهر فترات جاء في أثنائها إلى الإسكندرية يسريج من عناء العمل ويستنشق هواء البحر يسرى به عن نفسه ويعتاض به من قىظ بلغت درجته الأربعين في بعض الأيام ، وذكرتني روراته الإسكندرية حيث مصطفى صديقتي بهاجسى قبيل سفرى إلى أوربا . على أنى أثرت الصمت فلم أقل شيئاً .

وانتقلنا إلى القاهرة ، وجاء صديقنا بهمد الله على سلامتنا فأبدى اغتباطه بما أفدت لصحتى من رحلتى وسروره بما عاودنى من سكوتى وطمانينى ، وتفضت أوائل الخريف بعد ذلك رقية متشابهة بعث إلى النفس السأم والملال . فلما كنت في الأيام الأولى من شهر ديسمبر أقبل زوجى يوماً يذكرلى أن جماعة من أصدقائه الفوات ، سيدات ورجالا ، يريدون أن يستمتعوا تلك الليلة بضوء القصر عند سفح الأهرام ، وأنهم يدعوننا لمشاركهم في هذا المتاع . وأنه ذكر لهم أن مثل هذه التزهة الليلية غير مألوقة لى . فالحوا عليه في أن يقتضى بمشاركهم وقبول دعوتهم ، وأنه وعدهم أن يفعل ، وسألنى بم

يحبهم . قلت : « وما رأيك أنت ؟ فانا في هذا الأمر على ما نحب . إن شئت ذهبتا وإن شئت اعتزلنا » .

وإنما أردت بهذا الأدب الجلم أن ألقى عليه كل التبعة . . على أنني كنت أود من كل قلبي أن يقبل هذه الدعوة . فهي لون جديد من الحياة يشوقني أن أعرفه . وأصحابها طراز من الجمعية القاهرية الراقية يسرنى أن أتعرف إليهم . ولقد كنت أدرك هذا وذاك أفكر في الوسيلة التي أسترد بها زوجي إلى حظيرتي . فلا يبقى لدى خيال شك في تعلقه بصديقتي . وقد اسندتني هذا التفكير بعد أن ذكر لي حين استقبلنا على الباشرة بالإسكندرية أنه جاء من القاهرة إليها غير مرة في أثناء غيابنا في أوربا حين كانت صديقتي تصطاف بها . فإذا قلنا هذه الدعوة فتحت أمامي باباً أنفذ منه للغرض الذي أقصد إليه .

وبدا على زوجي بعض التردد بعدما ذكرت أنني تركت الأمر له . قلت : « قيم تردد . . إن لم يكن في هذه الدعوة ما يفرحك فلا أيسر عليك من أن تعتذر عنها . وكل الذي أرجوك فيه ألا تحتاج في اعتذارك بي حتى لا يفسر القوم ذلك تفسيراً بسوياً . . نستطيع إن شئت أن نحتاج بعملك ، فأنت طيب معرض لأن تطلب في كل وقت ، أما إن راقك أن تقبل الدعوة فأبلغ أصحابها شكرى إياهم واعتباطي بالتعرف إليهم » .

وسكت زوجي هنية ثم قال : « أما وأنت لا ترفضينها فانا أقبلها ، وسأبلغهم ذلك الساعة . وإني لوأثق من أنك ستسرين بمعرفتهم ، فهم غاية في الرقة رجالاً ونساء ، وقد أبدوا من الحرص على التعرف إليك ما شكرتهم

عليه . وإني لواق من أنكم ستصبحون أصدقاء عما قليل .
ما أشد غبطتي وما أسعدني بما قال ! فهذا يتفق مع ما دار بخاطري
وما فكرت فيه من وسيلة أسترده بها إلى حظيقي ، لا بد أن أثير العيرة في
نفسه حتى لا يظل متوهماً أنني لا أعرف غيره ، ولا أحب غيره ، ولا أقدر
غيره . مما دعاه إلى الاكتفاء نحوي بأداء واجبه رباً لأسرتنا . وأن يتناسى
شخصيتي وما حباي القدر من مواهب يعجب بها غيره أشد الإعجاب
وأقبل المساء وأشاع القمر بضياؤه الرطب الندى معاني النعم في أجواء
القاهرة واشتملها كلها . وترشت لهذه التزهة الصحراوية زينة جمعت إلى
البساطة الإغراء . ودق التليفون ، وقال زوجي : إن القوم في طريقهم إلينا .
فهبنا إلى الطابق الأول حتى إذا سمعنا تغير سياراتهم خرجنا إليهم فالفيناهم نزلوا
من السيارات لمحيتنا ، وتعرفت إليهم ، ودعاني أحدهم لأجلس في سيارته
إلى جانبه وهو على عجلة القيادة ، وذهبت زوجته في سيارة أخرى ، وفرقنا
حتى لا نجلس زوجة مع زوجها في سيارة واحدة . وانطلقنا مسرعين حتى
إذا بلغنا طريق الهرم سرنا على هون مسطّين ، وما كان لنا ألا نفعل ، فقد
سكب القمر على ما حولنا من المزارع والمساكن أمواجاً من نور غمرت ما بين
السماء والأرض وجعلتنا سباح منها فوق أثير شعري رقت معه قلوبنا وسمت
عواطفنا حتى كادت تلتقي وتتعانق ، قلت لزميلي في السيارة : « لست أدري
كيف أشكر لكم هذه الدعوة ، فلت أذكر أني رأيت القمر أبهى سناً وأروع
جمالاً في حالته البديعة بما هو اليوم ، لقد طالما اجتثت هذا الطريق في ضوء عاشق
السموات فلم أره يرتر إلى ويحدثني بمثل هذه اللغة التي يحدثني بها الليلة ؟ » .

ونجاب صاحبي : « أنت يا سيدتي التي أوجيت إلى القمر كل هذا الشعر
الذي يقع لنا الليلة أنغامه . وسرته على سفح الأهرام وعلى وجه ألى
أروع شعراً وأبدع إيقاعاً بفضل وحيك وإلهامك . . » واتصل بيئنا بعد ذلك
حديث رقيق حرصت ما استطعت على أن يزداد ظرفاً ورقة وسحراً . فإذا
تحدث الرجل بعد ذلك عني حديثاً بلغ سمع زوجي عرف أنه ظالمى وأن من
حتى قد أثور هذا الظلم .

وبلغنا سفح الأهرام وأوغلنا في الصحراء ثم تركنا السيارات واتخذنا ناعم
في هذا الجو الشعري الساحر بأعذب ألوان المحس . . كنا نتطلع إلى ناحية
الأهرام فتراما قد كساها القمر من ضيائه حلة زادت بها بهاء ومهابة وروية .
ثم نتطلع إلى دمال الصحراء المتموجة تحت أشعة القمر في ارتفاع وانخفاض
يخلقان منها بحراً خلياً وإن لم يصطبغ له موج . وإن كان صامتاً صمت
الليل . وترفع يبصرنا أحياناً إلى السماء فإذا الجركلة معطر بعير هذه الساعة
الذيقة المنعشة ، وإنا القمر قد أذاب في هذا الجو نوراً مطبقاً تنريح له
العين وينهل منه القلب . وتنتشى بسحره العواطف ، ويعبث الهوى في أثنائه
بالأفئدة بين الجوانح ا . . .

وسرعان ما أقام القمر مرقصاً على أنغام أسطوانات جليوها وجلبوا
« فوبوغرافها » معهم . وشاركنا وشارك زوجي بطبيعة الحال في الرقص .
وإن لم نرقص مرة واحدة معاً خلال الساعات المتعاقبة التي شهد فيها ساهر
السموات هذا المرح السابغ المجنون ، وقد ألقىت نفسي في أثناء هذا الرقص
بين أذرع الرجال من أصحابنا جميعاً ، وجعلت أكثر رقصاتي مع زميل في

سيارة . وكنت في أثناء رقصي معه أتابع الأحداث المحيطة التي بدأناها في طريقهم .

بعد أخذنا من الرقص حظنا كاملاً . جلسنا على سجادة جيء ٣٠
هدد تعرض وتناولنا طعاماً خفيفاً نكفم به صيحات معدتنا بعد أن هضم
الرقص ما كانت تحتويه . وجعل القوم في أثناء الطعام يشيد أطيب الشاء
على رقصي وينسبون لقوامي البارز أكثر الفضل فيه .

وعندما أدرأنا بعد أن شكرت القوم من كل قلبي . لأنهم أتاحوا لي
فرصة متاع لا عهد لي بمثلها من قبل . وأجاب القوم بأنهم هم الذين يشكروني .
لأنني دفعت إلى سرتهم من حيوي ومن رقي حياة ورقة لم يعرفوها فيما سبق
فهم من مثلها .

وانطلقت السيارة في ويزوجي في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فلما
شعرت أنني وإياه في خلوة قلت : « ألم تحدثك نفسك طيلة ساعات الرقص
أن تطلبي لرقصة معك ١٩ . » وكأنما أدهشه سؤال هذا فأجابني : « لقد
رأيتك في أثناء الرقص كله في غبطة لم أريد أن أفسدها عليك أو أنتقص
منها ! . . » قلت : « لست أنكر أنني اغتبطت بهذه الترفة الساحرة من أوطا
إلى آخرها ، لكنك كنت أكثر مني اغتباطاً . فقد رأيتك ، نائهاً في أحلام
أفصح سعة من الصحراء . . وأقسم أنني لم أكن خطرت بأحلامك . ولو أنني
خطرت بها لدعوتني ، ولو مرة واحدة إلى الرقص معك . . »

وأجابني - وكأنما أخذ لهذا الجواب عدته : « لكن ذلك لم يكن يليق .
فمن مدعوان إلى هذه الحفلة فيجب ألا يشعر أصحابها بأننا نكش عنهم

إلى ناحية . لحظة واحدة . ولأى اعتبار ! . . . « قلت : « وما لهم لم يرجعوا
ذلك فيما بينهم . فقد راقصت كل سيدة زوجها مرة على الأقل . أما أنت
فقد تصدعت إهمالي لغرض لا أفهمه » . . . وأدبرت وجهي غاضبة واستمر
هو يقود السيارة إلى منزلنا .

مررت في صديقنا الغداة فقصصت عليه أنباء سيرتنا وما دار بيني وبين
زوجي حين عودتنا . فابتسم وقال : « مسكين زوجك . إنه رجل طيب .
ولكنه لا يفهم العواطف كما تفهمينها . هي ليست في نظره لونا من ألوان
الفن الجميل الذي يشهد الناس صوره المختلفة على المسرح . ولكنها بعض
واجبات الحياة الزوجية يؤديها الرجل فيما يليه من عناية براحة زوجته
وأولاده . وعنده عن هذا القهم أنه فلاح . هو من أبناء الأعيان يرون الحب
المسرحي عيباً غير لائق بالناس الطيبين . وهو مقتنع بأنه يؤدي لك ولطفلك
ما لكم عليه من حق . ويحسب أنه يؤدي هذا الواجب على الوجه الأكمل .
وهو يظهر لي دهشة أحياناً ويسألني أمقصروني حقكم في شيء برغم ما يحصل
نفسه من أعباء يخشى أن ينوء بها يوماً من الأيام ؟ » . . .

وقلت في نفسي : « نعم . هو فلاح وفيه نحت الفلاحين ، وكل ما درسه
وكل ما رآه في أسفاره إلى أوروبا . وكل ما تعلمه من معاشره اللوات وأبناء
اللوات لم يعبر طبيته . وإن أصبح عليه طلاء ظاهراً من الثقافة والتمدن ،
فإذا حلك هذا الطلاء ، ظهر الفلاح بنفسه وضعفه وخيبته ، ألا يتزوج أحدهم
زوجة ثانية ثم لا تعلم زوجه الأولى بما فعل سنين متعاقبة ! . وما يدريني لعله
تزوج صديقتي ! . . . وهو لا ريب يحبا وإن لم يتزوجها . . إن هذه الطيبة

تجى يتصاهر - ليست إلا ثوب رياء يسر به مكره ونحسه . . أفلا يجعل في
ن أحاربه يحلل سلاحه . فأظهر غير ما أظن . على بذلك أستل منه سره
واقف على مكنون صدره ؟ . . .

وفي الغد كان القمر بدرًا كاملاً . فاتفقنا مع أصدقائنا الدوات على أن
نوغل في الصحراء . وأن يجعل الاستراحة العائمة في منتصف الطريق بين
القاهرة والإسكندرية غايتنا . وقضينا وقتاً ناعماً استمعنا فيه من « الجراموفون »
أحلى الأغاني وأعذب الأنغام . وتناولنا من الأحاديث . كل جماعة في
ناحية . ما أرضى هواننا وأمتع أرواحنا وقلوبنا . ألا ما أروع الصحراء في
ضوء القمر ! . . أنت منها في لجة تجمع الساء والهواء والأرض في غلالة من
غمام مضى . لا تعرف العين له بداية ولا نهاية . ولا تعرف أين منه مساكن
الشياطين وأين منه منازل الملائكة ؟ . كل شيء فيه مبهم أمام العين واضح
أمام البصيرة تقرأ سطور الغيب في لوحه المحفوظ . فأنت تشعر وأنت في هذا
المحيط الباهر الوضاء . كأنما كشفت عنك غطاؤك . وكأنما اتصلت على موج
الأنثير بعوالم الكون جميعاً وهي مع ذلك محجوبة عنك . لا ترى فيها اللذات
التي ترى في وضوح النهار ، وأنت مع ذلك معجب بما ترى . تحس أنك
استبطنت أسرار الكون وعرفت منها ما كان وما يكون ! . .

وعدنا أدراجنا حين تكبد القمر الساء ، وإننا لنهب الطريق إلى القاهرة إذ
وقفت إحدى السيارات ، واندفع نغيرها يعلن نداء الاستغاثة ، وفي لمح البصر
اجتمعت السيارات كلها حول السيارة المنكوبة ، ونزلنا جميعاً رجالاً ونساء
تساءل : ما أصابها ؟ ولم يكن المطب قادحاً ، إنما هي عجلة انفجرت ويجب

سديلهما ، يكنى إحد أن يتعاون رجلان في هذه المهمة . وكان أحد الرجلين زوجي ! . وانصرفنا جميعاً سبتح من جديد بالهواء المنعش ، والقباء الرقيق ، والحديث العذب ، والضحكات الناعمة تتأرجح على أرج السج فتنشئ بها أسمع الرجال نشوة تترجمها بسبات ثغورهم ، ويريق عيونهم !
وكنا إذ ذاك في طريق الصحراء على بضعة كيلومترات من طريق الحرم . فلما استعادت السيارة المنكوبة مقدرتها على السير ركبت كل سيدة مع زوجها حتى بلغنا منازلنا .

لقد لي عيش هؤلاء اللوات ، واستراحت نفسي للون حياتهم ، وأعجبنى فيهم ظرفهم وحسن ذوقهم في الحياة ولطف سلوكهم فيها ، وارتبطت لذلك معهم بأوثق صلة . ولقد كنا حين لا نسمعنا ضوء القمر بسهرات في الهواء الطلق نؤثر أن نجتمع في منزل من منازلنا نقضى فيه سهرة لا تقل عن سهرات الصحراء متاعاً ومرحاً ، كنا نرقص ونشئ ونستمع إلى الموسيقى تثير من ألوان الطرب مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فإذا عدت مع زوجي إلى منزلنا في المزيج الأخير من الليل كان الجهد قد أخذ منا ، قمنا إلى الضحى . فإذا استيقظت علمت أن زوجي قد نكر إلى عمله كعادته ، وأمر ألا يزعجني عن فراشي أحد ! . .

ولم أكن أحسب أن هذا اللون من حياة اللوات باهظ النفقة . لكني سرعان ما تبينت خطئي . فالولائم والأزهار النادرة والمطبخ والضياف ، وما يتصل بذلك من ملحقاته لا ينتهى حين يبدأ ولا تنتهى نفقاته . ونحن نعيش من قبل عن سعة اضطرت زوجي للاستدانة مدداً لنفقات سفرنا إلى أوروبا .

وليس في مقدورنا الآن وقد عرفنا هذه الألوان الجديدة من الحياة ، وتعرفنا إلى أصحابها أن نرتد عنها ، حتى نترع منها ويفيض بنا كأسها ، ولم يدر بخاطر روجي أن يخالفني في ذلك حذر المستقبل . ولعل عقله الناطق هو الذي صده عن أن يفعل مخافة كلام الناس . . إنه يحسب أنه انتقل بي إلى مصاف الذوات . ومن العار عليه أن يرتد بي عن هذه الصقوف خشية إملاق . . فاقه بريق من يشاء بغير حساب . . أليس صاحبه المليونير كان إلى بضع سنوات متواضع الثراء ، وكان يقترض منه ثم يرد له ما اقترضه ، فما ضره وقد أصبح الرجل مليونيراً أن يقترض هومته في انتظار أن يسد الله عنه دينه ! . .

ولكن ! . . كيف يحتال لذلك من غير أن يجرح إياها الداني . . دعا المليونير إلى وليمة فاخرة عندنا وأوصاني أن أبالغ في اللطف معه والتودد إليه وحسن اللقيا لزوجته . ولم أجد في تنهيد الوصية مشقة . .

أعجبتني هذه الزوج وحلت أجمل مكان من نفسي ، فبالفت في تحيتها عن رضا مني واطمئنان إليها . وكان المليونير قليل الكلام ، كثيراً ما يغيب ذهنه عن المجلس وكأنه يفكر في مشروعاته وحساباته ، وقد بذلت جهدي لاستدراجه إلى الكلام في الشؤون الجارية مما تنشر الصحف أو تتداوله المجالس ، فكان يحصر ذهنه ليحسن الإصغاء إليّ ، ثم يحيي في عبارات موجزة جديدة محكمة .

وزرنا الرجل بعد ذلك وتردد علينا . لقد طالما سمعت عنه من رجال ذوي ثقافة أنه محدود الأفق لا يستطيع أن يسمو بعقله فوق الماديات ، وفوق ما يتناول الناس من منافع الحياة . وقد أردت أن أسير غوره ، لأعرف مبلغ ما في هذا الكلام من دقة وصدق ، فدلني ما شهدت على صحته ، لكنني رأيت

ذلك التفكير المادى الذى ينسبونه إليه واسع المدى إلى غير حد ، إذا تكلم فى أحد مشروعاته تناول تفاصيله فى دقة غاية الدقة ، وقص ما أفق للحصول على هذا المشروع من جهد ومال قصصاً يستهوى القلب ، ويكاد يذكر الإنسان بالقصص البوليسية . وهو يؤمن بالمال إيماناً لا حد له . وقد ذكرنى إيمانه هذا بغنى آخر نعرفه جعله الإيمان بالمال شحيحاً غاية الشح ، إلا أن يكون له من وراء السخاء منقعة مادية ، هنالك يتفق عن سعة ولكن بحساب .

عابه أحد أصحابه يوماً لعبادته المال وحرصه عليه ، وكان صاحبه هذا مولعاً بالتحف والصور الزينة يتفق فى اقتنائها الشيء الكثير . وكان جواب الغنى الشحيح على ما عابه به صاحبه صريحاً واضحاً ، قال : « أو تستطيع أن توضح لى سبب اقتناك هذه الصور ، التى تزين جدران بيتك ، وهذه التحف الكثيرة المثورة فى أرجائه ، وهى تكلفك الألف 19 » ، ودهش صاحبه وقال : « عجباً لك يا أخى . . . ألا تعرف شيئاً اسمه الجمال وذوق الجمال والمتاع به ، إننى إذ أقف أمام هذه الصور وهذه التحف أتأملها أشعر بمتاع يتصاعل المال إلى جاتبه ، ويهون فى سبيله . . إنما المال يا أخى وسيلة للمتاع بالحياة وجمالها ، فإذا نحن لم ننفقه واكتنزناه لم نعرف للجمال قدراً ولم نسبح للحياة طعماً ! . . قال المؤمن بالمال : « إنى أوافقك على كل ما قلت ، ولا أخالفك إلا فى استتاجك الأخير . . أنت تعشق الجمال وترى فى اقتناء الصور والتحف وإن كلفتك من المال ما كلفتك وسيلتك إلى المتاع بالحياة ، وأنا أرى فى المتاع بالحياة رأياً آخر . . إنى حين أتناول كشف حسابى من البنك آخر كل شهر وأرى رصيدى فيه يزداد ، أشعر بمزيد من العزة والسلطان

يضاعف متاعى بالحياة . ولا تريب على ولا عليك إذا اختلف فوقنا في
المتاع بالحياة ، واختلفت وسيلتنا إلى هذا المتاع ! . . .
ولم يكن للمليونير كذلك إيمان عميق بغير المال . فكان غرامه بالنساء
هوى طارئاً لا عمق فيه . وكان تحلقه بمحيط الحياة سطحياً لا يعنيه منه إلا
المظهر الياضى للناس يرضى به غرور نفسه وكبرياء سلطانه . كان لكاتب
صحفى دالة عليه ! ولقد زاره يوماً وأخذ يتحدث وإياه فى أمور جارية
لا نتيجة لها ، ودخل السكرتير وأخبر المليونير أن أحد أصحاب الدولة السابقين
يستأذن عليه ، وكان صاحب الدولة السابق هذا عضواً متديباً لإدارة شركة
من شركات المليونير ، وأجاب الرجل سكرتيه : « قل له فليستظر على حديث
معه . » فلما انصرف السكرتير قال الصحفى : « ليس بيننا حديث ذو شأن حتى
تتظر رجلاً فى مقام صاحب الدولة هذا ! » وكان جواب المليونير : « يا الله
عليك خبرنى . أتحسب أنى ، ولئ من الأراء مالى ، آكل خيراً مما تأكل ،
أو ألس خيراً مما تلبس ، أو أنام فى فراش أوفر من فراش نومك ؟ . لا شئ من
كل هذا ، فأى قيمة للثراء إذن إذا لم أشعر أنى أستطيع بفضل سلطانه أن
أدع صاحب الدولة هذا وأمثاله ينتظروننى إن أمرت ويدخلون على إن
شئت ؟ ! » .

كنت قد سمعت هذه القصة ونخشت أن ينال زوجى ما نال صاحب
الدولة يوم يعلم المليونير أنه يطمع منه فى قرض . على أن زوجى لم يخبرنى من
ذلك بشئ ، ولم أسأله أنا عن شئ ! . . . لكننى لاحظت بعد أن تم القرض
أن المليونير قل تردده علينا ، وكان أكثر محبة حين يكون زوجى فى عمله .

وكت ألقاه منطلقه في مودة ، فإذا عاد زوجي من عمله أخبرته بمجيئه
وقصصت عليه ما دار بيننا من حديث فلا يعلق على ذلك بكلمة . وكان
رجلا لم يقابل روجه ولم يقل لها عبارة بجملة .

أدهشني هذا الجمود من زوجي ملا تحركه أية غيرة على . أنا التي
فعلت ما فعلت لغير شيء إلا لثباته بمراث صديقتي وأطفالها . أتراني أحبه
وهو لا يحبني ؟ . أم أنه طراز من الرجال لا يعرف كيف يعبر عن حبه
يرغم تعلقه بي ! . أنا لا أطلب إليه أن يكون شاعراً يتنزل في ، ولكنني أريد
منه أن يتحدث إلي ويصفني لحدثي في إعجاب كما يفعل صديقتنا .
وكما يفعل غيره من الرجال الذين يقضون الساعات مصغرين وعيونهم تتاجين
في صمت وإذعان ألا تفسأ ليوم ربط الزواج بيني وبينه فيه !! ولكن
ماذا عسأ أن أفعل وهذان الطفلان يوثقاننا في رباط يتعذر الفكك منه ؟ .
ولم أكن أستطيع أن أشكوه إلا لصديقتنا . فزوجي اليوم طيب مشهود
لطبه بين زملائه وبين مرضاه ، ولو أنني شكوته إلى أبي لرماني بالجنون ، ولنسب
حنوني إلى خلة ورتها من أمي . فذلك دأب الرجال ينسبون فضائل ذريتهم
إلى ما ورثوه منهم . وينسبون عيوبها إلى ما ورثوه من أمهاتهم ، ذلك شأنهم
ولو كانت الأم لا تزال معهم وكانوا لا يزالون يحبونها ، ما بالك بهم إذا
انفصلت الأم عنهم أو ماتت وحل غيرها محلها عندهم ؟ .

والآن ماذا أفعل إزاء ذلك الجمود الذي يلقاني به زوجي ! إنه لا يزيد
على أن يسألني عن حاجاتي وحاجات أطفالي ، فإذا ذكرني بقضاياها أو أتاحت لي فرصة
قصائنها . لكنه لم يعن يوماً بشئ جديد ارتديه ، ولا بقبعة ألبسها ، ولا بحذاء

سنة . ولم يقف أمام شيء من ذلك متباً في إعجاب . وهو إنما يتحرك
عصر الشيء للمجديد الذي يلبسه الطفلان . هذا وما حباي به القدر من
حدوية استهوت كثيرين لا بحركة تحوى . ولا بشير غيرته على . وقد حاولت أن
أحرك هذه العيرة في نفسه في أثناء مرحلتنا في الليالي القمرية التي معناها مع
أصدقائنا النوات فلم أتحج . أتواني انتهت ويجب أن ألقى سلاحى ! لكنه
لم يخرج يوماً بكلمة ولم يعرض يوماً عن تلبية رغباتى ما استطاع . ولم تتغير
معامته لى قط . ولم أعلم من صلواته بصديقى ما يشير شباتى . وإن آثار
غيرنى .

ولم يكن صديقنا يزيد حين أذكر له ما يعينى من خلجات نفسى على أن
سحر منى ومن زعاقى الخيالية نحورحل لم يهبه القدر دقة من نعمة الخيال .
وانتهى بي الأمر إلى أن أمتسلم للمقادير وأن أذعن لقضاء الله في .
وأقبل الصف فقضى زوجى جانباً منه في ربيع لبنان ، وبقيت أنا وأطفالي
بالقاهرة . والعجيب أنه كان يحدثنى كل يوم بالتليمود من مصبه يسأل عن
صحتنا وحاجتنا . مما يشهد بشديد عنايه براحتنا وطمانيتنا . وعظيم حرصه
على أن يطعش علينا ، أم تلك نعمة الفلاح يريد أن يتظاهر أمام أصحابه
الذين يصطاف معهم بأنه أكرمهم جميعاً برأ بأهله وعظماً عليهم ١٩ .
وبقيت في حيلى ، تضيق نفسى أحياناً وقدفعنى إلى الثورة على ما أنا فيه .
وأستسلم أحياناً أخرى إشفاقاً على طفلى أن يصيبهما من ثورتى ما يفسد حياتهما .
وأفكر في أثناء ثورتى وأثناء استسلامى في هذا القضاء الذى نزل بي . وفرضته
الأقدار على . والذى جعلنى أضطرب في حياتى ولا أعرف لما مستقراً .

وهداني تفكيرى آخر الأمر إلى حطة رخصتها . واعتزمت تمييزها . فما الذى
 يمكننى فى هذا الوضع ؟ . . هو شعورى بأنه مفر وض على ولا فكاك لى منه .
 وبعت هذا الشعور حرصى على مستقل الطفلين . فلما أتى تحلصت من هذا
 الشعور واسترددت استقلالى لاستطعت أن أصور حياتى على ما أريد .
 وإن أطرح كل ما أضيق به . فكيف أطلع هذه العاية وأحقق هذا الغرض ؟ . .
 فكرت أولاً وقبل كل شىء فى أمر الطفلين . وقررت أنى لن أتخلى بحال
 عنهما وأدعهما لى سبب لأيهما . هما متعانى من الانتحار مخافة يتعهما .
 فليس يجوز أن أراهما معنى يتسمى الأم وأنا على قيد الحياة . إيهما يتعدمان
 الآن من الطقولة إلى الصبا . وهما مبعث سرورى ومصدر ما أشعر به أحياناً
 من السعادة . فمن الجمق الذى لا حلق بعده أن أكرم نفسى منهما .
 وأكرمهما من حنانى وعطفى . وهما لن يشعرا قط بالحرمان من أيهما .
 فعمله يشغله عنهما . وهو قليلاً ما يراهما . لاند لى إذن من أن أحفظ
 بهما وأن أذل فى سبيل ذلك كل ما أستطيع بدله .

ثم يجب أن أوفر من المال كل ما أستطيع ليكون سندى فى تنفيذ
 عطلتى . ولهذا فتحت لنفسى حساباً خاصاً فى البنك . جعلت أودع
 فيه كل ما يصل إلى من والدى . وكل ما أقتصده من نفقات المنزل
 وس أى مصدر أحصل عليه لى ولطفلين . قد لا يكون ذلك وفيراً . وقد
 يحتاج اقتصاد مبلغ دى قيمة إلى سنوات . لكن الحطة التى رخصتها للنضال
 كاد أساسها الصبر والاحتفال . فليس يسيراً أن يتنجح فى نضال من ليس
 يستطيع الصبر . وأنا بعد أدافع عن حريقى وعن كرامتى . وذلك نضالى

لا أدكر أن مصرية سقتني إليه . بل قل أن سقتني إليه في غير مصر امرأة
يحيط بها وبمجتمعها ما يحيط بي من ظروف ! . . .

وكانت الخطوات الأولى لتنفيذ هذه الحفلة بسيطة بالفعل : انقضت
الشهور الأولى ولم أستطع أن أقتصد شيئاً يذكر . وشعرت إثر انقضائها
بشيء من اليأس في نجاح ما اعلمت . وبدأ لي أتي لوملكت خطة أخرى ،
فهاجمت زوجي في سمته الطيبة - وبخاصة فيما يتصل ببنائه بصديقتي
وبميراث أطفالنا - فقد أختصر الطريق إلى عايني . ولعل أشرت إلى شيء
من هذا في حديث حري بيني وبينه في توبة غضب لم أملك معها صوابي .
فقد جاءني صديقنا يوماً متحجماً . فلما سأته عن سبب تحججه قال :
« هو هذا الجنون الذي قام برأسك وجعلك تهددين زوجك بتعطيل سمته .
بل بتعطيل حياته . أولاً تعلمين أن ما يحس زوجك بحس طفليك في صميم
حياتهما ؟ . إنهما ابناه رضيت أنت أم أيت . فإذا حاولت أن تشوهي
سمته أو تعطلي حياته فأعلمي أن الحجر الذي تقديه بصيبيهما قبل أن
يصبه . ولن يقول الناس يومئذ إنك روج غاضبة أو عاقبة . بل سيقولون
إنك أم شريرة . وقد يقولون أكثر من هذا . وقد جعلك الآن لتسمى أمامي
بحياة طفليك أنك لن تجازي بشيء من هذا الجنون . الذي يضربك قبل أن
يضرب أي إنسان آخر . ولن أقبل يمناً أخرى غير حياة هذين الطفلين العزيزين
عليك . فأننا أعلم أنهما أعز عليك حتى من نفسك » .

ووجعت برهة غير قصيرة تردد في أثنائها أمام خيالي طيف الطفلين
فانحدرت من عيني دموع قلت بعدها : « أعدك بالأفعل ، وأرجوك في

ألا تمنح علي في هذا القسم الذي نطلب . فلن أستطيع أن أقصمه . لكن هذا
 العهد ليسى بذلكه لك وعد قطعتة ولن أخل به إلا أن يكون ذلك معلماً منك .
 ويظهر أن موقفي هذا قد كان له أثره . فقد بدأ زوجي يسخو في سخنة
 سخاء لم يكن لي به من قبل عهد . لم أكن أطلب شيئاً للمعتزل أو لي أو
 للطفلين إلا آجاني إلى ما أطلب ووضع في يدي من المال أكثر مما أرعب به .
 بذلك بدأت خطتي المرسومة تنجح على نحو لم أتوقعه . وبذلك أخذ رصيدي
 الخاص في البنك يزداد شيئاً بعد شيء . وأخذت أشعر أنني أمهد بالعمل
 لاسترداد حريتي . وأن شيئاً من الصبر كقيل بأن يمنح لي باب الخطوة الحاسمة
 لاستكمالها ! . . .

وتبقى والدي وأنا في صميم هذه المعركة الصامتة أناضل نضال امرأة
 مست عزتها وجرححت كرامتها . وقد حزرت أشد الحزن لوفاة هذا الولد الم
 المحزون الذي لم يذكر والدي يوماً بسوء ، وطالما أسدى إليّ أصدق النصيح وأحكمه .
 على أن وفاته قربتني من الأمل الذي كان يداعيني في استرداد حريتي . ولم يكن
 ذلك لأني ورثت عنه مالاً يعتمد عليه ، فقد رزقت زوجه الثانية عديداً من
 الأطفال . فنت تركته وجعلت الاعياد على حصة كل وارث فيها غير مستطاع
 لمن كان في مثل مكانتي ، ولكنني أحسست بوفاته أنني أصبحت طليقة من
 قيد معنوية ، كان وجوده يفرضها علي .

على أنني رأيت أن أدع العبدین بحران على وفاته قبل أن ألتخذ أي موقف
 حاسم . وذلك إرضاء لذكراه ، وحتى لا يقول الناس إنه ، عليه رحمة الله .
 هو الذي كان يحمل زوجي على إمساكي . بذلك انقضت شهيرة تامة

في حفتي . وازداد خلافاً وصبيحتي في البك . ورأيت بعدها أن أحصى
حصية الأخيرة . أضعفه بها أن يترك على كل ما أريد .

استغرقت حطتي منذ بدأت تنفيذها إلى ذلك اليوم ما يزيد على ثلاث
سنوات خيل إلى أن ما أتممته فيها كفيلاً بأن يثير روجي ويحملة على التسليم
من غير قيد ولا شرط . فقد عزلته في عرفة في أقصى المنزل نقلت إليها سرير
بمه وكبه وأدواته الطبية . وكنت أتناول الطعام أحياناً وأخرج من المنزل قبل
أن يحضر . وكنت أقصُّ عليه أحياناً في ازدهاء وعلوماً يغمرك به الممجبون
من عبادات الثناء التي تثير غيرته . وكنت أبالغ في الإنفاق مبالغته يومها
بإرادته من عمله . وإيراده من ثروته . وتحمله من غير شك على الاستدانة .
وكنت أقبل هذا كله متعملة بإساقته . وإثارته . وكنت أحسب أنه مسجىء
يوماً وقد فاض معين حلمه وطار صوابه ليقتلني أو لصيريني غير عاني بالنتائج .
أو أنه سيقول لي يوماً : ه لك ما شئت على أن تنفصل وأنفصل من هذا
السعر الذي أعيش فيه . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . بل ظل الرجل
يتحمل كل ما يلقاه مني في صبر . وكأن حبنا المتبادل أو زواجنا لا يزال
يلاً قلبه . وكأن ما أوجهه له في وجود أصداقنا وصدقاتنا لا يحرك شعرة من
إمانته وكرامته . ولقد عجبت لهذا الإذعان المطلق من جانبته حتى ظننت يوماً
به مدبراً أمراً صدي . وفكرت ما عسى يكون هذا الأمر لأفلسه . ولكن مر
الأسابيع والشهور أقنعتني أن إدعائه عجز . وأنه أضعف من أن يقف راسه
رأسه أمامي .

وأعجب من ذلك أنه لم يكن يناقش قط في أثناء هذه الفترة الاحيرة

في امر الطفلين وطريقة تربيتهما وتعليمهما . بل كان يقرر كل تصرفاتي بشأنهم من غير بحث . فكانا يبدآن كما أشاء . وينتهيان إلى المديسة التي أختار . وكان لمربيتهما رأي تأخذ وتعطى فيه معي حين لا يقوون هوشبثاً . وكان الأمر لا يعنيه . وكانهما ليسا ولدیه .

وكانت حالته هذه تلير إشعافي عليه أحياناً . فقد بدا لي أنه انحلت حته . وتضعضع عزمه . وتداعب إرادته فأصبح كأولئك الذين يصيبهم الانيار العصبي . فهم يبتون كل إنسان شكواهم . ولا يعرفون كيف يواجهون الحياة وأعباءها . وهم يخشون يمينهم وغدهم ويحسون الحنق في كل لحظة يهدد وجودهم . وطبيعي أن تأثر بهذا الاضطراب عمله في عيادته . وترعزعت ثقته مرضاه به . ولكن مع ذلك لم أكن مستعدة لتخفيف طفاني المالية منه . لذلك اضطر أن يلجأ إلى كبير في الدولة يرجوه أن يستد إليه منصاً شيئاً فيها . وكان هذا الكبير يعلم من أمره لكثرة ما سمع به وبته ما أثار شففته . فأسند إليه عملاً محترماً لا يحتاج إلى مجهود فكري . فهو إشراف إداري على طائفة من الأطباء الناشئين في مصلحة كبرى . وما لبثت حين علمت بذلك أن اطمأنت إلى أنني في حل من أن أمتص مرتبه هذا أو معظمه ، فطفلاي أولي به من أيهما ، ومن الواجب عليّ وحدي أن أفكر في مستقبلهما .

تري هل بقيت فيه بعد كل الذي مر به بقية للتضال ، أم تراه أصبح كالجلدار المتداعي ، لا يلبث حين تعصف به الريح أن يتقض ويتهازل . . . لقد خيل إلي يوماً أنني لو طلست إليه أن تنفصل بالطلاق فإنه لن يتردد في ذلك ، بل يتلقاه شاكراً متفساً الصعداء مؤمناً بأنه قد آن له أن يتحمل من

نحجم إلى المطهر في انتظار يوم تم عليه مغفرة الله فيه . لكنني خشيت إن
أنا أقدمت على هذه الخطوة بنفسى أن يعاوده عناد القلاح فيرفض لغير شيء
إلا التثبيت بهذا العناد . لهذا آثرت أن ألقى على صديقنا هذا اللعباءة .
فإن يحج فيه في غير مشقة فذاك . وإلا أقدمت على الحظوة الحاسمة التي
عزمتها .

ودعوت صديقنا واتفقت معه على أن يذكر لزوجي أن الحال التي
يعايبها لا تحدث . وأنه رحمة به يرى أن يخاطبني في أن تنفصل بالطلاق . وإن أنا
قلت ذلك ولم يدفعني العناد إلى لحد في الخصومة كان ذلك خيراً له ولي .
واضطلع صديقنا بهذه المهمة ونخاطب زوجي كما اتفقنا . لكنه عاد يذكر
لي أن زوجي أجفل حين سمع كلمة الطلاق وقال له : « وماذا يقول الناس عنا ؟
وماذا يكون مصير طفليتنا ؟ إفتى احتملت وأحتمل ما تعلم . وأكثر مما تعلم .
حتى لا يشمت الشامتون بنا ، وحتى لا يشتم الطفلان بأبهما لبا كغيرهما
من أبناء طبيقتهما ، وأنا لا أزال أطمح في أن يرد الصبر إلى زوجي رزاتها
وحكمها ، بل إنى لأعتقد أنها لو خوطبت في هذا الأمر الذي تخاطبني فيه
لكانت أكثر منى إنكاراً له وتقزراً من الكلام فيه » ! . . .

وعجبت لما سمعت . . . لقد كنت أتوقع أن يقتبط الرجل بفكرة انفصالنا .
وها هو ذا يفرع منها وينفر أشد نفار ، ولست أحسبه يفرع وينفر تعلقاً منه في .
أو تلبية منه لداعي محبته إياي . فلو أنه أحبنى كما أحب ليلى المجنون لما يق
قلبه أثارة من هذا الحب بعد الذي صنعه معه ! . . .

وهنا برقت أمامي فكرة آمنت بأنها التصوير الصحيح لما بعته على أن

يرفض طلاق ، لقد خيل إليه أن صديقتنا يريد أن تنفصل لأتوجه . فقد
أذاعت صديقتي هذا الحديث بعد انقطاع ما بيننا وألحت في إذاعته ، وأكبر
ظني أن ما تذيعه صديقتي يؤمن به زوجي ، ولذلك عاند وتشبث بعناده . .
نعم . . ! ذلك باعته على رفض ما عرض عليه أن تنفصل بالحسن . أما بذلك
شأنه فلم يبق لي مفر أن أنفذ حطتي . ولا أظنه يستطيع مقاومتها . ولو جمع
في نفسه مكر الفلاحين جميعاً ، بل مكر النساء جميعاً .
وقررت أن أنفذ هذه الخطة منذ غد ! . .

الانفصال السليح

لزوجي أصدقاء كثيرون من خيرة طبقات القاهرة يجتمع بهم في ناد من أئليتها . وقد كان يتناول طعامه في هذا النادي في أثناء غيابنا في أورما . كما كان تناول بعض وجباته فيه إذا اضطره عمله للتخلف عن الحضور إلى المنزل في الظهر أو المساء ، أو لو حملته على أن يتناول أكثر وجباته هناك . ومكنت بذلك في إيماده عنا وعن المنزل ، فولا يشعر بالوحدة شعوراً يحد عليه أن يقبل الانفصال الذي أريده .

وتفليذا لهذا التصعم كنت كثيراً ما أطلبه في المساء في النادي وأبليقه أن المنزل لا طعام فيه ، وأنه إن شاء أن يتناول طعاماً فليتناوله في النادي . ولعله لم يكن يضيق بذلك ويتأذى منه ، ولعله كان يجد فيه فرصة لإطالة المقام بين أصدقاءه ، فإذا جاء إلى المنزل في موعد النوم لم يزد على أن يبادلني تحية المساء ويلعب إلى غرفته . ولم أكن صادقة في كل المحادثات التليفونية معه ، فكثيراً ما كان يتناول العشاء معي في تلك الليالي أصدقاء وصديقات يسر زوجي بالوجود معهم ، وفي هذه الليالي كنت أشد حرصاً على بقائه بعيداً عن المنزل حتى لا يجد ما يحبه فيه ويدعوه إليه . . .

وللمصادقات في حياتنا الإنسانية تصاريح عجب ، فقد كلمته ذات

مساء ليتناول طعامه في النادي ، وكانت هندي لديها وليمة دعوت إليها عدداً من أصدقائي الذين يسرون بلفاقته ، فلما حضروا ودعينا إلى المائدة سأل بعضهم عنه فذكرت أنه اعتذر لي في اللحظة الأخيرة لأمر طراً عليه . وإتنا لتناول الطعام إذ دخل هو علينا ووقف واجماً ينظر إلى هذه المائدة الفاخرة ويذكر قولي له إن المنزل لا طعام فيه ، وأخذت حين رأيته في موقفه منها وكنت أضطرب ، لكنني ملكته نفسي وقلت في عبارة حاسمة إنه لا مكان له على المائدة ، وأراد بعض الحاضرين أن يفسح له مكاناً فقلت في لهجة الحزم : « فليبق كل في مكانه ، أما هو فلا مكان له بيتنا » . وساد الحضور ، وبهم صديقنا ، وجوم استمر حتى خرج زوجي من قاعة الطعام معتذراً في ابتسامة متكلفة بأنه أكل قبل أن يحضر إلى المنزل ، ثم عدنا إلى أحاديث نافهة نقطع بها جو هذا الوجوم .

وفي الند تناول زوجي طعام الظهيرة خارج المنزل ثم جاء مبكراً في المساء فألقاني وعبدة في غرفة نومى وقد تزييت لسريري زينة كلها الإغراء . وقد ألف يحكم مهنته أن يجلس على سرير المريض حين يفحصه ، وكثيراً ما كان يجلس إلى جاتي هذه الجلسة فيها مضى . أما اليوم فلم يفعل ، بل جر كرسياً إلى جانب السرير جلس عليه وارتم على وجهه من سبب الحزم ما لم أتعبه منه قط ثم قال : « اسمعى ، إننى أريد أن أحدثك في هدوء فأياك أن تفسدى على هدوئى ! . . إن ما حدث منك أمام ضيوفك أسس لا يصدر عن سيدة ولا عن امرأة من حثالة الناس . . لقد تحملت منك ما تحملت حتى اليوم لغير سبب أعلمه ، ولقد تحملته لا خوفاً منك . ولكن خوفاً عليك .

وحيداً عليك من نفسك . فأنت امرأة مريضة النفس . لا تنظرين إلى
الحياه بالعين التي ينظر بها الأصحاء . بل متأثرة بماملين ها مصدر عثلك
وسبب مرضك النفسي . هذان الماملان ها : العرور والغيرة . برغم ذلك
أحييتك ولا أزال أحيك ! . . . وحى إياك ، من أجلك ومن أجل طفلك .
هو الذى يجعلنى أحتمل منك ما احتملت . وأن أصر عليه ما بقى أمره بينى
وبينك . آملاً أن يشعرك الله يوماً فيتوب إليك رشداً . أما أن يبلغ الأمر
إهاتى على نحو ما حدث أمس فذلك ما لا قيل لى باحتماله . ويجب أن
نعلم أن هذا البيت بينى أنا . وأن الدين يدخلونه يدخلون بينى أنا .
وأنت تقيمين فيه وتدعين أصحابك إليه لأنك زوجتى وأحببتك تقرين هذا
ولا تجهلينه ، فلو أننا انفصلنا غداً بالطلاق كما طلب إلى صديقنا أن أفعل
لما بقى لك فى هذا البيت مكان . ولا استطعت أن تستقبلى فيه أحداً .

كنت أسمع كل كلمة من كلماته هذه وكأنها خنجر يطعننى فى صميم
كرامى . ولكنى كظلمت غيظى وحبست دموعى حتى إذا أتم مقاله أجبته فى
هدوء . . . وماذا عليك إذا أرحت نفسك وأخرجتنى من هذا البيت ليكون
لك وحدك ، أولئى برضى قلبك أن يحل فيه مكانى . . .

لم أكد أتم هذه الكلمه حتى رفع يديه وقال . « الآن أيقنت أنى أخطئ
فى تقديرى ، فصديقنا لم يحضر ولم يكلمنى فى طلاقك من تلقاء نفسه ،
بل اتفقنا معاً لغرض نضمرانه ، لكنى لست من السذاجة بما تتوهمان . إتنى
لن أنيلكما ما تبتغيان ولئى أجعل نفسى وأجعل طفلينا أحدوة الناس ،
كلا ! . . لن أفعل ، لن . طلقك وإن تحملت فى سبيل إمسائك أضعاف

ما نَحْمِلُ . . . كلا ! . . . لن أنيل هذا الجاحد للأخوة الحائس للصدقة ما يريد .
أو تستطيعين أن تقول كيف عرفته . . . أولم يكن صديق الحميم وأنا الذي قدمت
إليك واتمتته على شرفي وعرضي واتخذت منه أخاً فخاف مودتي وتسلل إلى
قلبك مكاني . ياله من غادر مخادع ! إن أحزنك مغبة السيرواؤه والانخداع
بعمرك كلامه . . . إنك لا تزالين في أعين الناس السيدة المحترمة الشريفة التي
تحمل اسمي فلا تدعي هذا الماكر الخائن نعت في فؤادك سمومه . ويدع
الناس يقولون عليك ما أنت بريئة منه . وينهمونك باطلا وأنت الطهر والعفاف
والكرامة والشرف ! . . .

وها بدأ الرجل يضطرب كأن به الحمى . وأمسك برهة عن الكلام .
ولم أجد وهو في هذه الحال ما أجيبه به : فقد غلبتني الرأفة بحاله ونشيت
إن أنا قلت شيئاً أن يزداد اضطرابه

وبدا عليه شيء من الهدوء الظاهر ، لكن نفسه كانت تعذب ، وكانت
عيناه تمان عن هذا العذاب الذي يتأجج في صدره ، ولقد مر بخاطري في
أثناء صمته أن تميب لوائه ثار هذه الثورة منذ شهور وسنين ، وتمنيت لو أنه
يومئذ حطم كبريائي وإن أدت به الحال أن يضربني ، فلو أنه فعل يومئذ
لاعتقدت أن لي عنده مكاناً وأنه يريد أن يدافع عني غيرة على . وإن
لتعرتي هذه المخاطر وأشباهاها إذ رأيته يمد يده ويسحب يدي في رفق ويقول .
وقد تنلت عيناه ، وانخفض صوته : والله حبريني ، لم تعامليني هذه
العاملة ؟ . . . إلى لا أزال أحبك كما أحببتك يوم زواجنا ومن قبل زواجنا ! .
وهذا الحب هو الذي يجعلني أحتمل منك ما لا يمكن - لولا الحب -

حياته ! . . . أو يرضى قلبك أن يسخر بصديقنا فينكر ما صننا ويكر أبين
نصليته ؟ بالله عليك ! بحق هذين الطفلين العزيزين ! . . . إلا ما راجعت نفسك
ونفت الله في نفسك وفينا جميعاً ! . . .

كذبت أشفق عليه وأصعب لضغفه . بل كذبت أتلعطف معه وأعتذر
عما يفر مني أمس له . ولكني ما لبثت أن رأيت حبيب صديقي يبتدى في
خيالي ويخفف في عيني عبرات كانت تؤشك أن تتحدر . عند ذلك سحبت
يدي من يده واستويت جالسة في سريري ونظرت إليه بعينين انقلب حناهما
حزماً . بل قسوة . وقلت : « يرحمك الله يا صديقي ! لقد كذبت تمس قلبي
كما لم تمسه من قبل قط . فإني عهدتك في كل ما خلا من سني حياتنا تنقن
التحليل المسرحي وتستطيع أن تتلاعب بالعواطف ! . . . أما اليوم فما أيرعك
مثلاً تنقن الأدوار المتناقضة . فأنت « روميو » وأنت « عطيل » في وقت
معاً . . . أتراك لعب بك إغرائي ، وأنا في هذا السرير فانتقلت من التهديد الذي
حفظت دوره قبل أن تحضر إلي ، إلى الاستعطاف وإلى الحديث عن الهوى
والغرام . وإني لأسال نفسي ، ولك هذه القدرة : أي دور تمثل حين تلقى
صديقي ؟ . . . أحسبك حين تراها لا يبق أمامك من الوجود كله سواها :
هي أمامك الشمس والقمر ، ولعلها في نظرك أبهى من الشمس والقمر ! .
أبقتك عبارتي الأخيرة فنظر إلي بعينين فيها عطف وفيهما حزم وقال :
« حسبك الله يا ظالمة ، فأنت تعلمين أنني لو أردت أن أتزوج صديقك بعد
وفاة زوجها لما عزت نفسها علي ، وأنتي لو أردت أن أتزوجها بعد أن بدا اليأس
لها من صديقنا لاستجابت في غير تردد ، وأنتي لو أردت أن أتزوجها اليوم

أوغداً لقبيلتي في اغتياط أي اغتياط ، لكنني لم أفكر قط في أن أتزوجها .
ولن أفكر في ذلك . . فهي لي منذ مات زوجها بمثابة الأخت المحرمة علي .
وأنت تعلمين أنني أعرفها وأعرف أسرتها منذ بدأت أمارس مهنة الطب . ولعلني
فكرت في أن أتزوجها قبل أن أعرفك وأن يكون بيننا من الود ما أدى إلى
زواجنا . ولم أجرب عليها من يومئذ إلى اليوم ما يحس شرفها وعفافها برغم
ما تهم به من حفة وبرغم جمالها الفاتن . فبالحق عليك لا تسرق في تصوير
عواطفي نحوها . فعواطفى كلها لك ، وليس بيني وبين صديقتك إلا الإخاء
يدفعني إليه سابق معرفتي بها وبأسرتها وبزوجها . . .

دهشت لهذا الدفاع الحار عن امرأة قاطعتني وأذاعت في كل مجتمعات
القاهرة ما أذاعت عني ، فلو أن عواطف زوجي كانت كلها لي كما يقول لغضب
لي من صديقتي ولما ذكر جمالها الفاتن ورفيقه يتحطب ، وكأنما يريد أن
يطير إليها ليستمتع بنظرة من عينيها الساحرتين ، لذلك قلت له . « إنك
يا صديقي لست ممثلاً بارعاً وكفى ، بل أنت محام بارع كذلك ، وكنت أود أن
تكون قضيتي أقرب إلى قلبك من قضية صديقتي فتدفع نحرصاتها عني في
كل مجالسها بهذه الحماسة التي تدافع بها عن عفافها وشرفها » . . .

وبعد هنية أردفت : « ولو أنني أردت أن أدافع عن صديقتنا - كما تدافع
أنت عن صديقتي - لما أعورتي الحجة الصادقة . فهو لم يخونك كما تزعم
ولم يحاول التسلل إلى قلبي ، ولكنني أشعر بأن حديثنا الليلة طال ، وأن من
الخير أن تسحب أنت إلى غرفتك وأن تدعني أسريح في مخدعي » . . .
وابتسم هو وقد بدا عليه شيء من الاطمئنان ، أو من الإذعان ، وأطفاة

مصابيح الفرة . وحاولت أن أنام فذهبت محاولتي عبثاً . فقد أخذت
تستعيد الحديث الذي دار بيني وبين زوجي كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ، ثم أخذت
تفكر كيف أواجه هذا الموقف . فلو أن هذا الحدث جرى بيننا قبل أن أوجه
إليه في وجود أصدقائنا تلك الإهانة التي أدمت قلبه ودفعته لما فعل لكان لي
فيه رأى . أما وقد شرع بآتي أتعمد إخراجيه . فأراد بما فعل أن يفسد خطتي
فلن أمكنه عما أراد ! . . لقد تحطم ما بيننا منذ عهد طويل ، وهو قد واجهني
خلال هذا العهد كله بمسود يدل على أنه لا يحس تحوي بأي عاطفة ،
فجيشه اليوم بعد اللطمة القاسية التي نالته مني يتحدث عن قلبه ووجهه لسر
إلا أحبولة يتوهم بها القدرة على تغيير ما استقر عليه عزمي ، وذلك مالا سبيل
إليه ! . .

وفكرت فيما عساي أفعل في هذا الموقف الذي خلقه هو بأسلوب لا يغلو
من براعة ، واستقر في الرأي بعد طول الروية على أن أكتب إليه خطاباً يكون
عريضة اتهام ، وإنذاراً نهائياً في الوقت نفسه ، وأردت بالفعل أن أبدأ الكتابة
رغم تقدم الليل ، ولكنني شعرت بالجهد . فأطفاأت الأنوار من جديد ولزمت
سريري ! . .

وكان النهار ضحي حين استيقظت في الغداة أجمع أعصابي المهتمة ،
وسألت عن زوجي فإذا هو قد استيقظ وتناول فطوره وخرج كما دته إلى عمله ،
وشعرت بالفضيق يكاد يخنقني وبال حاجة إلى الهواء أنفسي ، وكان المنزل
على سمته لم تبق فيه أثارة من هواء . ولذا قمت فتناولت فنجاناً من اللبن
والقهوة واكتفيت به عن كل فطور ، وخرجت إلى الشوارع ألتبس فيها

متنفساً ، وجعلت أسير حتى انتهيت إلى حدائق الجزيرة ، هنالك وقفت على شاطئ النيل أستنشق الهواء ملء رئتي أسترد به نشاطي وهدوء أعصابي ، ولم ردت إلى حيويتي أخذت أفكر فيها حدث أمس وفي الخطاب الذي أكتبه إلى زوجي .

ولم تطاوعني نفسي على العودة إلى المنزل ساعة الظهيرة . وتامعت السير حتى بلغت حديقة الحيوان ، فدخلتها وذهبت إلى جزيرة الشاي وتناولت فيها طعام الغداء . حالسة إلى مائدة على حافة بحيرتها الصغيرة ، ونظري كله إلى الماء وإلى الطيور الجميلة التي تعوم فيه ، وفكري مشتب يحاول أن يجمع ما يحويه حظائي إلى زوجي ، فلما كانت ساعة الشاي أقبل قوم وعليهم سيا المرح وفي أصواتهم زئير المسرة ، وأقصدت ضيقتهم الطروب على خلقي فتاهرت مكاني وخرجت من الحديقة وناديت سيارة أقلتني إلى المنزل . . .

فلما احتواني المنزل عاد الضيق يأخذ بحناتي ، فذهبت إلى غرقي ، وجلست إلى نضد زيتي وهبات منه مكتباً ، وأحطب أدون ما أريد أن أكتبه لزوجي . لقد كانت الكتابة تستعصي عليّ حين أُلجأ إلى الحجة والمنطق ، فإذا أرخيت العنان لساخطي وما تتنفس عنه اندفع قلبي لا يكبر ولا يتعثر . سطررت بضع صفحات أعدت قراءتها فإذا هي ليست عريضة اتهام وكفى ، بل تأنيباً موجعاً في لهجة مقذعة لا تتفق وبألوف رزائي واتزان ، ولا مع الهدوء الذي حاول زوجي به أن يصوغ كلامه لي ، لذلك أعدت الكتابة وحاولت التخفيف من حدتي . لكنني لم أستطع أن أكون هادئة ولا موجزة .

من كنت عشرات من الصحف كانت سطورها تتدافع إلى قلبي ولا تكاد
 سى تحاربها في سرعة تدفقها لتلوي كل كلمة من كلماتها . فلما قرعت من
 تدوين الكتاب وراجعت بعث به إليه وأقمت أنتظر النتيجة التي يرتبها عنه .
 ولست أريد أن أقفل نص ذلك الكتاب إلى هذه القصة . وأنا كلما
 تلويته بعد السنين التي انقضت على كتابته خجلت وتولتى الدهشة كيف
 استطعت أن أفرغ كل ما فيه من قحة وإقذاع ! وحسبي أن أذكر أنني قلت
 فيه إنني لم أشعر بالسعادة منذ زواجنا يوماً من الأيام . وإن مسلكه فيما ادعاه
 من معاونته صديقتي للحصول على ميراثها وميراث أبنائها كان معاً دنساً .
 وإنه أهملني وأهمل ولدينا وكأننا من سقط المتاع . وإنه عاملني كما لو كنت
 خادمة أبيه . وإنه كان يقتبط بسقري إلى أوروبا ليخلو له الجوليبدفع في تيار
 أهوائه ومفاسده . وإنه ضيق التفكير ريفي العقلية إلى الحد الذي جعله يقول
 لي في آخر حديث له إن هذا البيت بيته وإنني أقم فيه بأمره وإذنه وتسامحه .
 وذكرت أنني لن أبقي في هذا البيت ولن يعرف هو بعد ذلك مفرى ، وأنه
 يستطيع إن شاء أن يطلبني إلى بيت الطاعة ، وإنني أتحداه أن يفعل ليتيح لي
 فرصة الدفاع أمام القضاء عن نفسي وعن حياتي التي حطمها ، ولأنه يمكن بعد
 ذلك أن أطلب الانفصال عنه ، ويومئذ لن يتردد قاض في المحكم لي .
 ثم يعلم الناس كم قاسيت في سبيل المحافظة على سمته وسمتي . لا حياً
 يباه ولا حرصاً على الحياة معه ، لكن من أجل طفليتنا حتى لا يصيبهما
 رشاش من مسلك أبيهما للشين .

ولم أخرج حين الحديث عن معاونته صديقتي في أن أصفها بما أعتقد

أنها أهل له ، وأن أذكر أن صلاحه بها أوجت بها الأهواء ولم توح بها المروءة ولا الإنسانية ! كما أنني ذكرت له أنه سبني سباً قبيحاً حين تكلم عن صديقنا وزعم أني دبرت معه أن يتجسس إليه في أمر طلاق منه لغرض في نفسنا . وأعدت في خاتمة الكتاب أنني لن أراه ولن أسمع له بأن يراني . وأني لن أبقى في بيت يسميه بيته ، وأنه لن يعرف لي مقراً ، وأني أحقر نفاقه حين يزعم لي أنه لا يزال يحبني ، وأنا أعلم علم اليقين أن قلبه لغيري ، هذا إن كان قلبه يعرف الحب ، أو يمل عليه عاطفة كريمة صادقة !

ماذا كان شعوره حين قرأ هذا الكتاب ؟ لا أدري ، لكن صديقنا جاءني بعد أيام يقول لي إنه التقى زوجي مصادفة ، وأنه رآه في حال من الهم والأسى تثير الشفقة ، وأنه تحدث إليه محاولاً أن يخفف عنه فإذا عياه تلعبان . وإذا هو يخرج من جيبه خطابي ويدفعه إليه ويطلب إليه أن يقرأه . قال صديقنا : « وقد تصفحت بعض صفحاته فأدهشني أنه لم يحضر إليك ولم يضربك ولم ينتقم لنفسه من بداعة لم أقرأ ولم أسمع قط مثلها من سيدة أو امرأة من السوق أو سواد الدهماء ، ولو أنه فعل لما استطعت إلا أن تعتري له عن هذا الطيش الجنوني الذي أملى عليك ما كتبت ، أنت حرة في أن تكرهه أو تحبيه ، لكنك لست حرة في أن تهيبه وتهيبه » . . .

قلت : « أترك عارذتك نزواتك السابقة حين أردت أن تتزوج من صديقتي ، وأن هذه النزوات هي التي دفعتك للتطاول على الساعة »

نظر الرجل إلي في صمت حين سمع مني هذا الكلام نظرة تأنيب وعتاب . ثم استدرك هذه النظرة بعد برهة وقال : « وماذا يعنيك أنت من أن تعاودني

بروتى أولا تعاودنى ؟ أم تريدان أن تسمعى منى مرة أخرى أتى لن أتزوج
صديقتك ؟ إذن دعنى أتى لن أتزوجها ! . . . نعم ! . . . لن أتزوجها .
وليس ما تنهين من تزواى هو الذى دفعى لأخطبك بهذه اللهجة التى
خطبتك بها . لكنك أسرفت فى إهانة رجل لا يسوع لك أن تهينه وأنت
لا تزالين زوجته وله عليك حقوق أيضا بحرامه ، فالزوجة قد لا تستصعب
أن تحب زوجها . ولكنها لا حى لها بحال أن تهينه . أفهمت الآن سب
ما سمعته نطاول عليك ؟ . . .

هذه كلمات عاسية لم أسمع من قبل مثلها . لكنها نزلت على برداً وسلاماً .
أكان ذلك لأنه أكد من جديد أنه لن يتزوج صديقتى ؟ . أم لأنه خالف
بزجره إياى ما ألفت من جمود زوجى ؟ لا أدرى . لكنى ابتسمت حين أتم
كلامه وقلت : « ما أظرف حديثك وما أرق كلمات لسانك » . ثم نظرت
إليه فى غث نظرة حرصت عيناى على أن تكذب بها لسانى وأضفت . .
« وأنى شأن لى إن أنت تزوجت صديقتى . اللهم إلا أن تكون حربصاً على
أن نعى معك لزيارتى » . وازدادت ابتسامتى وضوحاً وتظلمتى خبثاً وزدت . .
« هذا إلا أن تخشى أن يكون عندى قريبى الذى رأته معها فى السبارة »

وكان كل جواب الرجل : « دعينى من صديقتك فقد انقطع ما بينى
وبينها كما انقطع ما بينك وبينها . لكنك ذكرت فى خطابك لزوجك أنك
لن تبقى بهذا البيت ، على أير تذهين ؟ . . . وهلا تحشين ما يقول الناس
عليك وأنت لا تزالين فى عصمة زوجك ، ولا يزال هو مصراً على إمساكك ؟ . . .
قلت . « أما أتى سأترك هذا البيت فذلك أمر فرقة ولا رجعة فيه »

ولست أخشى ما يقوله الناس لأنهم لا يعلمون ما عاشت هنا ، فقلوب الناس
 كالحجارة ما دام الأمر لا يمسهم ، وإن أوقف هذا الأمر من بعينه على حافة
 اليأس ودفعه إلى الانتحار ، لقد دبرت أمري في سر ، ولعل لا أضن عليك
 أنت بـسرى ، يوم يصبح أمراً مقضياً ، فأنت وحملك الذي أجد في التحدث
 إليه السلوى عن بلوى ومتقذى من عزلة يحاول روجي أن يضرب نطاقها
 حولي بما يذكره إلى أصدقاتنا عبي ، فأنا أعلم أنه تحدث إلى غير واحد من
 هؤلاء الأصدقاء عن الخطاب الذي بعثت به إليه وذكر لهم شر ما فيه ،
 لكن ما يقوله لم يعد يعنيني وقد انحسم ما بيننا ولم يبق سبيل إلى غير انفصالنا .
 وتركني صديقنا بعد حديث حاول به أن يردني إلى ما سماه الصواب ،
 فلما خلوت إلى نفسي أخذت أقلب صفحاتها وأنا مضطربة المخاطر حيناً ،
 هادئة حيناً ، وعدت بداكرتي إلى حديث زوجي الأخير معي ووقفت منه
 عند كلامه عن مرضى وعقلي ، وأن الفرور والغيرة هما مصير هذه الملة ،
 عند ذلك ثارت نفسي وسمعت بأذني صوتي وأنا أقول : « يا بؤسي لهذا
 الرجل ! . . أو لوصح ما يزعم أفلا يرضيه أن أغار عليه ! . . أم يريد أن
 أصنع منه فاختار رجلاً غيره أصفيه مودتي وأهيه قلبي ، أم تراه يحسبني
 بعض متاع هذا المنزل ، يسكن إليه متى شاء ، ويدعه متى شاء ، ويركله
 برجله أو يلقيه من النافذة إن أراد ؟ ! . . إن يكن ذلك وأبه فليبحث عمى توافقه
 عليه ، ولألقين عليه درساً لن ينساه ما عاش ! . . . »

وشغلت بالضمير في ترك هذا البيت الذي يسميه بيته ، فأين أذهب ؟
 وكيف أتخذ ما ذكرته له من أنه لن يعرف لي مقراً ؟ . . ليس ذلك يسيراً إن

أنا بقيت بالعاصمة . . وليس يسيراً كذلك في مدينة صغيرة تثير أفعه الحوادث
فيها طاعة ساكنيها ، فهم يتحدثون عنها . وتتركها الشهم ويتناقلونها ،
فلا يبقى فيهم صغير ولا كبير لا يعرفها ! . إذن فليكن مقرى الجديد
بالإسكندرية ولاذهب إليها أبحت فيها عن مسكن لى وللمطلقين . فالإسكندرية
مدينة فسحة الأرجاء مترامية الأطراف ، وحسبى يوم أقيم بها ألا أختلط
بأهلها وأن أجعل مقامى فى حى ناه من أحيائها ، وأسأتحلف صديقنا
يوم ابوح إليه بسرى ألا ابوح به لأحد ، ولن أقبل منه إلا أن يقسم بقبر أمه ،
فذلك قسم لا بحث هو به أبداً .

فلما صبح منى العزم ترددت على الإسكندرية ، ثم اخترت فى ضاحية
من ضواحيها النائية بيتاً صغيراً أنيقاً تحيط به الأشجار ، وكأنا بناء صاحبه
للغرض الذى أقصد إليه ، وبعد أيام مررت صديقنا فأخبرته بما فعلت بعد أن
أقسم لى بقبر أمه أنه لن ابوح بسرى ، وبعد أيام جاءت إلى المنزل عربية من
عربات نقل الأثاث حين كان زوجى فى عمله فقلت ما أخذت إلى الإسكندرية
وقبل أن يحضر زوجى كنت قد سافرت أنا والمرية والطاهى إلى مقرنا
الجديد ! . .

وتنفس الصعداء حين نزلت بيتى أنا ، لا بيت زوجى ، وشعرت كأن
عبثاً ثقيلاً قد انزاح من فوق صدرى . واستنشقت رشاى هذا الهواء الجديد ،
هواء الحرية المطلقة ، ونخيل إلى أن السعادة أصبحت فى متناول يدى ، وأنى
ألقيت ما كان يساورنى من هموم فى لجة البحر الزامى بموجه المصطخب
أمام نظرى . وزاد فى غبطتى أنى رأيت طفلى مقبطين بهذا الانتقال كأنما

كانا يعانيان ما كنت أعاني وبضيقان بالجراح الخائف الذي كنت أصيب به .
وبعد أسبوع أو نحوه جاء صديقنا يزورني ، فلما رأى المنزل ونظامه
هتأني على حسن اختيارى . ثم تحدثنا في شئون حرص من ناحيته وحرصت
من ناحيتي على ألا نشوئها بشيء من ذكرى الماضي ، وقد حمدت له
عنايته بسؤالى عن الطفلين وأية مدرسة اخترت لهما ، ونصحه إيمائى أن تحفظ
بمرييتهما . وانقضى الوقت وأنا أقص عليه في مرح كمرح الأطفال ما أجده
في هذه الحياة الجديدة من مسرة . أسرها جلوسى إلى شاطئ البحر . أسمع
إلى صريف أمواجه . وأستنشق طيب هوائه . وأمد ببصرى إلى آفاقه التي
لا تنتهى ، والتي تعجب في طياتها غيب السموات والأرض .

أتاح لى هذا الهدوء الذى اشتملنى أول مقامى بالإسكندرية ، لبعده
عن موطن النضال وما يشهده النضال في النفس من غضب ، أن أسبر غور
نفسى لأستظهر عواطفى . لقد بذلت الجهد في مقاومة صديقتى ، أريد أن
أستخلص من برائتها زوجى لأختصه خالصاً لى ولولدى ، غير مطمئنة
لتوكيده المتكرر لى أنه لا يحبها ولا يحب غيرى ، وأن تردده عليها عبارة بشأن
أولادها لا تشوبه قط رية . وقد بقيت أمقتها برغم شعورى في أعماق روجى
بأن حبائياً قام بينى وبين روجى بحول دون تألقنا وامتزاج قلبيته ، وقد بلغت
قسوفى في مقاومتها ذروتها يوم أوحيت لى صديقتنا فذهب إلى الصحراء فألفاها
في سيارة مع قريبى ويدها بين يديه ، ورأسها على كتفه ، فأفسد ذلك عزمه
على الزواج منها . وكان هذا الزواج موشكاً أن يتم . وأنا إن أحسست في
نفسى ميلاً لصديقتنا واستلطافاً ، فلم يبلغ هذا الميل وهذا الاستلطاف مبلغ

لحب تبنى حيز لصاحبه أو لصاحبه المعامرة مثل ما فعلت ولا احب
عيرى من جماعها باعنى على هذا النضال وهى نرائى تحركى عيرة من مثله
ولم يفتن جماعها الساحر حائلا دون فتنة المعجيين فى وقد فتنيهم جاذبيتى وذكائى
وسحر حديثى وسائر مواهبى ! . . . وحسبى أن أذكر الألمانى الذى كان يجالسنا
معاً بالاقصر وكيف دفعه ذكاؤه وواسع علمه وسعة أفقه ففتن فى وسحره حديثى
ولم يفتن بها ولم يسحره بجماعها . فما الذى حركنى إذنى إلى هذا النضال ؟ . . .
لم أهتم إلى جواب على هذا السؤال بعد أن جهدت أياماً حوسماً التمس
الجواب عليه . وعند ذلك أثرت أن أدعه وأتقنه أن الزمن سيكشف لى عن
هذا الجواب . وعدت إلى طمأنيتى السانقة الجميلة . وقد زادت حياتى
الجديدة فى سعادتى بها واستراحتى لها .

كان صديقنا يزورنى فى عطلة آخر الأسبوع مرتين على الأقل فى كل
شهر . وإنا يوماً لتحدث إذ فتح الباب . ورأيتنا زوجى وكأنا يريد أن يدخل
علينا . وأجفلت لمآه ونولتني الحيرة ماذا أصنع ؟ لكنه لم يدع لى فرصة
للتفكير ، فإنه مالبث حين رأنا أن اوتد على عقيه وأن أقفل الباب الذى فتحه .
وأن هرول مسرعاً إلى خارج الدار حتى نخلت أنه طيف لا حقيقة له . وأن
خيالى هو الذى صوره لى . لكننى صدمت بهذه المفاجأة صدمة هزت
أعصابى . واضطر صديقنا أن يدعو المربية لتسعينى . وانقضى وقت غير قليل
قبل أن أسترده هدى . فلما سكنت نفسى . واستطعت أن أفكر وأن أتكلم قلت

كيف اهتلى هذا الرجل إلى المنزل ، وكيف سولت له نفسه أن يصعد

إلى هنا ؟ . . .

ولم يكن صديقنا أقل متى حيرة ولا دهشة ، فهو لم يروحي منذ أطلعه على خطاىي ولم يحدث له من أمرى ذكراً . من ذا الذى هداه إذن إلى بيتي ؟ . . . وهل تراه يريد أن يفسد على حيانى من جديد بعد أن تركت له العاصمة كلها . وما فيها ومن فيها ؟ . . . لقد كان يخشى قالة الناس فينا إذا هو سرخنى ولم يسكنى . أما وقد حسمت ما بينى وبينه هذا الانفصال من غير طلاق فما مطاردته لى . كأننى سجين هارب من سجنه ، ولا عفر من إعادة القبض عليه ! . . .

انصرف صديقنا حين أوشك النهار أن يولى ، بعد أن حاول ما استطاع أن يهون على ما حدث . فلما خلوت إلى نفسى ارتسمت أمامى صورة زوجى ساعة فتح الباب علينا ووجدنى فى خلوة مع صديقنا . وكاد يتولانى الدوار من جديد ، ترى أى ظنون قامت بذهنه لهذا المنظر الذى لم يكن يتوقعه ؟ أم تراه جاء وهو يعلم بوجود صديقنا عندى فأراد أن يظهرنى على أنه يعلم من أمرى ما أردت ستره ؟ . . . أم أنها المصادفة البحتة هى التى ساقته فى تلك الساعة وأوقعتنى منه موقفاً أرتج على فيه فلم أستطع أن أقول كلمة ، ولم أستطع أن أزجره لانتحامه على بيتا هوييتى وليس بينه ولا شأن له به ؟ . . . وكذلك أخذت أقلب هذا الأمر فى نفسى ، ثم ترسم بين آونة وأخرى أمام خيالى تلك الصورة التى أثارت انزعاجى ، ترى أين ذهب بعد أن ولى مدبراً وأقلع الباب وراءه ؟ . . . هل ذهب يدعو من يشهد ما رأى ؟ لكن أحداً لم يحضر ، وهل تراه غادر الإسكندرية أم بقى بها ؟ . . . وهل أستطيع أن أراه لأؤنبه على فعلته المنكرة ؟ . . . وجفا النوم مضجعى تلك الليلة لكثرة ما فكرت فيما عساى أصنع وكيف

أستطيع أن أعلم كيف عرف زوجي مقرى . ولم يغمض في حفن حتى الفرج
 الأخير من الليل . فلما استيقظت ضحى الغد تناولتني مربية أولادى خطاباً
 عرفت لأول ما رأيت عنوانه أنه من زوجي . وتوقعت قبل أن أفتحه أن أقرا
 فيه من فحش القول وهجر الكلام مالا أستطيع الرد عليه . وما لزوجي كل
 اعتذري أن يقوله . فلما فتحته وتلوته انقلبت محاور دمهشة وصعياً . وتولاني من
 الحيرة ما كاد يذهلني . فهو كتاب موجز كل الإيجاز . وفيه يقول زوجي بعد
 تحية ودية إنه لم يحضر إلى بيتي لحظة قامت بنفسه كما قد أتوهم . ولكن
 عليه واجبات بصفة كونه زوجاً وأنا لا يمكن أن يحملها ، ولا بد له من أدائها .
 ويسألني أن أفكر لصحتي وصحة الولدين أن أسافر إلى أوروبا هذا العام
 لبيعت لي نفقات السفر كما عودني ؟ ويختم خطابه : زوجك الرقي للمخلص .
 لم أصدق عيني حين تلوت الكتاب ، فأعدت تلاوته مرة ومرة ومرة
 ثم شعرت بمد هذه التلاوة وكأني هويت من أعلى السحاب ! يا عجباً ! . .
 أولو كانت في يد هذا الرجل طيبتجة أفرغها في رقي صديقنا ، أفكان يلومه
 أحد ؟ . . أولو كانت معه هراوة أدارها علينا ثم طرد صديقنا كما يطرد
 الكلب ، أفكان الناس جميعاً يرونه محقاً ؟ . . أولو كان قد وجه إلينا أقبح
 الشتائم وأقذع السباب ، أكان في مقصودنا أن ندافع عنا بكلمة ؟ لكنه لم
 يفعل من ذلك كله شيئاً ، بل انسحب وكأنه لم يرنا . وما هوذا يبعث إلى
 بذلك الكتاب العجيب يريد أن يؤدي واجب الروح والأب . ويعرض على
 أن أسافر إلى أوروبا . . أستطيع مع ذلك أن أهدم الرد عليه ؟ وإذا رجعت
 فإذا أقول ؟ ! . .

وأسندت رأسي برهة إلى مقعدى أفكر فى الأمر . على أننى ما لبثت
 أن مر بغيالى أن يكون هذا الخطاب أحيوة نصب لى شباكها . فلو أننى
 قبلت ما عرضه لكان ذلك أقوى سند له إذا أراد أن يكرهى بحكم القضاء
 على العود إلى بيته وإلى طاعته . فأرفض إذن ؟ . ولكنى إن رفضت
 أسقطت حجتى فى مطالبته بتفقي وتفقة الطفلين إذا اقتضى الأمر ! . .
 وإنى لأفكر فى هذا كله إذ جاء صديقنا يلغى أنه عائد إلى القاهرة . ويسألنى
 أنى حاجة أنا لأى رأى أو معونة . ولعله أراد أكثر من هذا وذلك أن يرى الأثر
 الذى تركته مفاجأة زوجى فى نفسى بعد انقضاء يوم كامل عليها . فلما أربته
 الخطاب وتلاه تولاه من الدهشة ما تولاى . وأخذ يقلب الأمر معى على
 وجوهه بعد أن ذكرت له ما ثار عندى من ظنون . . ثم إننا اتفقنا على أن
 أكسب له فى إيجاز كتاباً أقول له إنه أدرى بواجبه أكثر منى . وإن طيه يسمح
 له بأن يقدر حاجة الولدين للسفر إلى أوروبا . فإن رأى ذلك ورأى أن أسافر
 معهما للعناية بهما فإتنى لن أقصر فى القيام بواجب الأمومة . وأنهنس به
 كما ينهنس هو بواجب الأبوة . أما إن رأى يقام الطفلين بمصر فلا اعترض لى
 على ذلك . فصحة الولدين غاية هنى . والعناية بهما مصدر سعادتى وهنائى
 على أن كتاب زوجى وردى عليه لم يهدياى إلى جواب عن سؤالى :
 كيف عرف مقرى ؟ . . وقد عرفت من بعد أنه علم بتزدد صديقنا إلى
 الإسكندرية فأيقن أنى أقمت بها . فاتصل بمحافظها . وكان صديقه .
 وطلب إليه أن بدله على عوانى . ولم يجد المحافظ مشقة فى الاهتداء إلى حيث
 أقيم . إذ سأل رجال الإدارة فى أحياء الإسكندرية جسيماً فجاءه من أقيم فى

حيه بالعنوان فأبلغه إلى زوجي ، عند ذلك أيقنت أن من يعيش في جماعة
مظلمة يصعب عليه أن يحتفظ بأسرار حياته ، وخاصة ما كان منها واقعاً
تحت نظر الدولة ورجالها كمحل السكن ! . .

وأقمت أنتظر تصرف زوجي بعد ودي على خطابه . ولم يطل انظارى .
فبعد أيام تناولت كتاباً به تحويل على أحد بؤك الإسكندرية بنفقة إقامتنا .
وفي الكتاب أن محل كولك أصدر تعليماته إلى فرعه بالإسكندرية ليعطيني
تذاكر السفر إلى وللدن وللمرية إلى أوروبا وإلى حيث أريد التنقل بين
أرجائها ذهاباً وإياباً حتى عودتي إلى مصر ، وأنه يريد أن يعرف الزمن الذي
أعترم قصاه في تلك الربوع ، ليعث إلى تحويله بالنفقة اللازمه له .

لم تكن دهشتي إذ تلوت هذا الكتاب بأقل من دهشتي يوم تلوت الكتاب
الأول . فلواتني كنت مكانه حين رآني أتحدث في حلية مع صديقنا لأكلت
الفيرة قلبي ولا ملكت نفسي ، ولا استطعت أن أضبط أعصابي ، وها هو
ذا يبعث إلى بالنفقة كأن أمراً لم يحدث ، وكأنى لا أزال أهلاً لعطفه وحنه .
أى إنسان هذا الرجل وكيف ظل واتقأ لي ليوم كتابه إلى : « الزوج الوفي
المخلص » وكأنى لست دونه إخلاصاً ولا وفاء . أم يحسب نفسه قديراً على
أن يشترى بالمال ! . . إن يكن ذلك فله فقد خاب رجاءه فليست بالجامعة
التي تستطيع أن تتحكم في أعصابها وعواطفها كما يتحكم هوى أعصابه وعواطفه ؟
وألقيت نفسي . بعد أن تلقيت كتابه الأخير . أمام الأمر الواقع . لذا

ذهبت الغداة إلى البنك فقبضت التحويل . ثم ذهبت إلى كولك لمخاطبتهم
في أمر السفر . واستعنت بهم في تصوير خطته وبرناجه ووعدتهم أن أعيد

العداء لأبلعهم مطالبي ، وأخذت وأنا في طريق عودتي أفكر من جديد في زوجي وجموده أمام منظر يثير الغيرة في نفس أكثر الناس حموداً وأشدهم لروحته - التي لا تزال على ذمته - كراهية واحتقاراً ! . .

على أبي سمعت إذ ذاك صوتاً يناديني متبعاً من أعماق نفسي : « لك الله يا ظلمة ! . أو تظنين أنه كان يحمل على نفسه كل ما حمل ويكلف نفسه عبء سفرهم وحالته المالية ما تعلمين . لولا أنه أراد أن يفرق بينك وبين صديقنا من غير ضجة تفضحكما وتسيء إلى ولديكما ؟ . . خفي إذن من غلوائك واعلمي أن غيرتك الحمقاء وكبرياءك الغرور هما علة ما أنت فيه . وأنتك لولاها لاستطعت أن تكوي أسعد النساء » .

أزعجني هذا الصوت ، فلم يبق في قلبي درة من عطف على هذا الرجل . أو عاطفة تقربني منه ليفرق بيني وبين صديقنا ، وإذا صح أن غيرته هي التي دفعته ليحمل على نفسه ويحمل عبء سفرنا إلى أوروبا فأين كانت هذه الغيرة من سنوات مضت ؟ وإذا كان يظن أن هذا السفر يصلح ما أفسد فما أفحش خطأه ! لقد تنافرد قليلاً فلم يعد إلى تجاوبهما سبيل . أما غيبي عن صديقنا أشهر الصيف فلا أثر لها في نفسي ، فليس بيني وبين الرجل إلا أنه كان شهماً ذا مروءة ، ساندني في أوقات محنتي ، وأظهر من الرجولية إزاء صديقتي ما لم يظهره زوجي . وأبدي من العطف على ولدي منذ انتقل إلى الإسكندرية ما استحق ثنائي الجميل .

ومر بناطري برهة أن أرفض السفر وأن أظل بالإسكندرية كيداً لزوجي وامتنحاناً جديداً لغيرته . ولكنني خشيت إن فعلت أن يتسلك عليّ بهذا الرفض

وتسند حجة لأمر بدبره ضدى . مدهيت العدة فى كوك ورتبت
معه برنامج وحلتنا وعلبت إليه أن يعد تذاكر السفر كلها . ثم مررت به بعد
يومين وأخذت كل ما أعده . وأبلغ المحل الرئيسى زوجى ما حدث فعث إلى
كتاب أرفق به تحويلاً حديداً لتفقات السفر . وبعث معه بالجوازات اللازمة
لى ولطفلين والمرية ونحى لنا رحلة سعيدة موفقة .

وجاء صديقنا قبيل السفر يودعنى ويدكر أنه كان يريد أن يرافى ساعة
السفر . لولا مخافته أن يلتقى بزوجى على الباحرة لقاء تخشى منه . فلما
كان يوم الرحيل وذهبنا إلى الميناء ألقيت زوجى فى انتظارنا . فلما رانا أقبل
علينا وقبل الولدين وسلم على وحيًا المرية . وصعد معنا الباحرة واطمأن معنا
إلى حجراتنا منها وإلى موضع متاعنا بها . ثم ذهبنا جميعاً نسريح فوق ظهر
الباخرة فسرت أمامه وسار خلفى ممسكاً كلا من الولدين فى إحدى يديه حتى
أجلسهما معه على مقعد طويل . ولقد أخذ يداعبهما ، ويقبلهما وأخذت
أرق له وأرقى لحاله . وإننا لكذلك إذ فاجأتنا المصادفة بمنظر ارتاع له قلبى ،
وأيت صديقى مقبلة علينا وحوها عديد من معارفها والمعجبين بها وهى توزع
بينهم نظراتها الساحرة وابتساماتها المشرقة وتنادلهم فى صوت خافت عبارات
لم أتيناها . وأشحت وجهى حتى لا أراها ، ومرت هى فى استخفاف
وكأنها لا تراهى ، ولكنها وقفت عند زوجى وحيته وقيلت ولدنا وبادته عبارات
هممت من مجموعها أنها تسأله إن كان مسافراً معنا ؟ وأنه يحبها أن عمله
لا يسمح بهذا السفر . إذ ذلك تضاحكت فى دلال وقالت بصوت مسموع :
« كم آسف لذلك ، فقد كانت رفقتك تسعدنى ولولم تظل لأكثر من الأيام

التي شقيها على ظهر السفينة حتى فصل إلى حنوا ، . . !

هي إذن مسافرة معي على الباخرة . وقد كان روجي يعلم لا ريب بموعد سفرها . أتراه جاء اليوم ليوذعا . أم اتخذنا سلماً ليوذعها ؟ . . ها هي ذى نظر إليه كأنما تريد أن تلتهمه بعينها . وهويحدثها ملقياً بنظرة إلى الأرض كأنما خجل من أن أرواها ينحادثان ! . . وحانت منى التفاتة إلى مرسة أولادى فهمت منها ما أريد فأسرعت إلى الولدين وجاءت بهما عندي . وصديقتى تعتمد إطالة الحديث حتى استغرق دقائق خطتها دهرأً أوهفت أذناي في أثنائه لأسمع ما يدور بينهما من حديث . ولا حقلت منذ جاء الولدان عندي أن روجي يريد أن ينهى هذا الحديث ليعودا إليه . وأدركت صديقتى ذلك من ردوده المتفضية فسلمت عليه سلاماً حاراً وودعته بنظرة بارعة وقالبت في انقسام ساحر : « أرجو أن أراك حين عودتى مستريح البال موفور العافية » . فلما عاد إلى مجلسه على مقعده الطويل نظر إلى ولديه وأوماً إليهما برأسه فهرولا نحوه مسرعين ، وأجلسهما معه كما كانا من قبل وعاد يقبلهما ويداعبهما . فلما أعلنت الباخرة المودعين بصوتها الفسخم تؤذنههم بالانصراف ضم كلا من الولدين إلى صدره ثم مسح عينيه بمنديله وأقبل نحوى فلم على وعلى المربية وقصد نحو السلم يهبط عليه إلى رصف الميناء ! . .

وجرى ولدائى مع المربية إلى الساحة الأخرى من الباخرة حيث السلم ليتمكننا من رؤية أبيهما حين انصرافه ، ومكثت أنتظر عودتهما . لكنهما طال عيابهما لأن أباهما وقف يشير إليهما ويناديهما ويلوح بمنديله الأبيض حتى تحركت الباخرة واستعارت نحو مدخل الميناء إلى فسحة البحر . عند ذلك

عند فضلهما وقلبي يدق وكأنما يقول في دقائقه : تستطيعين أن تفصلي عن هذا
لرحل نفسك . لكنك لن تستطيعي أن تفصلي حياتك عن حياته . وهذان
الحقلان يربطان بينكما بأوثق رباط !

ونحطت الياحزة المياء إلى البحر وأطلقت لحركاتها العنان . وأخذت
الإسكندرية تتوارى شيئاً فشيئاً في حجاب الأفق ، فلما لم يبق أمام ناظري
إلا السماء والماء تحطبت على مقعد طويل وحاولت أن أنجلي خاطري من كل
شيء . وأن أدع نفسي تموج مع نسيم البحر العليل في عوالم مبهمة لا يشغل
الخيال ولا اللمن شيء مما فيها . وإتني لكذلك إذ مررت صديقتي مستندة
إلى فراع أحد المسافرين وهي ترسل الحين بعد الحين ضحكات ناعمة
تشهد بما تملأ قلبها من مرح ومسرة . قلت في نفسي : وما أسعد هذه
الأرملة الطروب بالحياة اليوم . وهي هي التي كانت من سنوات مضت
صورة ناطقة لمعاني الهم والشجن . وهما وشجنها بالأسى هما مصدر مرحها
وسعادتها اليوم . فلولاها ما بذل صديقنا وزوجي ما بذلا من عناية حتى
استخلصا ميراثها وميراث أبنائها وأتاحا لها هذه الحياة الناعمة التي نحبها .
ولا شغل صديقنا ولا شغل زوجي بها إلى اليوم . وهكذا الحياة . محمومة من
المتناقضات بسعد بها قوم ونشئ آخرون : صحة ومرض ، فقر وغنى ، شقاء
وسعادة . وهذه المتناقضات تتداولنا ذرا كما ضعد ثم نشئ ، ونشئ ثم نسعد ،
ويتوالى ذلك علينا حتى يتركنا الأجل المحتوم . . .

لست أدري لم أثار مرور صديقتي هذه المعاني الفلسفية في نفسي وجعلني
أفكر في ضعف الإنسان أمام الحياة حتى لترعجه أنفه الأشياء كما تسعده

أنتهى . قد يكون موج البحر الممتد أمام النظر إلى مدى الأفق . والذي يسر في طياته من الحب مالا أعلم ، هو الذي أثارها . وقد يكون هواء هذه الساعة برقه وما يهيئ للنفس من استرخاء وسكينة هو مبعثها ، على أية حال فقد بقيت بعدها كأننى في حلم منمطية على مقعدى ، أفتح عيني وأغمضهما كما أمرى ، وأشرب بنوع من تخدير الأعصاب الذى يسبق النوم . . .

فلما حان موعد العشاء وحاف للناس أن يبدلوا ملابسهم ارتدبت للسهرة ثوباً بسيطاً ثم صعدت إلى سطح الباخرة تلمع عليه أضواء الكهروء ، وبينما أسير دهايا وجيته مرت بي صديقتى من حديد وقد ارتدبت للسهرة ثوباً بارع الجمال ، وقد ترينت رينة كلها الإغراء ، وقد أمست يجملها وزينها وثوبها تلفت نظركل رجل وكل امرأة مرت به أو مر بها . ونظرت إليها إذ ذاك وأطلت النظر وذكرت كلماتها الأخيرة لزوجى : أرجو أن أراك حين عودتى مسرّح البال موفور المافية ! . .

وتناولنا طعام العشاء ثم أديرت بعده حفلة رقص شهقتها إلى منتصف الليل . . . وقد رقصت صديقتى مع كثيرين كانوا يستبقون إليها ويطلبونها للرقص معهم ! . . وكانت لا تأنى أن تلى من يتقدم إليها لترافقه ! . . ثم كان جملها وكانت زينها حدث الرجال جميعاً ، وكان مرحها وكانت ابتسامها أشد إثارة لإعجابهم من ثوبها ومن زينها ! . . وقد خيل إلى ساعة غادرت هذه الحفلة إلى مخدعى إن الرجال جميعاً جئوا بها جنونا وأنهم لم يدعوا الحفلة تنهى حتى مطلع الفجر ! . .

ونخلعت ثيابى وارتدبت ملابس النوم واستلقيت فى سريري وصورة

صديقتي - وهي موضع الإعجاب بل موضع التقديس عند الجميع - لا تبرح
نحالي . وأغمضت عيني أسأول النوم فإذا هذه الصورة تنواري لتحل
محلتها صورة صديقتي يوم التقينا بالأقصر بعد عام من وفاة زوجها . لم تكن
يوميئذ الأرملة الطروب التي يراها الرجال اليوم ويعجبون بها . بل كانت سيئة
بأدبة الحشمة ، تؤس بجمالها من غير أن تعرضه نزهة للناظرين . بل كانت
تبدو وكأنها تستحي منه . وتود لو تستطيع أن تناريه عن الأعين . يومئذ
كنت أجلس إليها وأراها شابة جميلة ساذجة لا تجيد أن تتكلم ، ولا تجيد
إلا أن تنظر بعينيها الساحرتين إلى من يحالسا ومن يمر بها . ويوميئذ لم أريأساً
بأن يهنم صديقنا بأمرها وأن يعنى زوجها بشئونها وشئون أبنائها . أما منذ خلص
لها ولأبنائها ميراثهم وحسبت أنها اطمأنت إلى الحياة نددت حالها غير الحال
وأصبحت امرأة وقاحاً لا تطلق . ظنت أنها تستطيع أن تنافسني في سلامة
العبارة ، وجمال اللفظ . وأنها تستطيع أن تسحر بهما الناس فوق سحرها
إيائهم ببارع جمالها وساحر فتها . وقد بلغت من ذلك أن فكر صديقنا في
أن يتزوجها ، وأن قبضت على ماضية زوجي واستبقت مودته .

وكانت صورتها تتبدل أمام بصيرتي وأنا مستلقية في مرقدى . كلما
تصورت حالا من أحوالها التي أثارتني بها وانتهت إلى القطيعة بيني وبينها .
وكنت أزداد حتماً على هذه الصور وعلى صاحبها كلما هفا إلى مسمي صوت
موسيقى الرقص آتياً من ناحية هو الباخرة ، وهي القبله في دروه مجدها
وانتصارها .

وأصبحت فتناولت فطوري في غرفة الطعام وصعدت إلى ظهر الباخرة .

ووقفت أستنشق هواء البحر لعله يذهب عني جهد الأرق الذي لازمني معظم
ليلتي ، وبعد قليل وقفت إلى سيده حيتي بالفرنسية ثم أخذنا نتبادل
الحديث المألوف في مثل هذه الأسفار عن الجوالحة والرجاء أن يظل هادئاً
إلى نهاية السفرة . وأنا لى حديثنا إذ مرت صديقتي مشرقة الوجه باسمه الثغر
كانها نامت كل ليلها وسعدت بأجمال أحلامها . وكانها لم ترقص إلى
قراءة الصبح . وبطرت إلى ساعة مرت بنا نظرة تعال وكبرياء وكانها تقول لي :
« أرايت ليلة أمس . وحلا تزال الميرة تأكل صدرك مني ولا تفتحين تطمين
في متافتي ؟ . . . إك يكن ذلك فهذا البحر أمامك قاشري مع أو ألقى نفسك
بين أحضانها لتخلصي من غيرتك وبأسك » .

وسألتني محدثتي . وكنت قد علمت منها أنها فرنسية . فأعرف هذه
السيدة الجميلة ؟ . . قلت . نعم أعرفها وإن لم تكن أصدقاء . وهي كثيرة المعارف .
والأصدقاء وأصحابها في مصر يسمونها « الأرملة الطروب » ، ففيها خفة تقارب
الطيش ، وتذكرت وأنا أتكلم أن صديقتي مصرية ويجب لذلك ألا أرححها .
فاستطردت في كلامي : « لكن أصدقاءها يذكرون أنها طيبة القلب »
وأن نعتها ويرحها لا يتعديان المجتمع إلى حياتها الخاصة ، أما معرفتي بها
فصلية وليس من حق أن أحكم لها أو عليها .

وعلفت محدثتي الفرنسية على كلامي فقالت : « أنت على حق يا سيدتي .
فأنا أعرف في باريس نفسها سيدات اشهرن بالخلاعة وهن مع ذلك مثال
الشرف والسمو عن الابتذال ، وتقولين أنت الآن إن أصدقاء هذه السيدة
المصرية يقولون ذلك عنها ، ولا أحسبي في ريب من ذلك بعد الذي رأيته

أمس . لقد تركتكم أمس مستعطف الميل والدمعة لم يحبه وضيئها . ولو أنتم
 بقيت إلى نهايتها لرأيت عجباً . شرب بعض الشبان حتى ثعبوا وعرضوا على هذه
 سيدة أن تشرب ولو قليلاً من الشمانيا فأبت إباء مطلقاً . معتذرة بأنها
 تشرب في حياتها . وأن دينها يحرم عليها الشراب . وألقى هؤلاء الشبان
 التملوي أنفسهم على أقدامها . وزعم أحدهم أنه شاعر إنجليزي وألقى مقطوعة
 ادعى أنه نظمها لساعته من وحي عينيها الساحرتين . وذهب آخر إلى غرفة
 الطعام وجاء بما فيها من الأزهار وشرها عليها . ولم يكن القبطان أقل الحاضرين
 احتشاشاً . فقد عرض عليها وهو في نشوة شرابه إن لم تكن تعجبها قمرتها .
 أن تأخذ قمرته وصالونه . وضحككت هي لهذا العرض وقالت إنها ستصكر
 فيه متى أصبحت وأصبح القبطان . والحق أشهد أنها كانت برغم مرحها
 وطربها شديدة الاعتزاز بنفسها وبكرامتها . وإن لم تكن أقل من ذلك اعتزازاً
 بجمالها وبسحرها . وسكت محدثي قليلاً . ثم قالت : « ألا ليتك
 نستطيعين يا سيلنى أن نحلثي التعارف بيني وبينها » . . .

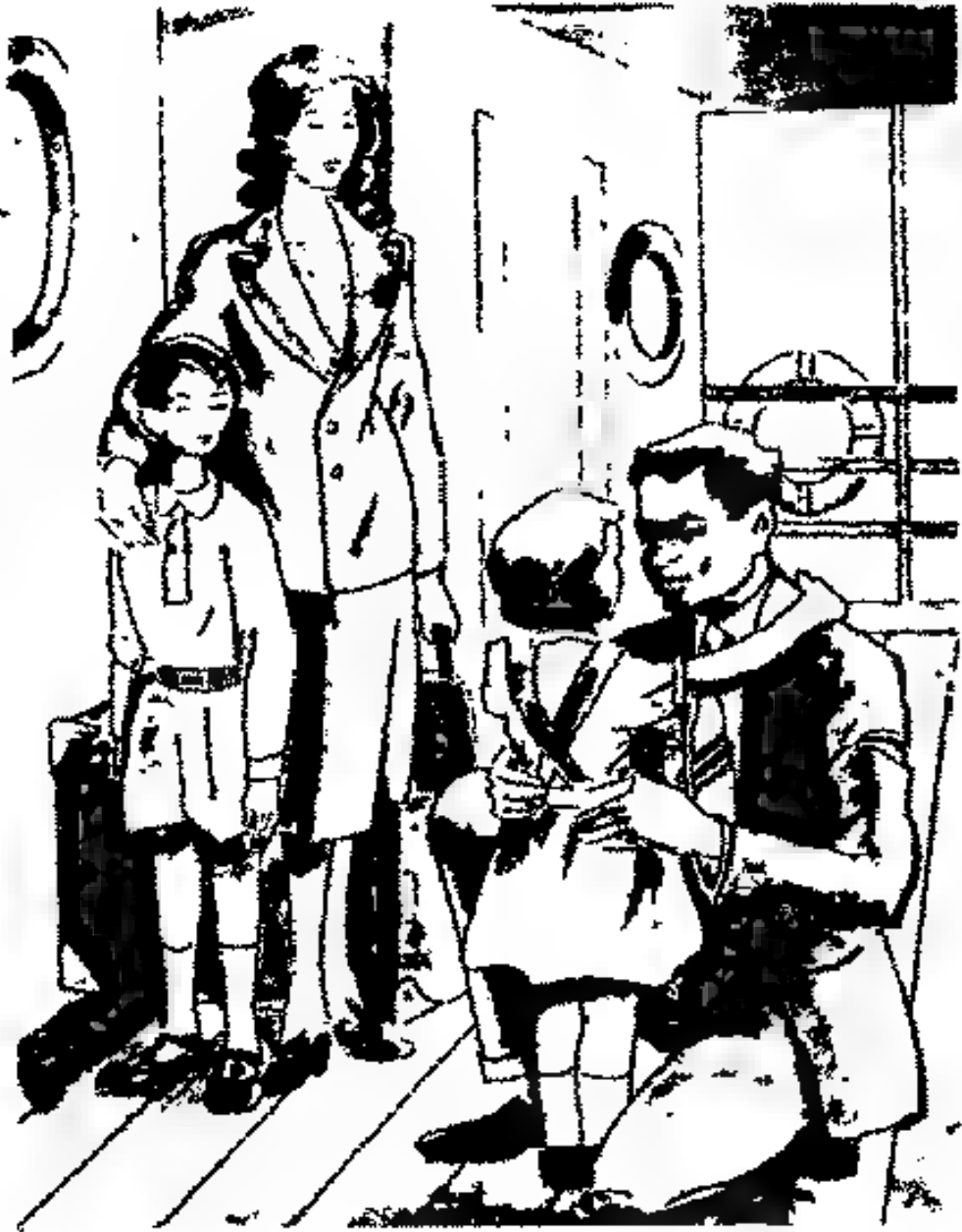
وأخذت هذه العبارة الأخيرة . فلن يحلثني اعتباراً بما كان على التحدث
 إلى هذه المرأة التي سلتني هباءً وسعادتي . بل سلتني كل ما في الحياة من
 نعمة وجمال . على أني سارعت مع ذلك وقلت لمحدثي : « أنت يا سيلنى
 في غير حاجة إلى من يقدمك لها . وحسبك أن تادئها الحديث يا طراء
 جمالها لتكسب قلبها ، وهي طمة القلب كما ذكرت لك . ويسرها لذلك
 أن تعاملها من غير كلفة ولا رسميات ! . . . »

لا أستطيع أن أصف ما أثاره هذا الحديث في نفسي من غيرة ومن حيرة .

لقد كان هذا الانتصار الباهر الذى أحرزته صديقتى حنجراً مسموماً صوب
إلى صدرى ، ولكنى كنت موجدتى واتخذت من طفلى مسلاة لى أنسى بهم
مى وكربى .

وتناولنا طعام الظهيرة وذهبا إلى بهو الباحة تناول القهوة فإذا إعلان بحظ
واضح أن الآنسة الإيطالية . ضاربة الكمان الشبيرة فى الأوساط العالمية
جسماً . تفضلت بإحياء سيرة هذا المساء فى بهو الباحة . وبدأ الساعة
التاسعة والنصف ، والجميع مدعوون .

أقبل المساء وبذل المسافرون ملابسهم لطعام العشاء . فإذا صديقتى
أبدع ثوباً وزينة مما كانت عليه أمس ، وإذا العيون تنبها ساعة دخلت قاعة
الطعام . وعجب الناس حين رأوها تتخطى المائدة التى كانت تجلس عليها
لليلة الماضية إلى مائدة القبطان لتجلس إلى جانبه . عند ذلك دوت القاعة
بالتصفيق مما أحجل مصرتى . فلما فرغنا من الطعام وذهبنا إلى البهو
إذا رجال الباحة قد استحدثوا فيه منصة للاعبة الكمان . وإذا على هذه
المنصة كراسى ثلاثة لم يعرف لن وضعت . وبعد قليل أقبل القبطان وعن يمينه
لاعبة الكمان وعن يساره صديقتى . وإذا هم يصعدون جميعاً إلى المنصة .
ويجلس القبطان بين السيدتين . فلما سكن تصفيق الحضور وقف القبطان
يقول : « لا حاجة لى إلى تقديم الآسة ربة الكمان وشهرتها تغنيها عن كلامى .
وكما أنها القى شسمونه عما قليل أبلغ عبارة منى فى تقديمها . أما السيدة
المصرية فقد عرفتوها جميعاً ليلة أمس ، بعد أن قدمها لكم جمالها وظرفها
وقلبها الكبير ، والكلمة الآن للكمان البارع ! . . . »



هنا كان يوم الرحيل ودعنا إلى طيلاء أقمشت روسي في انتظارنا فلما
 رأنا أقميل علينا وقبل الرحيل

ولعبت الآنسة عدة مقطوعات لعبت معها بالعقول والقلوب . فكانت كل مقطوعة تنهى تلمي الأكف بالتصفيق . . . ولست أذكر أني سمعت موسيقى بلغت من الإعجاز ما بلغت موسيقى تلك الليلة . سمعنا مقطوعات ليهوفن . ولوزار . وفاجير ، وأمثالهم من المخالدين الذين أشاعوا في جوار العالم أبدع الأنعام وأعذب الألحان . فلما قرعت الآنسة من إيقاعها البارء البديع الذي سما بغوصنا إلى أجواء الفن العليا وقف القبطان يشكرها لما أسعدتنا جميعاً به من تلك الموسيقى السايوية . ثم قال : « ولم أرد أن أروعكم ساعة بدأت هذه الحفلة » فقد صادف مدوّها بدء عاصفة لعبت بالباخرة . وستحسونها جميعاً عما قليل ، لكن هذه العاصفة وعبثها بالباخرة لم يكن لحما أي سلطان على الآنسة ، لأن فيها ملكها في أثناء لعبها فلم يكن لغيره . ولم يكن للعاصفة ، سلطان على أصابعها البارعة ، ولا على جسمها الذي استطاع أن يحتفظ بكل توازنه أكثر مما استطاعت ياخرى أن تحتفظ بتوازنها .

« ولم نقف قدرة الآنسة عند هذا الحد ، فقد أنستكم جميعاً ببراعة قبحا أن الباخرة تميل بحة ويسرة ، لأن أنغامها أمسكتكم في مقاعدكم تطربون لها وتستمعون إليها ، أفلا يوجب هذا كله على وعليكم أن تضاعف شكرنا لمن أباحت لنا هذا الفن الجميل وأنستنا غضب البحر وهياجه . . . فباسم هؤلاء الحاضرين واسمى أقدم لك يا سيدتي خالص الشكر وحزير الشاء . . . »
واندفع الحاضرون نحو المنصة يحيون الآنسة ويشكرونها ، ولكن الأعجب من هذا أنهم كانوا تتجهون بعد تحيتها إلى صديقي يحيونها هي الأخرى ثم يقفون حولها يبدون من الإعجاب بحماها مثل إعجابهم بالمكان ولاعبه

وحاولت صدقنى أن تصرف حين تصرف المخطون فإذا المحيطون بها قد
ضربوا حيلة بطقاً يتعذر إحراقه . ولم يسجها من هذا الموقف إلا أن أعنت
أبداً تشع بالنور وأنها فى حاجة إلى اقوية العلق أو تهيض إلى قمرتها .
عند ذلك أفسح المحيطون بها طريقاً لى وكلهم يكررون آى إعجابهم بجمالها
ورقتها وظرفها ١

وكنت أشهد ذلك مشدومة . لا دهشة أعظم من دهشتى . ولا حيرة
أعظم من حيرتى وعيرتى . ولو أن روحى اختار لها أن تسافر معى على هذه
الباحرة كبدأ لى . لقد بلغ من كبدى ما أراد وأكثر مما أراد . أما إن كانت
المصادقة هى التى سأقت ذلك كله إلى غيالىيسها من مصادقة مشومة .

وخرجت مع الناس إلى ظهر الباحرة وكأنى أشعر بالدوار بعث فى .
فهيضت مسرعة إلى قمرتى وقضيت بها ليلة نابغة . فلما أصبحت كان البحر
قد استرد اتزانته فمكن هياجه وعاد سلساً كما كان . والتفت بالفرنسية بعد
القطور وتبادلت التحية وأخذت تحدثنى عن موسيقى الأنسة الإيطالية وروحها .
ثم قالت : « وصاحبتنا المصرية » أرأيت تهافت الرجال عليها واستسلامهم
للفتة جمالها ؟ . . قلت : « نعم رأيت ذلك ولم يدهشتى . ذلك شأن
الرجال ، يرامون على المرأة ترمى الفراش على النور . ثم لا يعنهم أن
تحرقهم بنارها وتكدرى بقاياهم فى الهواء يبلدها كل ربح . »

وقالت محدثتى . « وأعجب الأمر أن أكثر الرجال رراة وحكمة
لا يمتازون فى هذا الشأن عن أكثرهم طيشاً ونزقاً ، وإن اختلفت أمزجتهم فى
ذوق الجمال وصاحبه . وأعجب من ذلك أن اليرىق الظاهر يفنتهم ويغرسهم

أكثر مما يفتنهم الجمال الحق في المرأة الكاملة ، ولا شيء يدل على هذا ما يدل عليه افتنائهم بياض المرأة وحليها وظاهر زينتها ، وأنهم مع ذلك يدركون أن المرأة هي التي تخضع على هذه الأشياء جمالها ووروثها . وأما إن رأوا سيدة مسطرة الثياب قليلة الزينة فقل ما يلفتهم جمالها ، وأقل من ذلك أن يلفتهم ما تنطوي عليه روحها وجسمها من كريم المعاني ورائع الجمال . ثم يقول الرجال بعد هذا إنهم أولو حكمة ، وإن كانت حكمتهم أغلب الأمر هي السخف كل السخف ، ولم يكن لها من سند إلا سحرية المرأة منهم وفتنتها إياهم .

أعجبنى هذا الكلام فانصرفت أكرره في أعماق روحي ، وتبلول من خلاله صررة زوجي وعظفه على صديقتي ، فلا يزيدني ارتسامها أمامي إلا ارداء له ومقتاً إياه ، فهو الذي أفسد حياتي ودفعني للفرار من بيتي باصطفائه صديقتي على رغم علمه بحقيقتها وطيشها

كانت ليلتنا المقبلة آخر ليالينا على الباخرة ، إذ كانت ترسو الصباح عرقاً جنواً . ولهذا أقيمت في المساء حفلة تنكرية لم أرد أن أشترك فيها ، لأن صديقتي بارعة في التنكر ، تشكر له من الأرباء ما لا يرد بالخاطر ، وما بلغت الأنظار إليه وبمسكها عنده ، ولست حريصة على أن أشهد الاحضال بانتصارها الساحق للمرة الثالثة . لهذا أويت إلى فمرفئ وأعددت متاعنا وقضيت بعض الوقت أقرأ وأنا في سريري ثم أطلقت مصباحي .

واستيقظت بكرة الصباح وصعدت إلى ظهر الباخرة فإذا هي ترسو . وانتقلنا نواً إلى محطة السكة الحديدية ، فلما انطلق القطار ولم تكن به

صديقتي تنصت الصعداء وحدثت به أن استعدت حريتي . وتقلنا بين
شول إيطاليا وسويسرا وفرنسا وألمانيا مشعدين عن لندن ما استطعنا . مستمتعين
من هواء الخيال والبحيرات بما ورد إن هدهدي وطمانيتي . وزادني هدهود
أنى انتهيت إلى تصميم حاسم أن انفصل بالعلاق عن زوجي . وإن كلفني
ذلك ما كلفني . فلم بعد بعينى ما يقوله الناس عنى إذا لجأت إلى التفتاء .
فالأمر لا يتعلق بسعادتهم بل بسعادتي . ولم أعد أعنا عما كان يذكره صديقتي
من تأثير ولدى بهذا الطلاق . فالوضع الحاضر أسوأ أثراً على نفسيهما وأكثراً
إساءة خماً . وإذا اضطررت عتاد زوجي إلى التشهير به فلن يكون ذلك ذنبى .
ولن أكون آخر امرأة طلقت ولا آخر امرأة تطلق . ولن يكون لى من وراء
هذا الطلاق إلا أن أستعيد حريتي وأن أحيا كما يحيا كل من ملك حريته
من يوم صح على هذا الرأى عزمى شعرت بديب الحياة السعيدة يعزى
فى عروقى . ورأيت الجبال أنهى منظرأ بالخضرة التى تكسو سفوحها .
والبحيرات أبرع حمالاً بأضواء الشمس والقمر تعكس على صفحتها .
ثم شعرت بنوع من النعمة لم أكن أشعر به من قبل . شعرت بكامل شخصيتى
وبهوية أنوثتى .

وعندنا إلى مصر فالتقيت زوجى يصعد إلى البانخرة وهى لا تزال فى عرض
الميناء . وأقبل علينا وجلس إلينا بعد أن قبل الطفلين وضمهما إلى صدره وقبل
يدى وسلم على المرية وكأنه مشوق إلينا أعظم الشوق . وبعد أن اطمأن بنا
المجلس وتبادلنا السؤال عن الصحة وكيف قضينا سهرنا نظر إلى فى عطف
وحنان وسألنى : « ألا تريدان أن نعود جميعاً إلى القاهرة ؟ » . فأحتته فى

هدوء وحزم : « أشكرك يا صديق فلم يبق إلى حياتنا المشقة من سبيل و
أطلب إليك منذ اللحظة أن تخرجني . ولن أضمن عليك مما نطلب لقاء
طلائق . فإن اجبتني إلى ذلك شكرت لك . وإن أبيت فلن نحمد من بعد
إيائك . »

ووجه الرجل لما سمع . ولم يتبادل بعد ذلك كلمة حتى خرجنا من الحمر
ودهبنا إلى بيتي بالإسكندرية . وعلى باب البيت ودعنا ولا يزال واجماً
كثيراً . وعاد إلى القاهرة وعدت إلى حياتي أنتظر ما الله فاعل به ولى ! . .

أفضل الشارين

بعد ثلاثة أيام من مقاما بالإسكندرية جاء صديقنا يسلم علينا ويرحب بنا . وإنما علمت بمقدمه حين سمعت طفلي يستقبلته أول وصوله بالبشر والتهليل كأنه أعز عزيز عليهما . وصعدا معي إلى وجلسا من حوله ينظران إليه يعيونهما البرية نظرات كلها الحب الخالص . واهتر قلبي لهذا المنظر غبطة وطرباً ، ونسى هو يداعيهما نارة ويحدثني ناره أخرى وأنا سعيدة بلقائه أعظم سعادة . واستأذن يريد الانصراف قبيل موعد الغداء فدعوته ليتناوله معنا فاعتذر بأنه على موعد مع أصدقائه من أهل الإسكندرية سيقول إلى دعوته إذ كانوا معه في القطار الذي قدم فيه . ثم قال وهو يودعي : « سأعود إليك بعد الظهر لحديث طويل بيني وبينك » .

وحاولت بعد انصرافه أن أقوم ما عسى يكون هذا الحديث فذهبت محاولتي سدى . وأوجيت إلى المرية بعد أن تناولنا طعام الغداء أن تأخذ الطفلين إلى حديقة النزهة وأن تعود بهما ساعة الغيب ليخلوا لجلوس صديقنا في أثناء حديثه ، وبعد قليل من خروجهما جاء صديقنا فألقاني وحدي فقال : « حسناً فعلت حتى يكون لي مطلق الحرية فيما جئت إليك بشأنه » .

قلت : « كل آذان صاغية بعد أن حاولت عيماً أن أعرف ما تريد

منى ! . . . »

قال : « إذن فاسمعي ، أنت تعلمين آني لم أر زوجك ولم يرد منذ انتقالك إلى الإسكندرية ، فقد اتهمني يومئذ أنني حرصتكَ ضده ، وأعتك عليه ، ولذلك قاطعتني وشهر عند أصدقائي بي . وإنتى لقي منزلي أول من أمس إذ رأيته يدخل على محمر العينين ، بمنفع الوجه ، متهاكاً على نفسه وكأنه لم ينفق طعم التوم منذ عدة أيام ، وقمت إليه مشفقاً عليه راثياً لحاله فعانقته كما لم أعانقه منذ سنين ، ورجوته أن يجلس وأن يظامن من نفسه وأن يذكر لي سبب همه وكرمه ، فكث صامتاً زمناً ثم قال : « معدرة يا صديقي أن لجأت إليك بعد أن قاطعتك ، لقد فكرت طويلاً فيمن ألتجأ إليه لتقريب بلواي فلم أجده سواك ، فأضني برحمتك الله ولا أذاقك ما أذوق أنا الآن من مرارة قاتلة . لقد ذهبت أستقبل زوجي وطفلي بالإسكندرية ساعة عودهم من أوروبا ، فلما لقيتهم رجوت زوجي أن يعود جمعاً إلى القاهرة ، فكان جوابها أنه لم يبق إلى حياتنا المشتركة سبيل ، وأنها تريد مني أن أطلقها ، فإن أبيت فلن أحمد من بعد إباتي . ولست أدري ما ذنبى عندما ، فقد أحببتها ولا أزال أحبها حب تقديس ، بل حب عبادة ، أحبها لنفسها ، وأحبها لطفليتنا ، أحبها وأزداد إعجاباً بها كلما رأيت غيرة بطري دكاءها ورقها وسحر حديثها ، لم تأخذني العيرة يوماً عليها لأنى آؤمن شرفها وكبرياتها ، كما عانى بالله وشرقي وشرقي مهتي ، وقد غاضبتني بعد أن استخلصت بمعونتك ميراث صديقتها ، غاضبتني وهي التي كانت تعرضني على ذلك وتلدغني إليه ، وأنت تعلم أنه لم يكن بيني وبين صديقها يوماً ما يشيني ، وأقسم بالله وبشرقي وبشرفها وبرأسي طفليتنا أنه لم يكن بيني وبين

هذه السيدة فقط رية توجب أن معاضبي زوجتي . . فلما غاصبتني صبرت
وصابرت مؤمناً بأن الزمن سيعمل فعله . لأن حبي إياها لا يزال اليوم كما كان
يوم تزوجنا . . مع ذلك أصبرت على معاضبي . كما تعلم . وبعثت إلى
ذلك الخطاب الذي اطلعتك عليه . ثم هجرت بينا ودهيت إلى الإسكندرية .
وعدت فصبرت وصابرت ولم أقصر قط في حقها أو حق ولديها . ودهيتها إلى
السفر في هذا الصيف الأخير إلى أوروبا لعلها تعارف التفكير في أمرنا وأمر ولدينا
فكانت نتيجة هذا التفكير ما ذكرت لك من إصرارها على الطلاق .

وسكنت زوجك برهة بعد ذلك استرد فيها هدوءه . ثم تابع حديثه قائلاً .
« أنا لا أريد قط أن ألومها على شيء من ذلك كله ، لا أريد أن ألومها على
معاضبي ، ولا على ذهابها إلى الإسكندرية ، ولا على طلبها الطلاق . لكنني
أريد أن أستغفرها ولا أزال أطمح في عفوها . أريد أن أعترف لها في غير
موجب للاعتراف ، بأنني مذنب وبأن هفوت ، بل أخطأت ، بل أئمت في
عائتي بصديقتها وفيما تقول من أنني أعطف عليها . أو أسبل إليها . أريد يا صديقي
أن أفرض هنا كله صحيحاً ! ألسنا جميعاً معرضين لأن نخطئ ؟ . .
وهل يستطيع الناس أن يعيشوا وأن يتفاهموا إذا لم يغسل العفو بينهم حوبة
الخطئة ؟ إن المرأة لتخون زوجها حتى ليرتاب في ولده منها ثم تطمع مع
ذلك في عموه ومغفرته ، ولو أن زوجتي تنهني بأن الأمر بلغ بيني وبين
صديقتها هذا المدى ، ولا أحسبها تبلغ من الرية هذا المبلغ ، أفلا أستطيع
مع ذلك أن أستغفرها ؟ تستطيع أنت يا صديقي أن تذكر لها أنني أقسم بأنني
إن أرى صديقتها من بعد قط إذا أعدنا حياتنا سيرتها الأولى . أمن العقول

أن تجزى هذا الحب الخالص لها بكل هذا الوقت الذى تواجهنى به ؟
وهل يبلغ من أمرها وهى الرزينة الحكيمة ، أن تنسى ما يجر انفصالنا على
ولدينا من ضياع يفقد كل حياتهما ؟ . . إذا لم ترد أن تسمع فى أمرى إلى
صوت الزوجة فلتسمع فى أمر ولدينا إلى صوت الأم ، إننى أدع بين يديك
يا صديقى بقية رجاء فى أن تعبد إلى أسرة يائسة قبساً من نور الأمل فى وجه
الله ، أفتصل هذا الرجاء ؟ . .

« وما كاد زوجك يتم كلامه حتى انخرط فى البكاء ، كأنه الطفل . .
وانقبض قلبي لبكائه وكادت الدمة تنحدر من عيني رثاء له وشفقة عليه .
أنت تعلمين كم تعينى سعادتك وسعادة طفلي ، وأستطيع أن أؤكد لك
صادقاً أنه لم يكن بين زوجك وصديقتك ما يريب ، فإن لم تصدقه ولم
تصدقنى ، فهو بعد الذى كان منه ، وبعد حديثه هذا معى ، أهل لعفوك
وعمراتك . أفأنت مع ذلك لا تغفرين ، إن لم يكن من أجله فن أجل
ولديك ؟ . . »

أنصت إلى هذا الكلام وتأثرت به فأطرقت وأطلت الإطراق وفى
إطراقى ذكرت يوم قلت لزوجى إنه مثل يارع ، وإنه عطيل وروبو معاً ،
فلما طال بصديقنا انتظار كلمتى نهى بقوله : « سمعت الآن ما جئتك فيه ،
فإذا تقولين ؟ . . أم تريدن أن أنظرك إلى غد حتى تفكرى فى الأمر وتقليبه
على شتى وجوهه . . »

قلت : « لا حاجة لى إلى الانتظار يا صديقى . . لقد قلبت هذا الأمر
وفكرت فيه شهراً إن لم أقل منذ سنين . . . وقد عدت إلى تقليبه فى

أثناء مسرى الأخير إلى أوروبا فازداد تصميمي على رآني ثباتاً وقوة . وأنت تعرف
هذا الرأي . لست أحفبك أن ما ذكرته لي الآن قد ترك أثره في نفسي . برغم
اقتناعي بأن زوجي مثل بارع . وقد يكون صحيحاً ما رواه لك من أنه
يحبني . وأنه لم يكن بينه وبين صديقتي ما يريب . ولكن الأمر في هذا
الموضوع لا يتعلق برأيه وصحتها أو بظلالها . إنما يتعلق بما أحسه أنا .
وأنا أرى هذه المرأة بيني وبينه كلما حرت بخاطري صورته . أراها بيني وبينه في
يفظني وفي منامي . أراها بيني وبينه لابس ثيابها وعارية كيوم ولدتها أمها .
أراها بيني وبينه تنظر إليه بعينيها الساحرتين . وتطرق عنقه بذراعيها العاريتين ،
أراها بيني وبينه حتى في سرير نومي . أدخ هذا الذي أهوله لك ما شئت . سم
تخبرني ، سم طائفاً من الجنون تحكم في بصرى وبصيرتي وفي أعصابي .
لكنه الواقع من أمرى . لقد أصبحت هذه الصورة لا تبارحني . وكأنما
سرت مسرى الدم في عروقي ، فتأثرت بها أعصابي وتأثر بها عقلي الباطن .
فلم يبق لي فكاك منها ، أما والأمر ما ترى فإنتي أقول لك في شيء كثير من
الأسف إن ما تطلب إلى لم يبق إليه سبيل .

وحاول صديقنا أن يعاود الكلام في الأمر معي فقلت له : « لا تحاول
المستحيل وأبلغ زوجي أنه إن أراد بنفسه وبني وبطفليتنا الخير فليسرحنى
سراحاً حميلاً ، وأنه إن فعل ذكرت له هذه المنة ما حيت ، ولن يكون لي
عنده مطلب من المطالب » .

وغادرت صديقنا عائداً إلى القاهرة كاسف البال أسفاً فلما استدار
الأسبوع عاد إلى ولا يزال الأسف بادياً عليه ، فلما جلسنا نتحدث قال :

« أشهد أن زوجك أكرم منك ألف مرة ، وأنه رجل مروءة لا حد لمروءته :
لقد قصصت عليه ما داريتنا وذكرته له أنتى رويت لك حديثه كلمة كلمة ،
وصورت له إجابتك أدق تصوير ، فاغرورقت عيناه وقال : « أما وذلك
شأنها فلا أرى الصبر ناجحاً في علاجها ، وليس لي إلا أن أنزل على إرادتها
وأن أدع لها بعد ذلك حرية الاختيار كاملة » . ثم إنه رجاني أن أحضر صبح
الغد لأجد المأذون عنده فيطلقك أمامي طليقة واحدة بائة لا يمكن معها
ردك إليه بغير رضاك . وعدت إليه في الموعد الذي ضربه فأنفيت المأذون عنده
فأتم الطلاق كما قال ، ولا انصرف المأذون أعطاني قسيمة الطلاق لأوصلها
إليك وقال : أبلغها أنتى عند رأيها ما حييت ، إن شأنت يوماً أن تعود إلى
عصمتي فهذا البيت بيتها ، وإن أرادت أن تتزوج بغيري فذلك شأنها
ولن أقصر في نفقة ولدنا ، كما تقدرها هي ، إلا أن يفعلني العجز عن أدائها .
ثم إن صديقنا سلمني قسيمة الطلاق وقال : والآن فإني يا سيدتي ١٩ . .
فلم أملك نفسي بعد الذي سمعت منه وبعد أن أسكت بقسيمة الطلاق في
يدي أن بكيت حتى علا بالبكاء صوتي . فلما عاودني بعض هلهلي : قلت :
أشكرك ، والآن عد أنتى إلى القاهرة ، فإذا حدثتك نفسك يوماً أن تزورنا
كنت قد روت في أمري ، فأخبرك بما يستقر عليه رأيي .

وانصرف الرجل وهو يقول : « أرجوك من الله التوفيق والسداد ! . . » .
حلوت بعد انصرافه إلى نفسي فقرأت قسيمة الطلاق وأعدت قراءتها
وأخذت أفكر فيها يكون بعد أن بلغت غايتي ، على أنتى سرعان ما سألت
نفسى : أين انتصرت هذا الطلاق ، أنا أم صديقتي ؟ لقد كنت أراها بين وبين

زوجي . وهأنذا الآن بحيت نفسي فأصبحت وحدها معه . في ثيابها أو
عربية كيوم ولدتها أمها . ألا تفسأ لها فائدة الرجال ! نعم هي التي انتصرت .
أما أنا فأصبحت وحيدة لا سند لي . أعيش من نفقة هذين الولدين
وهما اقتصدت . وهانت عليَّ عبرتي من حديد فأسلت لعيني العنان . وخشيت
أن يحضر طغلاي وأن يرباني على هذه الحال فدخلت غرفة نومي وأوصلت
بابها . ودقت المرية الباب فتأديتها من مضجعي : إتني متعبه . وطلبت
إليها أن تدعني أسريح .

ولقد شعرت بنعسي متعبه مهلودة بالفعل ، ورأيت بعد قليل أنتى عاجزة
عن التفكير ، وكأن ذهني تحلا من كل ما يشغله ، وإن لم تطاوعني أعصابي
إلى الهدوء الذي أبتغيه ، فتناولت مسكناً أسرع بي إلى عالم النوم . . .
استيقظت صبح الغد وأنا أحسن حالا مما كنت . واستعدت حين صحت
ما دار بيني وبين صديقنا من حديث منذ أسبوع ، وذكرت ما رواه علي
لسان مطلق من أنه لم يحب صديقتي ولا يحب غيري . فخف على العباء
الذي أتقنتي أمس ، حين تصورت أن هذه المرأة انتصرت على بطلاقي من
زوجي ، وشعرت بأن هذا الرجل المسكين قد أصبح بعد تطلقه إياي في
عزلة نامة ، لا يؤنسه أحد ، ولا يؤنسه ولداه وهما بالإسكندرية معي .

ونجرت من غرقى ألقى الطفلين ، فلما قبلتهما ورأيتهما في صحنهما
ونضارتهما ازدادت هدوءاً وطمأنينة ، وذكرت صديقات لي مات أزواجهن
وهن في ريعان شبابهن وتركوا هن صبية ضعافاً فكرس حياتهن لأبنائهن
ثم سعدن بهم إذ رأينهم يكبرون بعنايتهن ورعايتهن . أما وقد رزقني الله هذين

الصبيين الجميلين فأى سعادة غيرها أبني ! إن واجبي أن أكرس لها حياتي ولا أفكر في شيء سواهما لأراهما يكبران أمام ناظري فيصبحان قتي وفتاة ملء العين ، ثم رجلاً وامرأة يحملان عبء الحياة بأحسن وأسعد مما حملته .

وسكنت نفسي إلى هذا المخاطر فضاعفت عنايتي بالصبيين وشغلت بإدخالهما للمدرسة وعاهدت نفسي على أن أنقطع لهما ولعلاوتهما في دروسهما وأن أنسى كل شيء فيهما . ففي ذلك هنامتي وحسن أداء واجبي في الحياة ، وانقضت أيام وأنا على هذه الحال ، لا أكاد أفكر في أبيهما ، بل لا أكاد أفكر في نفسي ، مؤمنة بأنهما أصبحا كل شيء في حياتي ، وبأن ما سواهما لم تبق له أية صلة بي .

وكان لذلك أثره الحسن في صحتي وطمانيتي . أذكر إذ ذلك يوماً جلست فيه إلى شاطئ البحر أرقب أمواجه ، فمرت بخيالي صورة مطلق وقد التى بصديقتي ووقفا يتحدثان . لم تزعجني الصورة قط بل هرزت كني وقلت في نفسي : « ليس ذلك شأني ، فهذا الرجل لم يبق زوجي ولم يبق لي أن أحاسبه ، لقد أصبح بطلاق حراً كما أصبحت أنا بهذا الطلاق حرة . وكما أستطيع إن شئت أن أتزوج وأن أختار السيرة التي أرضاها فهو كذلك حراً في أن يختار لون الحياة الذي يرضيه ، وهذه المرأة حرة هي الأخرى ، إن صح أن النضاب يوماً فليفعلا ما يشاءان ، حسبي سعادة بالطفلين ، ولغيري أن يبحث عن سعادته كما يحب ويهوى » .

وبعد أسبوعين رأيت صديقتنا يدخل عندي ويسألني بعد أن بادلتني التحية . . وأما فكرت من جديد في استئناف حياتك مع زوجك . لقد

نقيته في اسعدي منذ يومين فدعاني إليه وسألني : ألك في هذا الأمر رأي ؟
ولما قلت له إنني لم أرك منذ أعطيتك قسيمة الطلاق . رجائي في زيارتك
والتحدث إليك في الموضوع . وأدهشني هذا الكلام فقلت في حدة : « وهل
نراي كنت أعيت يوم طلبت الطلاق . ذلك أمر لا رجعة فيه ولا محل
للحديث عنه » . قال : « الأمر في ذلك لك . وقد توقع هو أنك ستجيبين
كما أجبت الآن . أما وقد صح تقديره فإنه يستأذنك في أن يرى ولديه
ولا يشك لحظة في أنك تأذيين » . وأجبت على الفور : « هذا حق ولئن أحرمه
منه . لكن في شرطاً واحداً ، ذلك ألا يراي ولا أراه . فإذا فكر في المجيء
ليراهما فليخطرني بموعد حضوره . وعند ذلك أدع له البيت ليلقى طفليه
فيه » ! . . قال صديقنا : « أنا أشكرك بلسانه . سيحضر في الأسبوع المقبل
بأول قطار يغادر القاهرة يوم الجمعة ثم يعود إليها بآخر قطار في اليوم نفسه ! . . »
وانتقل صديقنا بعد ذلك بالحديث بسألني ، وقد ذكرت له أنني لن
أستأنف حياتي الزوجية مع مطلقى ، عما اعترفت أن أفعل بعد انقضاء
عقدى . . . ! قلت : « لا شيء » . . كرست حياتي لملين الطفلين اللذين رزقني
الله بهما . وأكبرهما أرجو أن يساعدا على القيام بواجبهما على نحو يرضيني ،
ويطمئن له قلبي ! . . قال صديقنا : « فليعاونك الله وليوفقك فيما تقصدين
إليه » ! . .

وفي يوم الجمعة الفى تلا هذا الحديث غادرت المنزل قبل موعد وصول
قطار القاهرة إلى الإسكندرية ، وقلت للمربية ساعة خروجي : « إنني سأتناول
غداً في الخارج » . وذكرت لما أن والد الطفلين سيحضر ليراهما فلتتبع

معهما في البيت حين حضره ، حتى تنقل إلى عند عودتي ما يدور بينه وبينهما من حديث . فلما عدت ساعة الغيب ذكرت لي أن الدكتور حضر بعد قليل من مغادرتي المنزل ، وأنه ما لبث حين رأى ولديه أن قبلهما وعانقهما طويلا وعيناه مغرورتان ، وأنه دعاهما ودعاها للتنزه ولتناول الغذاء في مطعم على شاطئ البحر ، وأن الصبيين كانا سعيدين بأبيهما كلى السعادة ، وأنهم قضوا جميعاً يوماً من أسعد الأيام وأمتعها ، وأنه عاد معهم إلى المنزل ، فلما حان موعد سفره ودع الصبيين في تقبيل وعناق تأثرت المربية لها غاية التأثير . ثم أعطاها ساعة خروجه هدية قيمة هي ثلاث ساعات ذهبية ، فلما سأله المربية عن الساعة الثالثة لمن تكون قال إنها لأمه ، ثم وعد أن يزورنا في مثل مواعده بعد أسبوعين . وقالت له بنتنا : ولم لا تزورنا كل أسبوع يا ولدي ؟ فأجابه بأنه يكون أسعد الناس بذلك إذا أذنت والدتك به . وأخذت الساعات الثلاث وقلبتها في يدي فإذا هي هدية قيمة بالفضل . وإذا الساعة التي خصني بها أجعلها وأقيمها ، ولقد دهشت لهذا التصرف من جانبته ، فإله ومالي بعد أن طلقني تزولا على إرادتي ! أولو كان يحيل إلى صديقتي ، ألا كانت أولى هي بهذه الهدية مني ؟ . إنها لم تتصر إذن علي ، والموقف لا يزال في يدي .

وابتسمت لهذا الخاطر ، وجاء ولداي قبل نومهما يقبلانني ويهديانني مساء الخير ، فلما قبلتهما وأذنت لهما بالانصراف إلى حجرة نومهما قالت ابنتي : « لم لا تأذين يا أمه لأبينا أن يزورنا كل أسبوع ، إنه ظريف ونحن لقد قضينا معه سحابة هذا النهار أسعد ما نكون ، ولعل هدية الساعات الثلاث

أعجبنيك ؟ » ، فقبلتها من جديد وقلت لها : « اذهبي إلى محلدك وسيكون لي في الأمر رأي » .

وشعرت لساعتي بأننا لن نستطيع أن نفصل حقاً وهذان الطفلان بيتنا ، وإذا أردت أن انفصل عنه انفصالاً حاسماً فيجب أن ينياه لكنهما لا يزالان في حاجة إليه . على الأقل لتفقتهما . وليس بمعقول أن أكلفه هذه النفقة وأن أحرمه رؤيتهما . ولست أشك في أنه مستحق عليهما كل ما أطلب منه ولو أرفقه ذلك من أمره عسراً ! . .

وانتفضي الأسبوعان وجاء الرجل من القاهرة يرى ولديه ، وقد تركت له البيت كما فعلت المرة الأولى ، فلما عدت إلى المنزل بعد انصرافه علمت أنه حمل إلى الولدين من الهدايا ما جعلهما يتصايحان ساعة دخولي ، يعرضان عليّ ما جاء به والدهما . ويذكرا كيف قضيا معه نهاراً سعيداً ، وأعطيني المربية خطاباً منه فتحتة فإذا فيه تحويل على البنك ، ورسالة يذكر فيها أنه آثر أن يحول هذا المبلغ الكبير دفعة واحدة ، حتى لا يبعث إلى تحويلات شهرية ، وأنه يرغب إلى أن أحيطه علماً مني فقد هذا المبلغ ليبعث إلى بتحويل جديد .

وأثار تصرفه هذا حيرتي . فأنا أعلم من حاله المالية سالا أشك معه في أنه يستدين الكثير من هذه المبالغ التي يبعث بها إلينا ، سواء تحويله إليهم ، أو تحويله حين سفرنا إلى أوروبا ، أو تحويله الأول ، هذا إلى جانب ما يتفق لحياته الخاصة ، أفلا يحملني ذلك على التفكير من جديد في الأمر حتى لا أشق عليه إلى هذا الحد ، ولا أحمله ما لا يطيق ؟ . .

وجاء صديقنا بعد أسبوع ، فذكرت له ما صنع . مطلقى . ورجوته أن يبلغه أنى لا أريد إرهابه ، وأنى أفضل أن نتفق على مبلغ شهرى لتفقة الطفلين . لأننى لا أقبل منه شيئاً لنفسى ، وأنا مصممة على ألا أعود إلى الحياة معه أبداً .

قال صديقنا : « أولاً تزالين تظنين أن له بصديقتك علاقة ، أو أن له إليها ميلا ، أو أن شيئاً من ذلك كان ؟ » . . .

قلت : « كلا . إني مطمئنة الآن كل الاطمئنان من هذه الناحية وإن لم تعد تعينى ، فلو أنه تزوج صديقتى غداً لما أضر ذلك منى عصب ولا طرفت لى بسية عين ! » . . .

قال : « أما وقد زال ما كان قائماً بنفسك من هذه الناحية ، فما هذا التثبت السخيف بأن لا تعودى أنت ووالد ابنك ميرثكما الأول ، فتجتمعى بذلك أسرة تشتين أنت اليوم شملها وتبددين سعادتها وهناءها ؟ » . . .
لم أملك نفسى حين سمعت ذلك منه أن ثارت كبرياتى ، فقد أصاب كلامه عزى بطعنة أهاجت كرامتى وبجرح أدمى نفسى فصحت به :

« أو تحسبنى طفلة عريرة لا تعرف ما تريد ! وهل تظننى حقت يوماً بصديقتى إلى حد أثار غيظى منها لعناية هذا الرجل بها ؟ لقد كان الأمر بينى وبين زوجى أعمق من هنا . وإذا كنت قد حدثتك عنها وذكرت لك أننى أراها بينى وبينه فلا أنى لم أرد ولن أريد أن أكشف عن مستور نفسى وحقيقة سرى ، فأرجوك يا صديقتى وألح عليك ألا تعودى إلى الكلام معى فيما ذكرت اليوم . فلا طاقة لى بسياحه من أحد ، ولا طاقة لى بسياحه منك أنت خاصة ! » .

لست أدري كيف أعلنت هذه الجملة الأخيرة من بين شفتي . فلقد
حسبت بعد أن تلفظت بها أن يحملها صديقنا معنى بذاته . فعدت إلى
هدوئي وقلت له : أنتي لواقعة بأنك أشد الناس حرصاً على شعوري وأكثر معرفة
بما تنطوي عليه نفسي إزاء هذا الرجل . فتوأن عيرك قال ما قلت أنت فإن عليّ
سماعه . أما وأنت تعرفني حق المعرفة وتعلم أنني لا أصدر في تصرفاتي عن
طيش ولا عن نزق . فقد أتتني كلامك وجعلني أظنك تناسيت ما لا يجب
أن تنساه .

ورحنا بعد ذلك إلى العسنى . وتناول كلامنا من الشئون ما لا شأن له بي .
قلما انصرف صديقنا حسبت ثوري أن جعلت العبد إلى هذا الموضع
محالاً ! . . .

وتوالت الأسابيع والشهور بعد ذلك وزادني تواليها اقتناعاً بأن المربية
أقدر مني على العناية بالطفلين ومعاونتهما على استذكار دروسهما . لذلك بدأت
أشعر بخلو حياتي وبدأ الملل يعاودني . . كيف أملاً إذن أوقات فراغي ؟ . .
لا شيء يستنفد الوقت ما تستنفده القراءة ! . لذا أكييت أقرأ ما لم أكن
قرأت من أمهات كتب الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية . وما نرحم إلى
هذه اللغات من أمهات الأدب في غيرها من الأمم . وأعبد ما كان موضع
إعجابي مما قرأت من قبل . . وكثيراً ما كنت آخذ كتابي وأجلس إلى شاطئ
البحر أستمع مقفلة العينين إلى صريف أمواجه المتكسرة على الشاطئ كما
يستمع المغني إلى ألحان الموسيقى قبل أن يبدأ أدواره . فإذا امتلأت أجحة
الخيال فتحت كتابي وأخذت أقرأ فأستغرق في القراءة فتأخذني واثمها عر

كل ما حول من ضجة الحياة وأحس أنني اندمجت مع المؤلف ومع أفكاره
ومع أبطاله ، وأصبحت في جوه هو ، وأصبح الجو من حولي مسرحاً لهذه
الأفكار وهؤلاء الأبطال لا يعرف غيرها وغيرهم ولا يتحرك فيه شيء سواها
وسواهم .

وطال لي ذلك زمناً استغرق أسابيع بل شهوراً . على أني شعرت بعد
هذا الزمن أنني في حاجة إلى أن أستجم وأستريح . وما كنت أقضي أياماً
في راحتي واستجمامي حتى بدأ الشعور بالملال يعاودني . فكرت أنه لا بد من
شيء آخر غير القراءة أطرده به هذا الملل وما يجره من سآمة ، ودار بخاطري
أن أستغني عن المربية وأن أقوم أنا بدورها ، لكنني أشقت من هذه الأمانة
وأبيت حملها بعد أن سبقت لي تجربتها ، واقتنعت بأن المربية أقلد مني على
إيجادتها . ماذا أصنع إذن لأملأ أوقات فراغي ؟

شغلت نفسي بما تشغل به كثيرات من الأمهات وقتهن فبدأت أطرز
لطفلي بعض ملابسهما ، لكنني سرعان ما برمت هذا العمل وألقيته جانباً .
فهو يشغل اليدين ويترك الذهن في حيرة فراغه ، وهو بعد ليس الإنتاج الذي
يليق بمثلي وقد تعودت أن أبتاع للتفطين هذا النوع من الملابس الجميل الذي
لا يكلف باهظ النفقة . فأتى شيء أصنع يليق بي وعملاً أوقات فراغي ؟ .
بدأت أغبط هاتيك النسوة الفقيرات بائعات اللبن أو الخضراوات أو العائلات
في المزارع والمصانع أو في المنازل ممن يستيقظن مع الصبر ليؤدين واجب الحياة
ولا يشعرن بما أشعر به من ملال وسأم . وبدأت أغبط مربية أولادي إذ
تمهض بعبء حياتهما ويترينهما وتعليمهما، وتولاني الأسف أن لم أتم دراستي

ليكنك يتمه في الموقف الدقيق الذي أقفه اليوم وسيلتي لعمل منعم عملاً فراع
وقتي . قلت أنا من طراز هاتيك النسوة أمثال صديقتي ممن يستظعن أن
يقضين سهارهن وجانباً غير قليل من ليلتهن في التزين وفي قصة الرجال استجداء
لعطفهم واستغلالاً بحمايتهم . أما وذلك شأني فما عساي أصنع لأملأ
أوقات فراغي ؟ . . .

شغلت بهذا الأمر أجمعاً شغل . وزادني اشتغالا به ما أعلمه عن الناس
وألستهم الحداد يسلقون بها امرأة مثلي تعيش منفردة مع طفلين في حي ماء
من أحياء الإسكندرية . ولكن كانت أحاديث الناس لا تعينني فإتيت مع ذلك
بلد حريصة على مكاتي وعلى صمعي وعلى ألا يشمت الشامتون بي .
وجاء صديقنا يوماً فآلفاني في هذه الحال القاتلة كاسفة المال .
فسألني : ما بي ؟ . . .

قلت : لا شيء . قال : إن وجهك ينم عن شدة حيرتك وقلقك . فهل
جد ما يزعجك ؟ . . .

قلت : كلا . ولكنه الفراغ يقتني . لقد كنت قبل طلاق أناسب روجي
الخصومة وأناضل أوهاماً تقوم يرأسى فكان لي من هذا الضال ما يشغل وقتي
كله . أما اليوم فلم يبق لي في الحياة شاغل . ولست أطيق هذا الفراغ فهو
يأخذ بخناق . دعك ما يتيح للناس من فرصة الرثرة على والتلذذ بذلك
لا يعينني .

قال صديقنا : أما فكرت في المود إلى القاهرة تستأمن فيها حياتك
للماضية . إن لك بها لأصدقاء يسرهم أن يروحوا عنك ويذهبوا ملاك وسامتك .

ولو أنك عدت إليها لسرني أن أكون في مقدمة هؤلاء ! . .

قلت : لم تعد هذه الحياة تروقني . لقد اتخذتها يوماً وسيلة لغاية هي أن أثير غيرة زوجي ليعود إلى حظيرتي . أما أن أجعلها حياتي اليومية وأن أطلق بذلك ألسنة الناس في غير موجب . فذلك حق لا أرساه .

قال صديقتنا : لا أريد أن أحدثك من حديد في استئناف حياتك الزوجية الأولى بعد الذي سمعته منك في شأنها . فلم لا تتزوجين رجلاً آخر تبين معه بيتاً جديداً وحياة جديدة ؟ . .

فأطرفت طويلاً ثم قلت . ذلك أمر لم أفكر بعد فيه . أنا بطبيعة الحال حرة في أن أفعل إن شئت ، لكنني . . لم أفكر في الأمر .

والواقع أن هذه الفكرة كانت قد بدأت بالفعل تداعبني ، وأنني كنت أفكر بالفعل في صديقتنا . لكن اعتراضات قوية ردتني عن هذا التفكير : أولاً ما دأبت صدقتي على إذاعته في جميع أوساطي قبل زمن طويل من طلاق من أتى أريد أن يطلق زوجي لأتزوج من صديقتنا ، طوأن هذا الزواج سم اليوم لصديق الناس ما كانت تدعيه ، ولقال الناس في ما شاءت لهم أهواؤهم مصدقهم الأمر الواقع .

وثاني هذه الاعتبارات وأهمها في نظري أتى أريد أن أنسى ولدي أباهما حتى يكون انفصالنا حاسماً ، ولن يكون ذلك إلا إذا تناسها من أتزوج فتسمي باسمه . وليس يسيراً أن تقبل رجل هذه التبعة أمام نفسه وأمام الناس .

ولما ذكرت لصديقتنا أنني لم أفكر في أمر الزواج بعد قال : لعلك تفكرين فيه ثم تعود إلى تقليبه معاً ، وساعود من القاهرة في الأسبوع المقبل ! . .

مرد، ترائی أقول له يوم يعود ؟ قضيت عطلة الأسبوع ألتحقس جواباً لهذا السؤال ولم أكن قد اهتمديت إلى جواب حين عاد . فلما فاتحني في الموضوع قلت له . لقد فكرت في الأمر فلم يهتني تمكيري إلى رأى . فهل لي أن ألتحقس هذا الرأي عنك ؟

فحكك طويلاً صامتاً ثم قال : لم أكن أحسب الأمر دقيقاً بهذا المقدار ، فلم يعهد الناس أن تقول سيدة إنها تريد أن تتزوج . وإنما عهدهم أن يخطب الرجل السيدة فتقبل أو تأنى .

قلت : أرايت ! . . هأنذا وضعت يدك على جوهرا الأمر وله . أما ولم يخطبني حتى اليوم أحد إلى نفسه . فلا يجوز لي أن أفكر فيها أريد وما لا أريد وأطرق الرجل طويلاً ثم رفع رأسه وقال : أصابحك بأنني لست راضياً عن هذه الحياة التي نعيشها . سواء رضيت بها أنت أم برمت بها . . فأجيبني صراحة . أترضيتني زوجاً إذا أنا خطبتك إلى نفسي .

قلت : وما عسى أن تقول صديقتي يومئذ ؟ . . إنني ممنك من زواجها . وبذلك جهدي ليطلقني زوجي حتى تتزوجي .

قال : دعيك من صديقتك وما يمكن أن تقول . وإذا كان هذا كل اعتراضك فما أهونه ، أنت اليوم امرأة حرة من عدة أشهر . فإذا تزوجت دل ذلك على أنك سيدة عاقلة . وأنتك تؤثرين الحياة الكريمة على هذه الحياة المائعة التي نعيشها صديقتك منذ سنين .

قلت : إذن فاسمع . إنني أوجب بخطبتك وأشكرك عليها إذا قبلت لي شرطاً لا أفكر في أن أتزوج من لا يقبله . إني أريد أن أحسم كل صلة بيني

وبين مطلقى . ولا يكون ذلك ما بين هذان الطفلان منسويين له . فلا بد ان يتناهما من أنزوجه وأن يتسما باسمه . فإن قبلت أنت ذلك قبلت الزواج منك .

وجم الرجل وتولته الدهشة لهذا الذى طليت إليه . وبعد أن فكر فى الأمر ملياً قال : لك ما تطلين . فالأمر فى ذلك أمرك أنت . وإذا وجه الناس فيه لوماً فسيوجهونه إليك ، على أننى أؤثر ألا تعجل فى ذلك . وألا تعجل فى إعلان زواجنا حتى لا يعرفه مطلقك ، فإذا انقضت على زواجنا بقصة أشهر انتقلت إلى بيتى بالقاهرة ، وديرنا أمر الطفلين فى هذه الأثناء . عند ذلك أجبه : إذن فأنت وما تريد ! . .

ولم ينقض هذا المساء حتى كان قد أحضر المأذون فأطلعه على وثيقة الطلاق ففقد زواجنا . وانتهت بذلك حيرتى وقلقى إذ أصبحت فى عصمة رجل أتى به وأطمئن إليه ، وله إلى ذلك الفضل فى أنه هو الذى عرض نفسه ليتقضى من هذه الحيرة وهذا القلق ، برغم ما يمكن أن ينهمه الناس به من أنه خان عهد الوفاء لصديقه ، وخفر دمه وسلبه زوجه .

وعاد الرجل العدة إلى القاهرة وكأن شيئاً لم يحدث ، وأخذ يتردد علينا كل أسبوع متحاشياً يوم يحىء مطلقى يرى فيه ولديه ، وانقضت الأيام والأسابيع والأشهر بعد ذلك وقد سكنت نفسى وهذا بالى وأطمأنت إلى الحياة ولم يعد يشغلنى من أمرها إلا أن تدبر كيف ننسب الطفلين إلى زوجى . ولم يكن تدبير هذا الأمر مستطاعاً قبل أن يعلم مطلقى بزواجنا ، وقبل أن نقطع صلته على وجه حاسم بنا .

وبقيت تدور من مطلق ما قرره لنا من ثقة حتى عدت في المدة .
 وحتى علم بأنني تزوجت صديقتي . هالك جن جونه وأيقن أنني لم أفقد
 زواج صديقتي بصديقتي إلا لأتزوجها أنا . قأنا إذن كنت أحب الرجل الذي
 تزوجته اليوم إذ كنت في عصمته هو . وأنا لم أعاصبه ولم أناصبه العداوة إلا
 لهذا السبب . وأن صديقتي حرصني على ذلك وأعانتني عليه . كما حرصني على
 محرميت الزوجية والقرار إلى الإسكندرية . ولم يترك مطلق وسطاً من الأوساط
 التي ينشأها إلا طعن فيها على صديقتي أشد الطعن . ورماء بالخيانة والغدر .
 وبكل منقصة تنكرها الرجولة وتأييها الكرامة ! . .

ولم يقف أمره عند هذا الحد . إنه يعلم تعلق بولدينا وحي لهما حب العباداة .
 لا حب الأم . لذا بعث إلي من يخبرني أنني لم أعد أصلح للقيام عليهما
 بعد أن تزوجت وأنه يطلب أن أسلمه إليهما بالحسن . وإلا قاضاني لضعفهما
 إليه . وطلبت إلى رسوله أن يبلغه أنني لا أزال أطمع منه فيما عودنيه من عطف
 ونيل . وألا يحرم الولدين من حنان أمهما وقد تعوداه . وأقنى سأبعثهما
 إليه يوماً من كل أسبوع يقضيان سحابة سهارهما عنده . وتوصلت إلى الرسول
 كي يقف مداهما عني عند مطلقى وقلت له : بالله عليك ! أكان يرضيك أن
 أبني بلا زوج فتكرهه الناس في وتجرحي بالباطل ! لقد نذرت نفسي
 غداة طلاق طهدين الطفلين أربيهما ثم لا أتزوج ما عاشا . لكنني رأيت
 نفسي بعد شهر عاجزة عن الوفاء بنذري . معرضة لما تتعرض له امرأة في مثل
 موقعي من سوء القالة وإثم الظن . ولولا أن عرض صديقتي نفسه ليفتديني بما كنت
 معرضة له لبعت بهشي الناهشون ويدسون إلى قلبي سمومهم حتى أموت

كمداً ، لكن هذا الرجل كان صديقاً لمطلق قبل أن أعرفه ، ثم كان مطلق سب التعارف يتنا وتوثيق صلتنا ، إذ قدمه لي على أنه أكثر أصدقائه وفاء ومروءة . هذا الرجل أدرك حرج مركزي فقدم نفسه متقدماً لي فشئت باليد التي مدتها إلي إبقاء على سمعة طاهرة ما تعرضت يوماً لكلمة سوء ، أليس حقاً على مطلق أن يحمي هذا الصنيع ؟ أم يكون جزاء ولدي أن يحرمنا من حنان أمهما وأن يعيشا مع مرييتهما يتيمين ؟ . .

« ناشدتك المروءة يا سيدى إلا ما رجعت إلى صاحبك وأقنعت بأن ولدنا عندى أعز من عيني ، بل أعز من حياتي ، وأنتى سأبقى مدينة له بهذه الحبة لقاء تركهما في أحضان عنايتي ، أنا أم يا سيدى فلا تكن علي في حرمانى من حبة قلبي ، بل كن لي ولك شكوى وثنائى ، وادع الله معى أو يوفقك فيما أرفع إليك أكف الصراعة فيه ! . .

كانت نبرات صوقي في أثناء هذا الحديث تصور ما ينبص به قلبي . وكنت في ختامه قد رفعت كفى المرتعشتين ضارعة إلى رسول مطلق ليكون عوي فلما أتممت كلامي ألقيت رأسي بين ذواعى أخفى دموعى التي انهملت وفضحتها بكائى . . ثم رفعت رأسي فإذا الرجل كله التأثير يكاد يبكي لبكائى . فلما استرجعنا بعض سكينتنا قال :

« ليتنى أستطيع في الأمر شيئاً يا سيدتى ، ولو أنك رأيت ثورة مطلقك لعزيتى ، ولو أننى عرفت قوة حبك لما قبلت رسالته ! . . صحيح أنه حذر من سحر حديثك . وحديثك ساحر لا ريب . . . ولست أدري والأمر ما أسمع وأرى كيف ظابت نفسه بتطليقتك ، على أنه ذكر لي أنك لو كنت

تزوجت شخصاً غير هذا الذي كان عهده . وأبعدك عنه لما ثارت بك هذه الثورة . مع هذا سأكون رسولك إليه . كما كنت رسوله إليك . وأرجو أن يوفق معه إلى ما يرضيك برعم ما في ثورته من عناد وعنف ! . . .

انصرف هذا الرسول ولم يعد إلّ . وحسبت أنه وفق في إقناع مطلق بما أردت لأنني لم أسمع عن هذا الموضوع حدثاً أسابيع متعاقبة . بل لقد بعث إلى مطلق بنفقة الطفلين بعد ذلك مما ثبت على الضن بأنه أجنب وغيبى . على أنّي علمت أنه سافر بعد ذلك إلى الإسكندرية لغير سبب أفهمه . ولم أعر نفسي بالتماس الملة لهذا السفر . ولم أتبع خطواته فيه . ولم يدر بخاطري أن له بحياتي هناك أية صلة . وكان من أثر سكونه الظاهر عني أن استراح ضميري إذ قدرت أن أمر الطفلين انتهى إلى ما أريد . وإن اضطرت ما حدث للتنازل عن مطالبة زوجي بأن يشناهما حتى لا ينور الأب من حديد . لإهدار أبوته فيعود إلى المطالبة بضمهما إليه .

وإني في مخدعي ذات صباح بعد هذه الأسابيع إذ حملت إلى الخادم إعلاناً قال إن أحد المحضرين جاء به واستمضاه على أصله . وقرأت الإعلان فإذا هو من مطلق يطلبني به أمام المحكمة الشرعية لسماع الحكم بضم ولديه إليه . لأنني تزوجت وأصبحت لا أؤمن عليهما . . . عند ذلك طاشت صواقي وخيل إلي أن انتزاع الصبيان مني معناه انتزاع حياتي من بين جنبي . ولعنت الساعة التي قبلت فيها أن أتزوج من صديقتي . وحسبت أنّي إذا انفصلت عنه بالطلاق حلت هذه العقدة واستبقيت ولديّ في أحضاني . . . لكن ماذا يقول الناس يومئذ عني ؟ وبالشهادة صديقتي إن حدث مثل هذا الأمر . إنها يومئذ

لتدق الطبول وتقيم الأفراح وتنادى بأن القدر انتقم لها من مؤامري عليها .
رباه ماذا أفعل وأي سبيل أسلك ؟

وراني لني حيرت إذ أقبل صديقاً - زوجي - غناؤه الإعلان قراءه ثم رده
إلي ، وبعد هنيهة قال : يا له من دليء ! . أبحت قاضياً يحكم بما يطلب
ليقيم المفلان في بيت لا يرعاها فيه أحد ؟ سأוכל عنك أبرع المحامين
الشرعيين يسلمونه في المحكمة بالسبهم الحداد ولا يدعون له أدعياً صحيحاً
حتى ينزقوه إرباً إرباً ، وسيعلم يوم يحكم القضاء برفض دعواه ومضاعفة نفقة
الطالعين أنه اختار أسوأ ميدان يمكن أن ينزلك فيه

وبعد الظهر أخذ الإعلان وذهب به إلى محام شرعي من أصدقائه وكله
عنى ، ويومئذ أيقنت أني علت مع مطلبي إلى خصومة لا تنفع فيها مغاضبة
ولا ملأية ، لأنها انتقلت إلى عناد عنيف بين زوجي القديم وزوجي الجديد .
ولم يخطيء ظني ، فقد شغل زوجي بهذه المسألة إلى غير حد ، حتى لقد
كان يذهب إلى المحامي بعد الظهر من كل يوم ، ثم يحيى إلي يقص ما دار
بينهما ويذكر أن المحامي واثق من كسب الدعوى لا محالة

مع هذا كانت المخاوف تساويني ، أو لوقضي لمطلبي تضم ولده فإذا
عساي أفعل ؟ . أو سلمهما له في بسر وإدعان لأنني إن لم أفعل تسلمهما
بهو القايون ؟ . لكن حياتي تصبح بعد ذلك جحماً لا يطاق ، ويعلم الله
بعد ذلك ما يكون بيني وبين زوجي في حياتنا الحاضرة ! . . .

وبدأت أعصابي تضطرب لكثرة تفكيري في هذا الأمر ، وأدى ذلك بي
إلى صعب ما كنت أسخر منه حين يصنعه غيري ، بدأت أזור الذين يقرأون

الكف ويظرون في فتجان القهورة لملهم يلمسون على مصير الولدين .
وقيل لي إن شيخاً من أهل البركة يستطيع بتعاونه أن يكفل لي كسب قضيتي
فذهبت إليه من غير أن يعلم زوجي . وكنت كلما رأيت الطفلين أمامي يكي
كأنما أصبحا شيعين . وكنت أختلف مع زوجي وأعاضبه لسبب ولغير سبب .
وكان هو يدرك علة اضطرابي وما أنا فيه فلا يغضبه غضبي بل يذل كل جهده
ليهد علي الأمر ويرد إلي الطمأنينة .

وتأجلت القضية غير مرة بطلب مخاض . ثم جاءت جلسة المرافعة فيها
فأردت حضورها . فألح علي زوجي ألا أفعل مخافة أن تصدر مني كلمة من
غير قصد تكون سبباً في ضياع حقها . وترافع المحاميان في الدعوى . وقالوا في ،
وفي زوجي . وفي مطلق ما قال مالك في الخمر . وحجرت القضية بعد ذلك
أسبوعاً للحكم فأرددت اضطراباً . لقد أفهمتي زوجي أن دعوى مطلق
سترفض في الجلسة وفي وجهه . فها هذا التأجيل ! .

وقضيت الأسبوع كاسفة اليال كثيرة الضكير . فلن يتغير شيء في حياتي
إذا رفضت المحكمة طلب مطلق ، أما إذا حكمت له فالويل لي !

وجاء موعد النطق بالحكم فإذا هو يقضي بضم الولدين إلى أبيهما . وقعت
الواقعة إذن وأقر القضاء ما وجه إلي وإلى زوجي من مطاعن . قال زوجي
حين رأى جزعي وبكائي . « لا تجزعي فسنستأنف الحكم . وأمل المحامي في
الاستئناف كبير ! . . قلت : « وقد كان أمله كبيراً عندما تسلم الإعلان
الأول ، وما نحن أولاء نحسرتا القضية في الجولة الأولى . ولا أريد بحال أن
نغامر أمام الاستئناف فنخسرهما مرة أخرى ، إني أريد أن أرى مطلق

بنفسى ، وأنا واثقة من مروءته وطيبة قلبه . . . قال : « الأمر لك . فاصنعى ما تشائين ! لكن الاستئناف يجب أن يرفع بعد أن أصبحت أنا هدفاً لمطاعن لا يمكن أن أقبلها ! . . .

وأعنتنى مطلقى بالحكم ، وكان مشغولاً بالتنفيذ المعجل ، وقال فى الإعلان : إني إن لم أسلمه الطفلين لضمهما إليه فسيخذ إجراءات التنفيذ . قلت فى نفسى . أصبح الأمر يقتضى الحكمة وحسن الحيلة ! وهينى ذهبت إليه بتعسى فأني أن يقابلنى ، أو قائلنى فى جفاء وأصر على تنفيذ الحكم ! أليس خيراً أن أبعث إليه رسوله الذى خاطبى فى أمر الولدين ، والذى تأثر بحدثينى وكاد يبكى لسكائى ؟!

وبعثت إلى هذا الرسول أرجوه مقابلتى ، فلما حضر عندى قلت له . « لقد حسبت سفارتك عنى أقمت مطلقى بالعدل عن ضم ولدي . وما هو ذا قاضانى فى أمرها ، وحكم له القضاء بضمهما ورضيت بذلك كرامته . فأطاع منك مرة أخرى فى المرافعة عنده نياية عنى ؟ أرحوك أن تؤكد له أنني لم أكن أريد السير فى مخاصمته ، وأن زوجى هو الذى اندفع فوكل محامياً عنى لأن عريضة الدعوى مسته فى كرامته وإيادته ، وأن تذكر له أنني طوع إرادته فى كل ما يريد إذا هو ترك الطفلين يكبران بعينى فى رعايتى وحضانى . إنه يعلم أنه قاتلى لا محالة إذا انتزعهما منى ، فإذا قدرلى أن أعيش قضيت ما بقى من أيامى شقية بائسة ، فإن أرضى ذلك مروءته ورحمته وما عودنى طول حياتى معه من يروءى فذلك شأنه وذنبى فى رقبته ، وإن غلبه ما أعرف من بره فترك لى الطفلين ، فأنا وهن إشارته ، إن شاء أن يطلقنى زوجى فله



در آستین پیکر و ...

ما يشاء . وإن أراد أن أهجر القاهرة إلى أى مكان يختاره فانا طوع إرادته .
إننى أقبل كل شيء ما بقى الولدان في أحضان عنايتى وحنانى . إننى أم يا سيدى
فارحموا أمومتى . ارحموا هذه العاطفه التى أودع الله بكويتنا معشر الأمهات
وجعل منها نور أعيننا وسبب حياتنا . ارحموني فإننى اليوم على حافة اليأس .
فإن فعلوا شكرتكم . أو يكون قصاء الله بينى وبينكم ! . .

وإنى لأحدثه وعيناي تسبحان بالسمع إذا الصبيان يدخلان علينا
ولا يكادان يريان ما أنا فيه حتى يرتميان على ييكيان وهما يقولان : « نحن
فداؤك يا أمه » . وبكى الرسول لكائنا ، فلما هدأت ثورتنا قال : « لك على
أن أكون عند مطلقك رسول هذين الصبيين قبل أن أكون رسول أمهما .
فإذا أخرج الأمر فسأطلب إليه أن يدعوهم ليسانهما أيتيان معك أو يعيشان
معه ، والله يوفقنى لما يرضاه وترضيه يا سيدى ! . .

وانصرف الرجل بعد أن شكرته في توسل تنطق به دموعى أبلغ مما ينطق
به لسانى ، ولم يطفى الرجل على غير ثلاثة أيام ثم عاد إلى منزل الوجه بقول :
« شركاك ما سيدنى ! لقد نجحت سفارتى عنك كل النجاح » ، ثم أخرج
الرجل من جيبه ورقة دفعها إلى وقال : « وهذا هو الحكم الذى صدر لمطلقك
بضم ولديه إليه وقد كتب عليه بخطه وتوقيعه بالتنازل عنه لمصلحتك وبقبوله
إبقاء الصبيين في رعايتك . »

ولقد كنت أظير فرحاً حين تناولت منه صورة الحكم وقرأت تنازل مطلقى
عليها ، وكنت لولا الحياء أن أقبل الرسول ، ثم إننى شكرته من أعماق قلبى
وسألته : « وفيم كان انقطاعك عنى كل هذه الأيام الثلاثة ؟ أترى مطلقى لم

يستمع لأول ما حدثته ؟ « وتردد الرجل وطلب مني إعطاءه من الجواب عن
سؤالي . فزادني ذلك شوقاً لمعرفة ما كان وإلحاحاً في السؤال عنه . فكان
جوابه : « لم يكن انقطاعي هذه الأيام الثلاثة . لأن الدكتور أتى أو تردد
منذ اليوم الأول . فقد ذكرت له رسالتك بكلماتها فندرت عيانه الدمع وقال :
« مسكينة هذه المرأة ! لولا غرورها وغيرها لما جرئت على نفسها وعلى وعلى
ولدينا كل هذا البلاء . هي تعلم . أنني أحببتها ولا أزال أحبها . لكنها لم تفلح
إلى جانب محبتي إياها أي عاطفة من جانبي لغيرها . ولا عاطفة الصداقة .
ولا عاطفة المروعة . وإنني ليعز علي أن تألم وأن أكون أنا سبب ألمها . ولست
أريد منها شيئاً قط . لنتيق مع زوجها الخائن ليمتعها الله بحياتها وحياته .
وتتحقق بالولدين فلن أحرمها منهما وأنا أعلم أنها من دوسهما لن تطيق الحياة .
ومد مطلقك يده إلى مكتبه يريد أن يخرج الحكم من ليكتب عليه بالتنازل .
وإنه ليخرج درج المكتب إذ دخلت علينا صديقك ورأتني . وإذا كانت قد
سمعت حديثي إليه دفاعاً عنك قبل أن يرفع الدعوى فقد أدركت أنني جئت
إليه بسفارة منك . لذلك صاحبت به ولي : « ماذا تفعلان ؟! » . . . وقص
عليها مطلقك ما روت له من حديثك فقالت : « يا للفناجرة ؟! » . . . أفتسيت
ما صنعتك معك كل هذه السنين ؟ لقد غاضبتك برغم إكرامك إياها لغير
شيء إلا لغيرتها مني غيرة حمقاء . وقد فرت منك إلى الإسكندرية . فلما
أردتها على أن ترجع إليك أتت منك هذه الكرامة . مع ذلك بالغت أنت في
إكرامها وبعثت بها وبولديها إلى أوروبا . وأرادت المصادقة أن أكون إياها
على باخرة واحدة ، ولو أنك رأيتهما إذ ذاك وكيف أدت بها الغيرة إلى حديث

السوء عني مع مسافرة فرنسية كانت معنا ونقلت إلى أقوالها لأيقنت أنها أصبحت في عقلها ! فقد أنكرت أنها صديقتي وذكرت لهذه الفرنسية أن أصدقائي يسمونني (الأرملة الطروب) . فلما عادت لم تعرف لك بالفضل . بل ألحت عليك في أن تطلقها ، فلما طلقها تزوجت هذا الوغد الذي خالك ونفردمة صداقتك . أهى هذه المرأة التي لا زال حبها يسيل دموعك ، وبنيها كل برك وعطفك ؟ . . .

واستطرد الرسول بعد ذلك يقول : « هنالك رد مطلقك درج مكبيه وأقله وقال : « بالله عليك يا أنسى إلا ما تركنى أفكر في الأمر سحابة هذه الليلة ! » فلما عدت إليه الغداة ألفت صديقك عتده ، وقد أخذت لدخولي عليهما وظهر عليهما بعض الارتباك دليلا على أنها كانت تتكلم في موضوعنا . عند ذلك قلت موجهاً الكلام إليها ، وكأنها معي في الحجرة وحدها . . « حانك يا سيدتى ورقاً بهذين الصغيرين ! . إنك أم وتقديرين حاجة الصغير إلى حنان أمه ، إننى لا أخاطب الدكتور باسم مطلقته . وإنما أخاطبه باسم ولديه . باسم هذين المصغورين اللذين لا يزالان في حاجة إلى دفء هذا الصدر وعطفه ، صدر الأم الحنون التي ترى فيهما روحها وحياتها . فكبرى في الأمر يا سيدتى من هذه الناحية وانسى المرأة التي تكون قد أساءتلك . انسى غريمتك التي أثرت غيرتها وأثارت غيبتك وادكرى أبناءك أنت ! أخطيئين أن يحرموا من حنانك ثم تظلمتين عليهم ، واسمحي لي بعبارة قد تربتها قاسية : أولو خيرت لا قدراقه بين أن تفقدى جمالك هذا القاتن أو تفقدى أبناءك فأى النكبين تختارين ؟ . . أرجوك يا سيدتى أن

تكون مع الصغيرين لا عليهما فهما لم يسيئا إليك إن كانت قد هدوت من
أمرهما إليك مساعة . . ثم إني توجهت بالكلام إلى مطلقك وقلت له :
« وأنت يا صديق ! أتسبغ رحمتك أم يسبغ عدلك أن يتحمل هذان
الصغيران وذر صديقك وخباته عهدك ! إنك لن تستطيع أن تقطع لحما
وعملك يشغل نهارك ومعض ليلك . وليس لك أم تحنو عليهما نحو أمهما .
وقد أنصفك القضاء وحكم لك . وهذه مطلقك لا تطمع إلا في مروتك
وكرمك وبيلك . أفترضى إلى الصغيرين وإليها خائبا ؟ حاشاك أن تفعل ! » .
ف نظرت إلى صديقك ملء عينها الفاتنين وقالت : « ما أرى إلا أن
حديث هذه المرأة سحر ككما سحر غيرك ، وقد أدليت بحجتي وأدليت أنت
بحجتك . فلتنصرف بسلام ولنترك الأمر لصاحبه » .

قال مطلقك : « عد إلى يا أنسى غداً تناول الغداء معا . وعندها أقول
لك كلمتي الحاسمة ! » وانصرفت وانصرفت صديقك . فلما دخلت
عليه في موعد الطعام سلمنى صورة الحكم وعليها تنازله كما سلمتك إياها .
فلما قرأتها وشكرته قال : « لا حيلة لي في ذلك يا صديق . فأنا لا أملك
إعصاها وأنا لا أزال أحبها ، وبذلك انتهى الكلام بيننا في هذا الأمر ! » .
فلما أتم الرسول حديثه قلب له : « إني أكرر شكرى لك يا سيدى من
أعماق قلبي ، ولست أدري كيف أستطيع أن أنجزيك بما صنعت . فاقه
بنول جزائك » .

وودعت الرجل إلى الباب حين انصرافه أكرر له عبارات الشكر . فوقف
قبل أن ينحط إلى الخارج وقال : « لا تشكرينى يا سيدتى بل اشكرى

مطلقك . اشكرى هذا الرجل ذا القلب الكبير الذى لا يعرف المحقد
ولا القسوة . ولو اعتقدت أنك تستطيعين لأشرت بأن تقدمي إليه بنفسك
وتبلى به خالص الشكر على سمو نفسه وعظيم مرويته .

وفاض بي السرور حين رأيت نفسى وحيدة فى غرقى فارتفع صوفى
بالغناء ، وإتنى لكذلك إذ دخل على زوجى فجأة وسألنى ما لى ؟ فأعطيت
صورة المحكم فقرأ التنازل الذى عليها ثم قال : « لم يبق إذن للاستئناف
موضع ، ولم يعد فى مقدورى أن أنتقم من هذا الرجل الذى أساء إلى
بلسان محاميه شريسة ! » . قلت : « لا عليك يا عزيزى ، لقد كسبنا
الدعوى من غير أن نستأنفها والخاسر اليوم هما المحاميان ، فلم يبق للمحامين
أن يمزق أديم مطلقى ، ولم يبق للمحامي أن يمزق أديمنا ، فكفانا ما كان من
ذلك أمام المحكمة الابتدائية . ولتحتفل اليوم بأن الولدين ظلا فى أحضاننا ،
فالיום عندنا هو خير عيد مر بى فى حياتى . »

وأسلمت نفسى بعد هذا اليوم إلى خيضم من الغبطة أعتاش به عن
قسوة الأيام التى مرت بى منذ بدأ الحديث فى فصل ولدى عفى ، وكذلك خلا
بال وغمرتنى من الحياة نعمة أنستنى كل ما مر بى من متاعيبها ، وما أبسر
ما ينسى الإنسان البأساء والضراء إذا مسته نعمة لم يكن يتوقعها ! . .

وأقبل الصبيان فأخلفت أقبلهما كأنهما كانا فى سفر طويل ثم عادا
اليوم مه ، أو كأنما كنت فقدتهما ثم لقيتهما ، وشعر الصبيان ، برغم عبرات
جاءت بها عيناى . أتتى فرحة مستبشرة فغمرانى بقبلاهما وأمسكا يدي
يعبثان فى نشوة وطرب ، ويدعوانى بأعذب الأسماء التى تمر بخاطرهما .

وكذلك عمت البيت كله تشوة لم تكن المربية أقلنا غبطة بها وإشراكاً فيها ،
ومرت الأيام وهذه الفبطة عملاً البيت بشراً وحيداً . وأنا لا أفكر في
شيء إلا فيما غمرنا من نعمة الرضا . وأنحسب أن أيام الحميم قد ابتلعها لهم في
جوفه . وأن المستقبل كله سيكون معطراً بشذا السعادة . بعد أن بدأت
أزاهيره تنفتح عن الأعمال الباسم .

الفصل التاسع

لم يكن لي بد من أن أشكر مطلقى على ما أسندى إليّ من بد وطوق عني
به من كريم مروءته وفيله . ولم أكن أستطيع أن أذهب إليه بنعمى وأنا
في عصمة صديقتنا . وأنا معرضة إن فعلت أن ألقى عنده صديقتي فأضطر
للفرار من وجهها فلا يحمد الرجل أدبى وأنا لا أملك في هذه الحال إلا الفرار .
فلما رأيت أن يكون ولدانا رسولاً إليه عني وعن نفسيهما . فلما كان الموعد
الذى يذهبان إليه فيه كل أسبوع علمت ابنتي ما تقول لأبيها وجعلتها تكرره
حتى حفظته عن ظهر قلبها . فلما عاد الصبيان من عند أبيهما ذكرت لي ابنتي
أن أباها بلغ منه التأثير غاية حين قبلت منه وقالت له : « إن والدتي تشكر لك
برك ومروءتك من أعماق قلبها » . وأنه ازداد تأثراً حين قبلت هي وقبل
أخوها يديه وقالاً له معاً : « ونحن كلانا نشكر حنانك وعطفك ! » .
فقد أجلسهما عند ذلك إلى جانبه وأوسعهما تقيلاً ولم يستطع وعبرانه
تنهل من عينيه أن يقول كلمة واحدة

تعاقت الأيام بعد ذلك وأنا في عطة بما طفرت به من بقاء طفلي
في كنفى ونحت جناحي ، فلقد كنت أراهما نهاري . فإذا جاء موعد
يومهما ذهبت إلى غرفتهما أتجسسهما بيدي أريد أن أطمئن أطمئناً

مدياً إلى أنهما بجانبى وتحت سقوى . كأنما كنت أخشى أن يختطفهما
أنهم فيحرمنى متاع عيشى وموجب حائى .

وفعل الزمن فعله عهدأت بمرور الأسابيع تقضى وعدت سابقى سيرتى .
لكن الزمن لا يرضيه أن يبقى مطمئن فى طمأنينه ولا سعيد فى سعاده .
فقد عاد الصبيان من عند أبيهما يوماً فذكرا أنهما رأيا هناك صديقى ومعهما
كبرى بناتها ، وأنها نظرت إليهما وقالت - توجه الكلام إلى أبيهما - ما شاء
الله ! . . لقد كبر الصبيان وترعرا ! . . لقد انتفض جسمى كله حين
سمعت ما ذكرا . أكان ذلك لأننى خشيت أن تحسدهما عيناها الجميلتان ،
أم أن وجودها مع ابنها عند مطلقى آثار نفسى وحرك ما كاد يدل من شجونى ؟ ..
لست أدرى ، لكن عاطفة الشكر لمطلقى بدأت من هذه اللحظة تضطرب فى
نفسى . وبدأت أشعر بأننى لم أخلق لأكون يوماً على وفاق منه .

وأخذ ذهنى يفتق من السبات المسعد الذى كان قد استراح إليه ،
وجعلنى أستعيد ماضى حياتنا وآخر أحاديثه غنى للرسول الذى كان سفيره
إلى وسفيرى إليه . . . ولقد وقفت عند كلمة قالها لهذا الرسول وقالها من قبل
ذلك لى ، إنه لولا غرورى وغيرتى لما جررت عليه وعلى نفسى وعلى ولدنا
ما أصابنا من المناعب ، وإته مع ذلك لا يزال يحينى ولن يحب خيرى .
وابتسمت حين استعدت هذه العبارة وخيل إلى أنه لولا هذا الضرور وهذه
الغيرة لما أحببى ولا ظل متشبهاً بحبى برغم ما أذقته من أهوال . لكن ابنسامتى
لم تلبث على شفى غير لحظة ثم تلاشت ، لأن طيف صديقى تعرض
أمامى وكأنها تقول : لا تحدى نفسك ، لما يدور بخاطرك الساعة

ليس إلا أثراً من آثار غرورك وغيرتك ! . . » وأرغمني هذا الطائف
ودفعني لأن أسأل : « إذا كان مطلق لا يزال يحبني وإن لم أحبه لما
تردد هذه المرأة عليه ؟ وما استماعه لما حتى كاد يتردد في إجابة مطلبي
بقاء ولدي في كفي ورعايتي ؟ ! » .

واضطربت في نفسي عاطفة الشكر لمطلق حتى بلغ من اضطرابها
أن علمت ألين يوم تزوجنا . وأسأل نفسي كيف استطعت حينذاك أن
أحبه . وكيف استطعت أن أعيش معه السنين التي عشناها حباً إلى
جنب ، ولم يكن قد جد ما يحرك هذا الشعور عندي إلا إحساس بأنه
يخدعني حين يذكر أنه لا يزال يحبني وإن كنت لا أحبه . فلو كان
ما يقوله صحيحاً لأقصي عنه صديقتي ولا سمح لما يزيارته متفردة أو مع
ابنتها ، ولا سمح لها بأن تتدخل في أنخص شئونه . لعل كنت ظالمة .
أو على الأقل كنت مبالغ في ثورتي هذه برجل أحسن إلي ولا يراك بظهوري
خالص الود بإحسان معاملته ولديه ، ولعل كنت يومئذ لا أجد جواباً
إذا سألتني سائل . وماذا تقولين إذا تزوج مطلقك صديقتك كما تزوجت
أنت صديقه ؟ وملا بكون يومئذ قد جزاك أعدل جزاء ؟ بل لقد كان حقاً
أن أذكر أنا ذلك وإن لم يسألني عنه أحد ، لكنني لم أفعل ، وبقى طيف
صديقتي يتبدى الحين بعد الحين أمامي ليزيد ثورتي احتداماً وليزيلني حقاً
على الرجل ومقتله وعضباً منه ! . .

على أنني لم أكن أستطيع أن أجاهر بثورتي هذه أو أبرز لها في الخارج
أثراً ، وهي تراهي كنت أستطيع حجب ولديه عنه إعلاناً لغضبي ؟ إنه لم

يقصر قط في حقهما ، فلو أنني فعلت لانهمني الناس جميعاً بالجنود وإنكار الجميل . ولم يبق بيني وبينه غير الولدين . فلا أكنم إذن حبيقتي في قلبي حتى إذا حانت فرصة لإظهار هذه الحفيظة من غير أن يلومني الناس لم أتركها واتهرتها .

لقد كنت أعلم أنه عسير أن تحين هذه الفرصة ، فلم يكن الرجل يقصر في حق الولدين ولا في نفقتهما ، وكانا كلما ذهبا إليه أغدق عليهما من فيض خنائه وبره ما يجعلهما يعودان إلى لسانتهما يلهجان بالثناء عليه ومحبة . فلا بد لي من أن أصبر ، والصبر وحده يحسم الأحداث والتوب ! . .

وتراخت الشهور بتلو بعضها بعضاً وتكاد نفسي تضيق بها ، وإني لكذلك إذ عاد ولداي يوماً من عند أبيهما متجهمين في أعينهما أثر البكاء ! . . قلت : « ما بكما ؟ » قالا : « إن أبانا مريض اشتدت به الحمى ولم نستطع المكث معه إلا قليلا ، ولم نستطع مغادرة بيته قبل الموعد الذي نعدنا أن نغادره فيه ! . . » وخيل إلي أن هذه فرصة منحت لمتعهما من الذهاب إليه محافظة على صحتهما حتى لا تمتد إليهما العدوى منه ، وجاء زوجي فذكرت له ما مر بخاطري فقال : « ليس هذا من حقلك إلا أن يمنع الطبيب دخولهما عنده . لقد أكرمك الرجل فلا تشقى عليه في علته ، وأسألكم عن الطبيب الذي يعالجه حتى نستطيع تتبع أخباره ، والله أرجو من كل قلبي أن يتم شفاؤه ! . . » وبدأت على الدهشة لما قال فأردف : « إنا يا عزيزي عرضة كلنا للسقم والمعجز والموت ! وليس بشمت بإنسان في هذه الحالات

إلا بقل وضع ! وقد كان مطلقك زوجك كما كان صديق ! . .
وإذا جاز لنا أن نخاصمه وهو في صحته فأقل ما توجه المروعة علينا أن نتالم
لحالته وهو في علته وأن نرجوله الشقاء . . .

وأطرق لساعه وتولاني العجب أن تصدر عنه هذه المباركات بعد
الذي عرف من اتهام مطلقى إياه بخيانة العهد وتخرفعة المروعة . وبعد أن
كان حريصاً على أن يستأنف الحكم الذي صدر لصلحة مطلقى ليتنقم لنفسه
منه في مراقبة محامية .

عند ذلك أيقنت أن في بعض النفوس الإنسانية عنصراً يسمو على
الحقد ساعة عسره الصديق ، وأن للصدقة قدسية لا يكفرها إلا الجاحدون ! .
وأخبرنى زوجى الغداة أنه عرف الطيب المعالج الذى يتولى العناية
بمطلقى ، وأنه سأله عن حاله فقال له إن ما به من حمى لا يمكن تبين نوعه
قبل بضعة أيام وقبل التحليل ، ولما سأله : أتجوز زيارته ؟ طلب إليه أن
ينظره خمسة أيام ثم يبدى فى الأمر رأياً ، وفى ختام الأيام الخمسة قال إنه
لا يرى بأساً بالزيارة على ألا تطول . ونبتت المربية إلى ذلك وقلت لها إنها
إن استطاعت أن يبقى الولدان لا يدخلان على أبيها حتى يحىء الطيب
مداخلان معه كان ذلك خيراً . وفتلت المربية ما ذكرت ثم عادت مع
الولدين لموعده الغداء فأخبرتنى بأنها تأثرت أشد التأثر حين رأت مطلقى وقد
هله المرض وأضسته الحمى .

وبعد أيام دق التليفون وأخبرنى المليونير أنه يريد أن يرائى . وجاءنى
فى الموعد الذى ضربته له وأخبرنى أن مطلقى دعاه إلى سرير مرضه وطلب

إليه أن يدفع إلى نفقة الولدين ، وأصاف أنه يحشى على حياة الرجل من هذا المرض . فلما رآنى المليونير صامته قال . « ولست أدري إذا أصابه المقدار كيف أقضى ديني ، لقد باع كل ما يملك جزءاً بعد جزء ، وقد أصبح مستغرقاً ، ولولا مرضه ، ولولا أن ما طلب إلى أن أدفعه اليوم يتعلق بنفقة طفلين برينين ، لما قبلت أن أدفع عنه شيئاً إلا أن يحشى بضمان مليء بتضامن معه في سداد ديونه . » وسكت بعد ذلك هنيهة ثم قال : « أو تقبلين يا سيدتى أن تضمينيه أو يضمينه زوجك ولك ما تشائين ؟ » .

فابتسمت ابتسامة ساحرة وقلت له . « لبتك لم تقبل يا سيدى دفع نفقة الطفلين اليوم لتأخذ مقابلها ضمان تضامن مع مطلقى ، وأنا أخفيك من دفع هذه النفقة إن شئت » .

قال الرجل : « لقد أسأت فهمي يا سيدتى ، إنما أردت أن تتصلب العلاقة بيني وسنك ، إذا حم القضاء في هذا الرجل المريض »
قلت : « شعاه الله يا سيدى ولا أخرجك أن تتصلب هذه العلاقة ، وما أحسب مرضه من الخطورة بما ترى »

وانصرف الرجل بعد أن دفع نفقة الولدين ، كما أراد مطلقى ، فلما جاء زوجى وأخبرته بما حدث وأظهرت العجب له ، وبخاصة بعد الذى كان يئديه المليونير من محبة لمطلقى وإخلاص لصداقته ، قال : « لا تعجبي . . إن رجال المال هؤلاء لا يخلصون لشيء غير المال ، ولا يؤمنون بشيء غيره . . هو دينهم وعبادتهم بعد أن بذلوا للحصول عليه ما يأنف الرجل الكريم من بذله . . ولو أن مطلقك مات ، لا قدر الله ، لرأيت هذا الرجل

يظهر أمامك وفي يده من الرقائق التي احتاط بها لنفسه ما لا يدور بخاطر .
وعند إذ طلب ضمانك أو ضمانى إنما أراد مزيداً من الاحتياط . . . ولعله هو
الذى اشترى ما كان يملك مطلقك أو أكثره . هذا إذا لم يكن قد أربته
قبل بيعه لديونه ، وحسباً فعلت إذ رفضت ما طلبه منك حتى لا يكون تردده
عليك من بعد مثارشبهه . أيسر معانيها أننا مدينون له . وخير عندي أن يبيع
الإنسان بعض ملكه من أن يستدين من هذا الرجل . . .

لم يعنى أمر المليونير بعد أن رفضت طلبه . وإنما عانى ما ذكره
من أن مطلقى ناع ما يملك جزءاً بعد جزء . أترى اضطره لذلك ما أنفقه
في أسفارى ، ولإصلاح البيت الذى كنا نقيم به وتجديد أثاثه . وتغير ذلك
من مطالبى ؟ . . . ثم أنفقه مذ كان يعاون صديقتى لاستخلاص ميراثها
وميراث أبنائها ؟ . . . وثباتاً كان سبب إتيانها . ألم يكن واجباً عليه أن يقدر
لمستقبل ولديه حتى لا يتركهما فقيرين عالة على غيرهما . ولكن لا عجب ! . .
فهذا الرجل كما وصفه زوجى من سنين . من طراز الأعيان الذين يبدون
كل ثروتهم في سبيل التظاهر بأنهم من أهل الثراء . وكل ما أكسبه إياه
تعليمه العالى ، وما أكسبته إياه أسفاره وتجاربه . لم يزد على طلاء مظاهر
بستر القلاح الكامن وراءه . ثم لم يغير من طبيعته شيئاً . أولو حم القصاص فيه
فاذا يكون مصير هذين الصبيين ؟ ! أحسنى يومئذ في حل من أن أحمل
زوجى على أن يتباهى وأن يتسا إلى . ثم لا يكون لإنسان أن يلومنى على
ما فعلت وقد أردت خيرهما وكفاله مستقبلهما .

وعنيت بتتبع الأنباء عن مطلقى وصير مرضه . وقد وثق زوجى صلته

بالطبيب المعالج ، وكان يسأله كل يوم عن حال مريضه . ثم يحمل إلى ما يبلغه من الأنباء . ولقد طال هذا المرض حتى مله المريض نفسه ، برغم تردد أصدقائه الكثيرين عليه وإبدائهم أرق العواطف بحوه ودعائهم له بالشفاء والعافية . لقد كانوا محاصرين في دعائهم ، لأن الرجل كان في نظرهم مثال الطيبة والوداعة ودمائة الحلق ، ولأن عطفهم اشتد عليه منذ طلقت منه ، اقتناعاً من بعضهم بأنني كنت ظالماً له منجنية عليه . ومن الآخرين بأنه كان سيئ الحظ غير موفق في رواحه ! ..

وفكرت حين طال به المرض أن أحجب ولديه عنه ، محتجة بأنه يشهد تأثيره حين يراها فيسوء أثر ذلك في صحته ، لكن زوجي لم يرض ما أردت ، بحجة أن امتناع الولدين عن زيارة أبيهما يدخل في روعه أن الطبيب هو الذي متعهما بخوف العدوي من مرض فتاك ، وأن هذا الوباء إذا تمكن من نفسه فقد يقضي على حياته . وأهاب بي زوجي ، بعد أن ذكر لي حجة هذه ، ألا أحسل هذا الوزر لجسامته ، فإذا قضى الرجل نحبه ، لا قدر الله ، بنى ضميمي يؤنني ما بقيت من أيام حياتي .

وقبلت حجة زوجي ونزلت على وأنه إكراماً له ، لا خوفاً على مطلقتي ، فإن ما عرفته من أنه أصبح مستغرقاً لا يملك شيئاً ، وأنه لن يترك لولدينا ميراثاً قلّ أو كثر ، قد زاح حفيظتي عليه وغصبي منه . وإني لأفكر يوماً إذ استأذن عليّ الرسول الذي كان سفير مطلقتي إلى سفيري إليه في أمر الولدين وحضائتهما ، وأذنت له . فلما حياتي وتناول القهوة قال : وجئت مغيراً مرة أخرى ، من قبل مطلقك . ما أشد جزعي على هذا الرجل النبيل ذي

المروءة . وما أعظم خوفى على حياته ! . . . إنه يذبل يوماً بعد يوم ويرى بعينه
أجله يندبر . وهو طيب . وهو لذلك أشد جزعاً على نفسه لأنه يعرف سير
عقله . ويذكر فى ألم وحسرة أنه لا براء له منها . وهو يشكرك من أعماق
قلبه ومكرر هذا الشكر كلما بعثت له بالولدين يزودانه ويؤنسانه . فهو يرى
فيهما صورتك أنت مجتمعته إلى صورته . ويذكر كلما رآهما أسعد أيام حياته .
ويتولاه الأسى والحزن لأنكما لم تستطيعا أن تعيشا فى هذين الولدين ولهما .
ولقد كنت أعجب يا سيدى كلما ذكر لى أيام صحته وعافيته أنه لا يزال
يحبك . وكنت أحبه إذ ذاك بمعنى بحبكما الأول ويتشبه به لأن قلبه
لم يعرف حباً بعده . لكن هيامه بك اليوم . وهو موشك أن يلقى ربه . بدلتى
على أنه كان صادقاً . وأن قلبه ظل حيانه مليئاً بك ولم يعرف غيرك . وهو
قد أرسلنى إليك فى أمر لا أدرى كيف أصوره . إنه يريد أن يراك
ليستغفرك عن كل ما مضى من ذنوبه . طامعاً فى عفوك وإحسانك ! .

قلت فى دهشة : * يريد أن يرائى ! . . .

قال الرسول : * مهلاً يا سيدى ، فلا يأخذ منك العجب .
ولا تتوكل الدهشة . ولو أنك رأيت هذا المريض . المشرف على الموت .
كيف ينسى مرضه . وكيف ينسى الموت كلما ذكرك . وتخيل إليه أنك
زرتة . لما ترددت لحظة فى زيارته . إحساناً منك بتبذيله صدقة لوجه الله .
فهذا الرجل لم يعد يعرف فى الحياة سواك . ولم يعد يحكى على لسانه
إلا اسمك أنت القيس الباقى له من نور الدنيا . والأمل المرجو عنده
فى الحياة الآخرة . أنت حلمه فى يقظته وفى نومه . أنت مصدر راحته

حين تنحدر به عنه إلى هاوية القناء . إنه حين يرى ولديكما يقول إنه
يحبهما لأنهما ولدك أكثر مما يحبهما لأنهما ولداه ، إنه يتأدبك باسمك
مبتهاً مستغفراً ، كما نادى المؤمن ربه في صلاته ! . . إنه يهذى بحبك
هذيان المجنون بليل . . أولاً يحس ذلك كله من قلبك أوتار رحمتك وبرك . . ؟
أولا تحسبن ، وقد وصفت لك حاله ، أن من حق المرومة عليك ، لا أن
ترويه وكفى ، بل أن تلازميه حتى يلفظ نفسه الأخير !

اشتدت في الدهشة وبقيت مشلوبة لا أدري ما أقول ، فلما رأى
الرسول حالي قال بعد برهة : « إني عائد إليه الساعة يا سيدتى ولن أقول
له إني رأيتك . وسأعود إليك غداً في مثل هذا الموعد ، وأكبر رجائي ألا
تحبى أمل رجل أبى على حبك حياته برغم يأسه منك وانفصاله عنك ،
قد تكون آخر سويحاته في هذه الدنيا حين يقع نظره عليك ، وحين يحاول
أن يرفع إليك يديه مستغفراً من ذنوب يعلم الله براءته منها ، سيقول لك إنه
أخطأ ولم تخطئى ، وإن عليه كل الوزر عما أصابك وأصابه ولا وزر عليك أنت
في شيء قط . سيرفع إليك أكف الضراعة لتسامحه فيسامحه ربه . .
إن لك قلباً يا سيدتى يعرف الرحمة وينسى المودة ، فاستشيرى قلبك ،
وإلى عند في مثل هذا الموعد لتذهب معاً إليه ، . . !

قال الرسول هذا الكلام واستأذن وانصرف ، ولم أملك التفكير وأنا
فيما أنا فيه من دهشة بلغت الفهول . وكيف ترائى أستطيع أن أفكر وهذا
الليل الجارف من عواطف رجل تهدده المنون ينساب نحوى ويكاد يغرقنى ،
وخرجت إلى حديقة المنزل أستشق الهواء لعله يرد إلى بعض سكينتى . ومع

هذا بقيت عاجزة عن كل تفكير وما غير قليل . فلما أردت أن أفكر انتفض .
أمامي طيف صديقتي وكأنها تقول : هأنذا ، وانتفض إلى جانبه شيخ
المليونير يطلب بدبونه . وأقبل ولداى فى هذه اللحظة قسما على عجل
ثم أسرعتا إلى مخدعي مضطربة الدهن لا أرى ما أمامي .

وجاء زوجي وشاهد اضطرابي فذكرت له ما جاء به الرسول وقصصت
عليه حديثه ، قال : الأمر لك يا عزيزتي ، إن شئت ذهبت غداً
معه ، أو شئت التمسيت لنفسك عذراً من عدم إجابة مطلبه ، ليس عندي
ما أشير به في موقف تمل فيه العاطفة ولا شأن للعقل به ، ولو أننى وجهت
إلى مثل هذه الرسالة يوصنى صديق هذا الواقف على أبواب الأبدية لحرت
في أمري ولترددت ماذا أصنع بعد الذي كان بيننا آخر الدهر من قطعة
وخصومة ، لكنه أحسن إليك يوم ترك لك ولديك فانت في غير موقف ،
وهو على كل حال لم يطلب إلى أن أزوره فلا شيء يحصلنى على أن أفكر في
الأمر أو أعترم فيه رأياً ، فاصنمى ما تشائين ولا اعتراض لى على أى قرار
تتخذينه . ١ .

زاد هذا الحديث حيرتى ، هبى أبيت أن أذهب فبأى علم أواجه
الرسول ؟ . أقول إن قلبي لا يطاوعنى أن أراه وقد ترك ولديه معلمين
يتفق عليهما من بيعت الله إلى قلبه الشفقة بهما ؟ . أم أقول له إن ما يعرف
به ليس إلا هذيان الحمى ، وإنه لو شفاه الله كما أرجو لأسف أن جرى
اسمى على لسانه في أثناء مرضه . . وإن أنا قبلت رجاء الرسول وذهبت معه
فلماذا يكون موقفى من هذا الرجل المضطرب بين الحياة والموت ؟ . ما الذى

أستطيع أن أقوله له إذا هو خاطبني باللهجة التي خاطبني بها رسوله . لن أزيد على أنني سامحته ، ثم أضطر أن أرجوه كي يسامحني فيما لعل هفوت فيه . وبعبء تأثر بلقائي ولغظ نفسه الأخير في وجودي قاية مأساة عند ذلك أواجه ؟ . . . وقضيت ليل في حيرة من أمري ، وأرقت ولم يعرف النوم ميلا إلى جنبي . على أنني كنت كلما قلبت الأمر ازددت اقتناعاً بأنني لا قبل لي بالذهاب إلى مطلقى ، ولا فائدة لمطلقى من ذهاني إليه . سيقدر الرسول حين أرفض الذهاب معه أنني لا قلب لي ، وسيرى أنني أسأت إلى من أحسن إليّ ، ولكن ذلك غير من أن أتعرض ، ويتعرض مطلقى ، لموقف لا طاقة لي به ، ولا جدوى له من ورائه .

وجاء الرسول الغداة لموعده ، فلما سلم علىّ قال : لعل الله قد هدى قلبك إلى خير تبدلينه لهذا المسكين ، لقد رأيته بعد أن غادرتك أمس فكان أول ما فاتحنى به أن سألني إن كنت قد لقيتك وأديت إليك رسالته ، فلما أبلغته أن وقتي لم يشع لما أراد انهمكت عبراته وقال : « حتى أنت يا صديقي تشكر لصداقتي حين تراني على حافة القبر ، ما ضرك لو ذهبت إليها فرددت إليّ روجي يزيارتها أو بوعد منها أن تزوري ! . . . لست أكرمك يا سيدتي أنني أوشكت أن أفضي إليه عما حدث بيني وبينك أمس دعماً لآثامه إياي أنني جمعت حق الصداقة ، ولكنني وعدتك ألا أفعل حتى أعود إليك اليوم آملاً أن تنهني معي قدرتي أنت روجه . أفتراني أطمع منك أن تكوني كريمة معه كما كان هو كريماً ذا مروءة يوم خاطبته باسمك في أمر ولدك ؟ . . . »

قلت بعد هزيمة : ارجع يا سيدى ان تمحى شيت من صدى
 ومن حلمك حتى أعرض عليك أمرى . فقد قضيت ليلة لم أذق فيها النوم
 أفكر فيما نطلب إلى وأقلبه على كل وجهه . ولم أنس منذ بدأت تفكيرى
 أنتى مدينة بالشكر الخالص لسفارتك الناحية عني عند مطلقى في شأن
 ولدى . كما أتى مدينة له بالشكر على مروءته ونبله . ولذا وددت لو استطعت
 أن أجيئك إلى ما طلبت منى إن كان في إحاطته أى فائدة . أنت تطلب إلى
 يا سيدى أن أزور مطلقى لسمع منى أتى سامحته فيما فعله أخطأ معى فيه
 إيان زوجيتا . إذن فأبلغه عني وهو لا شك مصدقك . أنتى سامحته من كل
 قلبي . وأنى أطلب إليه كذلك أن يسامحني وأن يغفر لي . لعل الله يشعلنا
 نحن الاثنين بعفوه ومغفرته . أقول ذلك صادقة مخلصة عن نفسي . أما
 ولدانا فأمرهما إلى ربهما ولا أملك أنا من ذلك شيئاً . إنه إن اختاره الله إليه
 سيتركهما فقيرين إلى عطف أجنبي مكفلهما . أوتيهما . أتراني أستطيع أن
 أقول ذلك لمطلقى وهو فيما تقول موثق أن يلقى ربه ؟ وهل يرضيك أن أكنم
 ذلك فأبوء بأنم الولدين في غير ذنب ولا جريرة ؟ وهبى ذهبك معك إليه
 ورضيت أن أكنم أمر الولدين إبقاء عليه وأدفع هويذ كر أمامى ما قلت أنت
 لي من أنه يحببني ولا يحب غيرى . أفأجيبه صادقة لكنى لا أحك . أم
 أجيء كاذبة بأنى أحبه وأنه ملء سمعى وبصرى ؟ إنك تحدثني باسم عاطفته
 التي تتحكم فيه ، فهل تريدني أن أقف أمامه صليدة حاملة اسم ولا أطلق : أم
 تريدني باسم الرحمة كاذبة مرأته ! . ثم هبني ذهبك معك إليه فكأن
 ما تقول وقضى حبه سعيلاً بوجودي عنده فإذا يقول الناس عني ؟ أنتى

أشقيته صحيحاً وقتك مريضاً ١ . ذلك بعض ما دار بخاطري يا سيدي
طول ليلي ، وأعفبك من سماع ما بقي مما سواه ، فهل ترائي أصبت الرأي ،
أم ترى أن تشير علي بما يخالفه ؟ ٢ .

وظل الرجل صامتاً كأنى لا أزال أتكلم . وكأنه لا يراد به سماع . .
فلما فطن إلى سكوتي التفت إلي وقال . « يدور لي يا سيدي أنك اتخذت
في الأمر قراراً لا سبيل إلى الرجوع فيه . فقد فرضت كل القروض وأجبت
عليها جواباً لا يحتمل المناقشة ، ولعلّ لو قلت لمطلقك إنك سامحته
وصفحت عنه فيما لعله فرط منه أرساه ذلك وطمانه . ولعله يزداد اطمئناناً
حين أذكر له أنك تريد أن يغفر لك كما غفرت له . وأن يسامحك
كما سامحته . ولكنني شدد ما أخشى أن يبقى بعذبه ضميّره إذا عرف أنك
سامحته عن نفسك . وأبيت أن تسامحه عن ولديكما ، أنا أفهم ما تقولين
من أن أمرها ليس لك ، وأنهما هما اللذان يملكان مسامحته يوم يكبران .
وهو لا ريب يفهم ذلك كما أفهمه ، ولكنه يطمع في ألا يكون قلبك غاضباً
عليه من أجلهما . أهأستطيع أن أبلغه ذلك ؟ . . فلو أنني فعلت لسهل
ذلك على التماس العذر عن عدم ذهابك إليه . ولا أحسبك تأين عليّ ما أطلب
من ذلك وأنت تعلمين أنه لم يعبث بماله في ترف نفسه أو في عبث مما ينلهي
المسرفون به . كما أنك تعلمين أنه لو استطاع أن يضاعف ثروته لما أقعده
دون مضاعفتها من طريق شريف أي اعتبار .

قلت : « عزيز عليّ يا سيدي أن أرفض لك مطلباً في مقدوري
إجابته . ولو أنني كنت امرأة واسعة الثراء لأجبتك إلى ما تريد ولجعلت

لولايدى من مائ ما يفتيهما عن ميراث أبيهما . أم وليس في هذا انقراء فلا بد
أن يكفهما غيرى . فكيف يرضى قلبى عن بقائهما عائلة على العبر وقد أتت
متد مولدما حياة النعم ! فإن يكن أبيهما قد أصاح ماله مضطراً فإن الله
وحده هو الذى يغفر له . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه . أم إن
كان قد أصاح ما يملك في غير ضرورة فله بتولى جزاءه . إن شاء غفر له .
وإن شاء لم يغفر . ذلك غاية ما أستطيع قوله . ولعلك ترائى مصفة فيه
كل الإقصاف ! . . .

لم يجد الرجل ما يجيبى به . ولم يطمع في إقناعى بتعديل قرارى فاستأذن
وانصرف مشكوراً .

ولست أدري على أى وجه أبلغ حديثنا لطلقى . ولكنى علمت من
بعد أن هذا المريض المسكين حز في نفسه أن أيت زيارته . وأن تراخت
زيارة ولديه له . وإن كان لا يراها حين يذهب إلى إلا لحظات لا يعنى
ولا تروى ظمأ ظامئ .

مع ذلك استطال من بعد مرضه حتى رحمه شانه . وحتى كان
أحبابه يتوجهون بالدعاء إلى الله أن يريحه بالموت من عناه . وفي الأيام
الأنيرة من شهر نوفمبر من تلك السنة أبلغت أنه مات . فترجعت عليه .
وقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

هدأت نفسى حيناً بعد وفاة مطلقى . ونجى إلى أن الموت حمم
ما يبنى ريبه إلى الأبد . وأقام ستاراً كفيفاً حجب عني ما ضياء ذقت فيه
عصماً وآلاماً . ونوهمت أن في مقدورى أن أنسى هذا الماضى فلا يبقى

له في ذاكرتي ولا في أي مظهر من مظاهر وجودي أثر . وهل شيء كالسيان
يتخذنا مما نود أن نتخلص منه ، ويتيح لنا أن نكيف عاصبتنا على ما نريد ،
لننم بما يحويه من خير وإن قل ، ونجسم هذا الخير ونعجده ، ونمحو
ما أصابنا فيه من بأساء وكأنها لم تكن ، ونزيف بذلك لأنفسنا تاريخها
كما تريف الأمم تاريخها ؟ !

وأول ما دار بخاطري . لأجعل هذا الذي توهمت حقيقة واقعة ،
ولأمحو من ذاكرة الوجود أنني كان لي زوج قبل زوجي الذي يحبنى
اليوم من كل قلبه ، أن أنسب ولدي إلى هذا الزوج الثاني وأمحو مسبقهما
إلى أبيهما الذي أنجبهما منه ، ولم يكن ذلك عسيراً والقانون يبيح تغيير الأسماء
إذا اتخذت لهذا التغيير إجراءاته ، ولكنني لم أكن لأقوم بتنفيذ ما أردت
إلا أن يوافق زوجي عليه وأن يماوتني في الإجراءات التي تحققة .

ولم يكن عسيراً عليّ أن أقنعه وأن أزيل من نفسه شبهات أبدأها حين
بدأت حديثي معه في هذا الأمر ، فقد ذكرته بأنه قبل شرطي يوم خطبتي
إلى نفسه أن يتبنى الولدين حتى لا تبقى بيني وبين مطلق أية صلة ، وأني
كنت معترمة يومئذ أن أنسبهما إليه لولا أن رفع مطلقي الدعوى يطلب فيها
ضم الولدين إليه ، ولولا أن حكمت المحكمة له بما طلب ، فاضطرتني حكمها
إلى مصالحته على بقائهما في رعايتي ، لولا ذلك لما تردد زوجي في تنفيذ شرط
قبله . ولم يبد الرجل اعتراضاً إلا خشيته من قالة الناس في فساد ظنهم
بي ، وسوء حديثهم عني .

واتخذ المحامي الإجراءات وحكمت المحكمة بتبديل اسم الولدين وجعل

سبتهما إلى زوجي ومحو اسم أيهما وإزالته عنهما . وقد اغتبطت يوم صدر هذا الحكم بقدر ما اغتبطت يوم قبل مطلق أن يتنازل عن ضم لولدين إليه ليبقى في كنفى . فقد أيقنت أنني لن أسمع من بعد اسم هذا الرجل ولن أقرأ في الشهادات التي تبعث المدرسة بها إلى عن امتحان الولدين . ولن يبقى له مما يتصل بي أي ذكر أو أثر .

وذكر لي زوجي بعد صدور الحكم تسمية الولدين باسمه أنه يريد أن يوصي لهما بثلاث ماله . وأنه لو وجد في القانون حيلة لأوصي لهما بكل ماله . قلت له : « لا تسجيل فهذا ولدك . والأب لا يوصي لأبنائه . أطال الله بقاءك وبقاتي حتى نراهما شاباً وقناة ملء العين . وحتى نكفل لهما عنايتك ورعايتك مستقبلاً برضك » . ولقد كنت أعير صديقة عما يدور بقلبي . فقد أكرم زوجي ولدي منذ تزوجنا إكرام الأب لبيه ورعاها رعايته فلك بحنانه عليهما كل قلبي وجعلني أشعر بأن المثل القائل : رب أخ لك لم تلده أمك . كان يجب أن يضاف إليه . . ورب أب لك لم تحالطه أمك ! .

وهل الأبيوة والأمومة إلا الحنان والعطف ! أذكر وأنا أكتب هذه العبارة تمثلة شهادتها في باريس تصور زوجة سامحها زوجها بعد أن أنجبت ولداً من خليلها . وسب الولد بحكم القانون إلى الزوج الذي أعاد عليه من يوم مولده كل حقه وحنانه . وشب الولد وكبر وهو يؤمن بأن هذا الزوج أبوه ، ثم إنه عشر يوماً في أوراق أمه بخطاب عرف منه سر مولده ، فثار في عروقه دمه أن حمل هذا الرجل الذي لم يكن أباه كل

ما يحمل الأب من عبء لتنشئة أولاده ، وتطوع للجنسية وتذب كطلبه
للسفر إلى الهند الصينية فراراً من بيت ليس بيته ، وعبثاً حاول الرجل أن
يفتنه بحماقة ما يصنع . وأن طيش لحظة طاف بأمه لا يحو عطفه هو
عشرين سنة أو تزيد . وسافر الرجل يودع الشاب على الباخرة التي تبحر به
إلى مفاه ويرجوه أن يعدل عن عزمه ، وأنى الشاب ، فلما بدأت الباخرة
تتحرك ووقف الرجل على رصيف التفريرودعه ويشير إليه بمنديله الأبيض ، صاح
القبي إلى الملتقى يا والدى . وطفح قلب الرجل سروراً بكلمة والدى هذه
مقتنعاً بأن الشاب آمن برأيه فى اللحظة الأخيرة ، وأنه لم يقل هذه الكلمة
بحكم العادة ولا بدافع المجاملة .

وهذا الرجل فى رأى على حق . فلما هيمه الأبوة أو الأمومة العاقبة
إلا أن يمرض العانول على هذا الأب أو على هذه الأم أداء الواجب للجيل
الناشئ . فإن لم يفعل لم يكن أيهما حقيقة باسم الأب أو الأم ، هذا الاسم
الكريم الذى يحمل فى طياته أكرم المعاني وأنبهها ، وقد حمل زوجى عبء
الأبوة لولدى من يوم تزوجنا ، فلم أكن مبالغة ولا مغالاة فى قولى له إنهما
ولداه . ولا فيما فعلت من نسة اسميهما إليه ، وإن كان من الحق على
اليوم . وقد مرت السنوات على وفاه زوجى الأول ، أيهما ، ألا أجد أنه
إلى أن وافته المية لم يقصر فى واجبه إزاءهما ، وكان كله العنان والعطف
عليهما .

وتعاقبت السنوات وقد وضعت زوجى الأول من ذاكرتى ومن قلبى فى
قبر محقق أشد صمتاً من القبر الذى يحوى وفاته ، فلم يكن اسمه يحرى على لسانى ،

بل لم يكن يمر نحيابى . وتعود الويدان أن يخاطبا روجى مخاطبة الولد لوالده .
وألا يذكر أنهما كان لهما أب سواه . وأن يقدر ما يحبوها به من عطف
وما يسفه عليهما من حنان . ولقد أدهشنى منه وأثار إعجابى به أنه ليس ثوب
الأب فى سلطانه وفى حنانه . وكأن محبته لى أدخلت إلى قلبه من عواطف
الأبوة ما احتواه قلبي من عواطف الأمومة . فكان ذلك مدعاة لاسجام
الحياة بيتنا جميعاً كما تسجم الحياة فى الأسرة الواحدة بين الوالدين
والبنين .

وظل ذلك شأنا . وظل الولدان يكبران بأعيننا وعنايتنا . لا شيء
يكدر صفونا . أو يشوب سعادتنا . ولا نطمع من الحياة فى خير مما أعطتنا
لم أعد أفكر فى السفر إلى أوربا أو إلى الأقصر . ولم تعد مغريات المجتمع
تجذبني إليها . بل أصبحت مملكة البيت مملكتى . والعناية بالبيت ومن فيه
مصدر سرورى وسعادتى . وقد بلغت فى أثناء هذه السنوات الفتيّة أن صديقى
تزوجت فدعوت لها بالتوفيق . ولم يتعرض طيفها لى ولم يثر حماها ثأرى .
ومالى أنا ولها ؟ ! . بل مالى أنا ولغيرى من الناس وقد ظفرت بما كنت
أرجو من طمأنينة وسعادة ؟ . وقد أنست إلى زوجى وولدتى وأتسوا إلى .
وقد أصبحت أدعوا للناس جميعاً بما حبانى الله به من فضله .

يقولون إن الأمم السعيدة لا تاريخ لها . ويبدو لى أن الأسرة السعيدة
لا تاريخ كذلك لها . إنها تتخفى فى هون على متن السنين مألوف حياتها .
فلا يشير طلعة أحد ولا تدعو أحداً للكلام عنها أو للتدبر بها . وإن غبطها
الناس لما أفاء الله عليها من ستره ورعايته .

وتعطي ولدي الثانية والعشرين من سنى حياته . وإبنى الجالسة يوماً
فى غرفة نومي إذ دخل علىَّ يدعو على سباه اشتغال البال . ولم أزد أن أسأله
عما يشغله ، وثاقه أنه لم يحضر هذه الساعة اعتباطاً ، وإنما جاء يحدثنى
فى أمر يراه جليل الخطر وللشباب عذره إذا اضطربوا لما لا يوجب الاضطراب ،
فليست لهم من تجارب الحياة مناعة ترد عنهم شتات البال وتبيل الفكر فى كل
شأن جل أو صغر . وأمسك الشاب عن الكلام هنيهة بعد أن جلس إلى
جانبي وكأنه يدير الأمر فى رأسه ليصوره لى . على أنه ناء بالصمت بعد قليل
فاندفع يقول :

« جئت أحدثك يا أمام فى أمر أحل من كل ما تتصورين خطراً .
لقد أعجبتنى فتاة تعرفني وتعرفني أهلها وأردت أن أخطبها إلى نفسي ،
ورأيت أن أسأها أتوافقني على أن تتزوج ؟ فقالت فى حياء وخضر إن
الأمر فى ذلك لوالديها ، ولم أزد أن أفاتحك فى الأمر قبل أن أطمئن إلى
رأى أمها ، فأنا أعلم أن الأم إذا رضيت بعد أن رضيت ابنتها قلما
يرفض الأب ما رضىته ، فلما ذهبت إلى تلك الأم العلية القلب وعرضت
عليها الأمر وقلت لها إن ابنتها تركت الحكم فى ذلك لأبويها قالت :
إبنى يا بنى لا أعز عليك شيئاً ، ولا أعز عليك ابنتى ، لقد كان والدك
عليه رحمه الله صديقنا وكان من خير الناس وأطيبهم قلباً وأكثرهم مروءة ،
لكمك يا بنى محوت اسمه من اسمك ، وأبدلكه باسم زوج أمك ، ولم أكن
أنا ولم يكن زوجي راضين عن ذلك من يوم حدث ، فذكرى أهلك أعز
علينا من أن تمحى ، وأسألك يا بنى : إذا تزوجت ابنتى وأتجبت منها وسأل

الناس ولد كما عن حله لأسه فاذا يقول ؟ أيدكر أبك الحق أم يدكر زوج أمك ؟ ! فإن شئت يا بني أن أخطب زوجي فيما تطلب فأعد قبل كل شيء اسمك كما كان ، اتسب لأبيك لا لزوج أمك . فإن فعلت فحياً وكرامة . ولك علي أن أحاول إقناع زوجي لتكون زوج ابته . أما إن أبيت فعزير علي أن أبلغك أننا آسفون إذا لم نستطع أن نجعلك إلى ما تطلب . ولا أريد منك الساعة جواباً بل تروى الأمر واستشر فيه .

ه كذلك قالت لي يا أماه . وقد رأيتها على حق فجئت أعرض الأمر عليك قبل أن أتخذ فيه إجراء أو أحطوفيه خطوة . فأشيري علي ؟ . . .

بم أجيب ؟ ليس الأمر الذي يعرضه علي ولدى نزوة شباب . ولا هو من ضالة الشأن بما يثير ابنتي . بل هو أجل خطراً بالفعل من كل ما توقعت ، فلا بد لي من مواجهته شيء من الحزم يرد عني وعن أسرتنا كلها ما يهددها في صميم كيانها . لذلك لم أتردد في أن قلت :

- وما لأم هذه الفتاة أن تتدخل في أحص شئوننا وشئونك ! . .

وهلا ترى من تدخلها اليوم أنك إن صاهرتها غداً فستظل مستبدة بك تحاول بوجيئك في الجليل والحفير من أمورك . لذلك أنصحك أن تعزل عن التفكير في هذه الفتاة . وأنا كفيلة بأن أجد لك خيراً منها يفرح بها قلبك ويفرح بها قلبي . هذا إن كنت مصراً على الزواج وأنت لا تزال في هذه السن المبكرة ، أما إن أردت الخير لنفسك فأجل تفكيرك في إقامه أسرة قدتوء اليوم بأعبائها ، حتى يعاونك عمل تهص به ويدرك عليك أحلاف الرزق لتسعد أنت بأسرتك وتسعد هذه الأسرة بك .

وأجاني الفتى : ليس الأمر الساعة أن أؤجل التفكير في الزواج أو أعجل به ، وإنما الأمر في هذا الاسم الذي أحمله بغياً بغير حق ، ولقد خاطبت أختي في أن نعود باسمينا إلى اسم أينا الذي أنجنا فوافقني على ذلك ولم يبد زوجها اعتراضاً ، هذا لب الموضوع في حديثي لك اليوم ، فإن أمت وافقتني ثم اعترضت على زواجي من هذه الفتاة لأسباب تعرفها فإني عند رأيتك ، ولا أعصى أمرك ! .. فهل ترين ما يمنع عودتنا إلى التسمية باسم أينا ؟ .. إنا الآن راشدان أنا وأختي ونستطيع هذا الأمر من تلقاء أنفسنا ، لكننا لا نقدم عليه حتى تكوني راضية عنه مطمئنة إليه .

قلت وأعصاني تضطرب وأكاد أرى أسرتنا تنهار أمام عيني : أنظركي إلى غد أروى في الأمر ، وأشير بالرأى فيه ، فإني الساعة متعبة : وأشعر بالحاجة إلى الراحة .

وقام الشاب وفي نظراته معنى الدهشة وقال : إلى غد إذن يا أماء ، وأرجو لك راحة الجسم وطمأنينة النفس .

ولم ألبث حين خرج أن رأيت الدنيا تدور من حولي ، وكأنني على زورقي في بحر لمحي لا شاطئ له ، أفأستطيع أن أفاتح زوجي في شيء مما قاله ولدي ليري كل ما أسداه لأخته وله يتقلب جحوداً وعقوداً ؟ وهل أستطيع أن أنكر على ولدي حقه في التسمية ، إن شاء ، باسم أبيه ؟ وأي داع دعا هذه السيدة ، وهي من أكثر أصدقائنا إخلاصاً لنا ، أن تثير هذا الأمر وأن تفتني هذا الموقف ؟ لست أعرف بيني وبينها حقداً ولا غيرة ، فما كان أجدرها أن تخاطبني في الأمر قبل أن تفضي بما قالت



فلما دخل روجي إلى غرفة الاستقبال ، رأى فيها صورة مكبرة لزوجي الأوف

إلى ولدى ! وكيف ترانى أنقضى اليوم ما أيرته أمس فيظن زوجى أننى
خدعته لغاية فى نفسى ! . .

وتوارد طوفان من هذه المخاطر على ذهنى فشعرت بقلبي يخفق وأعصابى
تزداد اضطراباً ، ثم أحسست برعشة كأنها الحمى ، ولقد حملت الله
أن كان زوجى مدعواً للغداء ذلك اليوم ، ثم كانت عنده مشاغل تمسكه
عن الحضور إلى البيت حتى المساء . وقلت فى نفسى : لعل أكون قد تدبرت
الأمرووجدت حلاً قبل موعد حضوره .

وأقبل المساء فإذا الحمى تلازمنى وتمسكنى فى سرير نومي ، فلما
جاء زوجى ورأى حالى أراد أن يدعو الطبيب فقلت له : دعنى الليلة
فإني أحسها رعشة طارئة ، فإذا أصبحت لم تتصرف عني كان للدعوة
الطبيب موضع ، ورجوته أن يقضى ليله فى غرفة أخرى . ولست أدري
بعد أن بقيت وحدى ما الذى أصابنى . أفنت فعبث في كابوس أزعجنى ،
أم أنه هذيان الحمى الذى استبد بي ؟ . . فقد تبدى أمامى طيف مطلق
وهو ملتف فى أكفانه وأخذ يحملنى فى وسعته وكأنه يهتف بي : هأنذا
سترىنى الليلة وسترىنى من بعد ، سترىنى بينك وبين روحك فى يفظنك
وفى نومك ، سترىنى بينك وبينه فى ثيابى وعاريأ كيوم ولدتنى أمى ، سترىنى
بينك وبينه حتى فى سرير نومك ، وسترىنى حتى يعود ولدائى إلى التسمى
باسمى ، فإن عادا تواريت لا عن رضا ، ولكن لأدع زوجك يتم قضاء الله
فيكما والله أعقل الحاكمين .

واستبقت جوف الليل مدعورة أصبح من هول ما رأيت ، وأسرع

إلى زوجي من المخدع الذي كان فيه يسألني ما في ؟ قلت وشحمتي تهرق .
« إنه كايوس أزعجني فلا تتركني . وقضى الرجل بقية نيمه على كتفه .
في الغرفة . ونسيت مؤرقة حتى إذا نادى مؤذن الفجر . غصت فزأيت في
غفوتي كأن والدي يقول لي : « غيم تترعجين يا ابنتي . دعني الأمر لولدك
يقضيان فيه برأيهما ولا تحمل أنت تبعته . قولي ذلك لولدك إذا جاء اليوم
إليك بريد مشورتك . ونبيه إلى أن الأمر أخطر بالنسبة له ولث من أن يقضي
فيه بحقة ومن غير روية » .

نمت بعد ذلك وطاب نومي ولم أستيقظ إلا قرابة الظهر . واستيقظت
وقد نزلت عنى الحمى وإن بقيت منهوكة الجسم . محطمة الأعصاب .
وكان زوجي قد خرج لعمله فأتاح لي فرصة أتدبر فيها الأمر من جديد .
ولم أجد خيراً من المشورة التي أسداها إلي طيف أبي . لكي آتري ألا أبت
في الأمر قبل التحدث فيه مع زوجي . وجاء ولدي وآن ملازمة قرائتي
فأبت عليه بنوه أن يعيد الكلام علي ويسألني رأيي حتى أستعيد نشاطي .
فلما جاء زوجي ودخل إلي يسأل عن صحتي استقيته عندي وذكرت له
حديث ولدي . وأن هذا الحديث هو الذي أركبني الحمى وأزعجني . فسكت
طويلاً ثم قال :

- هل نستطيع أن نمنعه أو نمنع أخيه وقد بلغا رشدهما ولم يبق لي
ولا لك عليهما سلطان ؟ . فليفعلا ما يشاءان فذلك حقهما . ثم يكره لنا
بعد ذلك في الأمر رأي . . .

وجاء ولدي النداء فألفاني على مقعد الطويل وجلس عند قدمي

وسألني عن صحتي ، وحمدت له الله على أن أعاد إلي العافية ثم قلت له :
 « إنك شاب عاقل تحسن وزن الأمور ، فلك أن تتصرف كما تشاء
 فيما حدثني عنه أول من أمس ، ولا اعتراض لي على ما تفعل . وكل الذي
 أريد أن تعلمه أنني يوم بدلت اسمي كما إنما أردت خيراً كما ومصليحتكما ،
 عز على أن تشعرا كلما دخلتما هذا البيت أو خرجتما منه أنكما عريان عنه ،
 وأن يشعر زوجي كذلك مثل هذا الشعور ، فأردت أن أخلق فيه جو الأسرة
 بجمناه الكامل ، وقد أقررت زوجي على ما أردت وأعطاني فيه ، ثم ذهب إلى
 أبعد من المعونة فأراد أن يوصي لكما بثلاث ماله ، بل بكل ماله ، وعارضت
 يومئذ إرادته حتى لا يظن أي قصدي إلى منفعة مادية مما صنعت ولا أراه
 إذا ففدت أنت عزمك وبدلت اسمك واسم أخذك ألا بصر على تحرير
 وصيته تلك ، فهو رجل طيب القلب ، عاملكما منذ دخلتما بيته معاملة الأب
 لأبنائه ، بل اعتبركما ابنيه بالفعل وبذل لكما كل عطفه وحنانه . أما وقد
 بلغتكما رشدكما وأصبح من حقكما أن تختارا اللقاء على ما اخترت لكما أو
 تعدلا عنه لما كتبنا عليه فلكما من ذلك ما تشاءان ، وأنت قل أخذك خيراً من
 يقدر ما يترتب على تصرفه من آثار ونتائج » .

قال ولدي في غير تردد : « أشكرك يا أمه من كل قلبي ، ولا ثريب
 لي عليك فيما فعلته إيان صغري ، سواء فعلته غضباً من أبي أو التماساً لخبري
 ومصليحتي . فإن كانت الأولى فلا أحسب المرجحة باقية في قلبك بعد كل
 هذه السنين على رجل يذكر عارفه جميعاً مروءته ، ويذكرون أنه أكرمك
 طول حياته بعد غضبك منه وانفصالك عنه ، وإن كانت الثانية فما كنت

لأبيع اسم أبي شمس وإن عظم . وسبه هو الدم الذي يجري في عروقي . والحياة التي ينبس بها قلبي والنعمة التي يشع بها نور عيني . ولئن يسبى هذا الدم وهذه الحياة وهذه النعمة ما لزوجتك التي تدعوه اليوم أبنانا من فصل عيب ويربنا وحنان ذقنا كل هذه السنين حلاوته . مننا يا أمام عاقين ونحن ابتلاء وابنا أيتنا . وإذا كنا قد انفصلنا في الحياة لأمر لذلك طارئ يحدث ثم ينسى . أما الاسم الذي حملناه يوم مولدنا فهو الذي يجب أن يبقى علماً على محبتكما وبركما . فالحياة محبة . وما سوى المحبة هباء يذهب مع الريح ولا تبقى منه بقية .

تأثرت بهذا الذي سمعت من ولدي أبلغ التأثير فقبلته من أعماق قلبي وقلت له : « رعاك الله يا بني وهذاك السداد والحكمة . ألا ترى أن قضى لأليك زوجي بهذا الذي ذكرت الساعة عنه » . وأجبت : « بكل سرور يا أمام لولا أن أخشى تأويل ذلك يأتي أطمع في وصيته . فاستأذنتك في اتخاذ الإجراء لاستعيد اسم أبي لي ولأختي . فإذا تم ذلك واستقر أمره جئت معها فأدينا لأيتنا واجب الشكر وعرفان الجميل » .

وانصرف ولدي مستأذناً في أن يدعى استريح . وأخذت أفكر في هذا الحديث الجديد ومقدماته ونتائج . ولعنت الساعة التي عرف بها ولدي هذه الفتاة حتى ليريد أن يعطيها إلى أهلها . والساعة التي استشار فيها أمها وقد أدت مشورتها إلى هذا الاضطراب الذي أعانيه اليوم . وقد تؤدي إلى اضطراب أوسع نطاقاً تتأثر به صلاتي بزوجي ، وينتهي إلى تشييت شملنا بعد إذ كان مجتمعاً في انسجام واتساق . ودخل على زوجي وهذه الأفكار

تتناوبني وترسم صورتها على محبائي . . . قلما رأى ما يبدو من ذلك على
قال : « لا تجسسى الأمر يا مزيقي ولا تنزعجني له ، فهو واقع غداً إن لم يقع
اليوم لأنه نزول على حكم الطبيعة . . . فإكان الدم ليتقلب ماء في يوم من
الأيام ، وللقوراة حكم لا سبيل إلى معالته ، وقد أصبحت ابتك في عصمة
رجل وأصبح ابتك قديراً على الكفاح في الحياة فأغناهما ذلك عنا ، وأتاح
لهما من الاستقلال في التفكير ما نزع عنهما سلطانتا ، وإن استبق لهما
حبنا وعطفنا » . فشكرت له سمو عواطفه وقلت له : « لو أنك سمعت ما قاله
ولدى عما يضمه لك من إكرام ومن اعتراف بفضلك وجميلك ، وتقدير
لحنانك وبرك كل هذه السنين لترك أن أعمرت ثريتنا هذه الثمرة الصالحة ،
وقد ذكر لي أنه سيؤدى ما عليه لك من واجب الشكر بعد أن يعبد إلى اسمه
واسم أخته اسم أبيهما ليكون الشكر خالصاً برباً من كل شائبة » . . .
وجم زوجي لسماع هذه الكلمات الأخيرة ثم قال : « فليلهم الله
السلاد والحكمة ! . . . »

وعاد الرجل إلى وجوهه ، ثم انصرف عني إلى مكتبه ، فلما آذنت
الشمس بالمغيب جاء إلى بخبرني أن أصدقائه دعوه إلى طعام العشاء وإلى
سهرة قصيرة بعده ، وأيقنت حين غادر البيت أن حديثي ولدى فعل فعله
في نفسه ، وأنه مضطرب له اضطرابي ، حائر في أمره حيرتي ، مقدر أنه
لا يملك رده ، متألم من أجل ذلك له ، وأنه ابتكر هذا العشاء وهذه السهرة حتى
لا ينكشف لي اضطرابه وألمه ، وقد راد هذا اليقين في حيرتي واضطرابي ،
وخيشتي من المستقبل القريب وما ينطوي عليه من نذر .

وإذا حن الليل وآت ذى أن أسكن إلى مضجعي وأن أطفئ أنوار غرقى .
شعرت بالرعدة من جديد تهزى وتراجعت عن سررى فزعة مخافة أن أرى
التعذيب الملتف في أكماله يتدس إلى جانبي ليكون بيني وبين زوجى . عند
ذلك همل الدمع من عيني وعدت حيث كنت على مقعدى ودفعت أكف
الضراعة إلى الله أن يعص عني وأن يريح باني . وأقمت على ذلك زمناً ذهبت
بعده إلى مرفدى أحارب اليوم فلا يطاوعنى . وبعد منتصف الليل أحسست
بزوجى يدخل الغرفة ولا يضيء نورها ويشمطى في مكانه من السرير وأنا
متناومة لا أبدي حراكا . فلما تينت من صوت أنفاسه أنه نام أخذتني
الشفقة عليه لاضطرابه وحيرته ، فهو قد حاول أن يقيم أسرة تسعد بها كهولته
وشيوخته . وبذل في سبيل ذلك حر عواطفه وماله ، وما هو ذا يرى محاولته
تهار من أساسها ولا يستطيع شيئا لدعمها واستبقائها . وهأنذا شريكته
في محاولته ، أشاركه الحسرة لانهيارها . ثم أنا بعد ذلك أشد منه حيرة .
أضطرب بينه وبين ولدى أحشائي ولا أقدر على منع كارثة تهددنى !

وبعد أسابيع جاءنى ولدى مهللاً يذكر أن الخكة حكمت بإعادة اسم
أبيه إلى اسمه واسم أخته . وأنه قد آت له أن يحيى معها إلى زوجى بعرفان له
باسبغ فضله ، وعظم حنانه وبره .

قلت . « لقد كنت تخشى أن تفعل ذلك قبل حكم القضاء مخافة
تأويله بأنك تطمعان في وصيته . فهلا تخشى مثل هذا التأويل اليوم ؟ »
وأجابنى . « كلا ! فالرجل لم يحرر وصيته بعد . فإذا هو حررها يرغم
ما فعلنا كان ذلك إقراراً منه لعملنا وإعلاناً لإبقائه على محبتنا والعطف علينا .

وإن لم يحررها فذلك شأنه ، ولن يتقص إحجامه عن تحريرها من اعترافنا بحميلة وفضله » ! .

وامتأذن الشاب في الانصراف لبعض شأنه ، فلما كان موعد الغداء حضر زوجي ، ثم رأيت ابني وشقيقته يدخلان عليا ويقول ابنتي . « لقد جئنا لتناول الطعام معك يا أماء ومع عمنا » ولاحظت لون زوجي يتغير لساعه كلمة المم ممن تعودت شفتاه أن يدعوها أبي ، وكأنا لاحظت ولدي ما لاحظت فأسرع يقول . « نحن يا عماء ابنك » ، وقد جئنا إليك نعتذر عن العود باسمنا إلى اسم أينا . لم يكن ذلك إنكاراً لفضلك ولا تنكراً لحملك ، لكنني أعلم أنك كنت أولى الأصدقاء لأبي ، فلما اختاره الله إليه اتخذتنا ودبة عندك فأصبغت عليا مثل بوه وحناته ، وسجيتنا باسمك حتى نشعر بأبوتك لنا وبنوتنا لك ، فلما ملعنا أشدنا وأن أن ترد الوديمة أحسست بما في ذلك من مشقة عليك لرقه عواطفك وفرط حناتك ، ولأن مر السنين ربط بيننا وبينك بأوثق رابطة ، فاحتملت أنا العبء عك ، مطمئناً إلى أنك سترضى صميمي لأنك رجل أمين لا ترصى أن تحفظ بما استودعت ، وتحرص على رد الأمانات إلى أهلها ، أما وقد ردت فقد جئت وشقيقتي الآن نقضاعف لك الثناء والحمد على عنايتك بنا ، وحمل عطفك علينا ، وسمو أبوتك لنا ، طامعين في أن تقبل شكرنا لك وثناءنا عليك ، والله يتولى جزاءك »

انفجرت أسارير زوجي لهذا الكلام ، فانتقلنا بالحديث إلى جو أكثر طمأنينة . بذلك استأنفنا حياتنا وأنا أرجو أن تعود سابق سيرتها .

نكسي شعرت أن حجاباً قد سى وبن روحى . وكفى هذا الاسم الغنى
استعاده ولدائى . اسم صاحب حبيب منتف فى كندة . قد حد نبي
وييه حتى كاد يخطئى عربة عنه ويخعله عربة على . . .

وجاءنى ولدنى بعد أيام يسكنى رأتى فى أمر عمة نى بربى أن يحص
لنفسه . واستهله حتر روتى فى الأمر كد قست له . وحنى نسانى روحى
لكيلا يزداد الحجاب كفة بين وييه . فلما سألته قال ليه لا اعترض به
على مصاهرة هذه الأسرة . فهم أصدقونا ومن صفتك لكنه أضاف :
لكنك توافقى على أن هد المسكن الذى نقيم به لا يتسع لأستين .
وأنا أقترح أن يسكن أمك وعروسه العمارة التى نقيم به أخته حتى تسهل
عليك زيارتهما كلما هنا لذلك قلبك . . .

أحسست من هذه الكلمات الأخيرة أن الرجل لم يعد يطبق حياة
ولدنى معنا . برغم ما يديه لى من محاملة ولطف . فلما حدثنى ولدنى الغداة
قلت له إنى أوافق على الزواج . وأقترح عليه أن يسكن العمارة التى نقيم به
أخته . وكذلك فعل . وجهز العروس مسكنها جهازاً حسناً . وأخذت
أردد مع أمها عليه نعى بنظامه وحسن تسيقه .

وانتقل الشاب إلى مسكنه الجديد . وكب أزوره هو وأخته الحين
بعد الحين . وكان زوجى يرافقنى فى هذه الزيارات أحياناً . فبى لى
كل مرة حديثاً فى أثاث ولدنى يسره ويعجبه . وإن شعرت دائماً بأنه
يقوم بهذه الزيارات معى بمحاملة لى . لا بدافع من قلبه ووجدانه .

فلما اطمأن ولدنى إلى أنه أقام على مسكنه آخر مرة له . دعانا يوماً

لتناول الشاي عنده ، وذهبنا عنده فاستقبلتنا أخته لأن عروسه شعرت ،
بوعكة لعلها من أثر الحمل . فلما دخل زوجي إلى غرفة الاستقبال رأى
فيها صورة مكبرة لزوجي الأول أبي الولدين ، فوقف يتأملها ووقفنا من
حواله ، أنا وولدي ، فنظر إلينا وإلى الصورة وقال : « هذه هي الأسرة
الأولى اجتمعت من جديد » .

وشعرت في نبرة صوته بأسي للنهم الذي حاول أن يقام الطيعة فلم
تنجح محاولته ، وحاول أن يرث ما ليس له بحق فلم ينل ما أراد ، هنالك
أيقنت أنني أصبحت فريسة بينه وبين الولدين يجدي كل إلى ناحيته ،
وأن لن يهدأ لذلك بالي ولن يطيب لي عيش بعد اليوم .

رباه ! . . ماذا أصنع لآتجو من موقف أنوء باحتماله ؟ ! إني لا قدرة
لي على مقاصبة ولدي ، ولا قدرة لي على مقاضبة زوجي ، فولدائي هما
ولداي ، وزوجي هو الذي اختداني من موقف لم يكن أحد ليقتلني منه
لرم بعد حوالي بده ، إني أضرع إليك ، أنا المرأة الضعيفة المؤمنة بقضائك
وعدلك ، فهني من لدنك رشدا وهي لي من رحمتك سنداً أحتمي به من
هول هذا الموقف .

ولم تكذب مخاوفي ، فقد بدأ هذا الصراع الصامت بين زوجي
وولدي بتجاذبي يمنة ويسرة ، وبدأت أشعر كآتي الكرة بتجاذبها المتنافسان
وكل منهما في موقفه لا يريم عنه ، فكان ولداي يذكران أن اشتغالي براحة
زوجي يشغلني عنهما ، وكان زوجي يتهم بي قاتلا : إن لي العقر أن طغت
على أومني فشغلت عنه . وزوجي وولداي لا يبدى أي منهم للآخر إلا المودة

وأنحسنى وتقلب مضوية على التذرع على هذه المرأة المسكينة المغلوبة على أمرها لأنها زوج تفر لزوجها بغضه ومروته ونله . وأم تحب ولديها حب العبادة .

رباه . . . ماذا أصنع ؟ عاودنى إذ ذاك رجوع من تقوى صبرى يوم كنت رضوان الجنة . فأعددت فى بيتا مصلى عنيت به كما كنت أعنى بمصلى المدرسة . وأكيبب على مروضى أصيها لأوقتها . أستيقظ مع الفجر أصليه حاصراً قائنة إلى ربى داعية يباه . أستغفره وأتوب إليه . وألبي داعى المؤذن كلما نادى : « حى على الصلاة فأهرع إلى مصلاى فأجد فى الصلاة سكية نفسى وطمانينة قلبى بانقطاعى إلى ربى .

ودكرت يومئذ عمى الحجة وطرحتها البيضاء . وكانت قد انتقلت منذ سنوات إلى جوار الله . فأخذت للصلاة ضربة يفضاء كطرحتها . وإنتى لأصلى الفجر يوماً وأقرأ القنوت إذ عنت فى هاتف : « مالك لا تحبب بيت الله أداء لفرضه ؟ إيك إن تفعل يقر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . وتبعدن بذلك عن صراع أنت وحبك فريسته وضحيته » .

ما أرحمك يا رب وما أعظم فضلك ! . . . لقد اطمأن قلبى هذا الهاتف واعتزمت لساعى أداء هذه الفريضة الخامسة من فرائض ديبى . فلما جاء زوجى أفضيت له بعزى فقال : أنت وما تريدن ! . . . وأخبرت ولدى كذلك بأتى خارجة إلى الحج . وما كان لهما أن يصدانى عنه

وبدأت أنجهز للحج وأعد له عدنى . ومن يوم بدأت هذا التجهز شعرت بالإيمان بطرد الهم من قلبى ويحل محله النور والطمانينة . وشعرت

يزوجى وولدى يحوطونى بعناية سعدت بها من قبل ثم نسيها من يوم حملت
فى هذا الطيف الملتف فى أكفانه وصاح بى مهدداً ونذيراً

ما ألد حلاوة الإيمان وما أعظم سعادة المؤمنين ! . . لقد نفرت
الحج وشغلت بالتجهز له تقشعت من حولى كل صحابة داكئة ، وأقبل
على أهلى وأصحابى يشئوننى بما اختار الله لى ويطلبون إلى أن أدعوهم
بالخير وأنا عند بيت الله المحرم ، وجاءنى زوجى يوماً يقول :

« ناشدتك الله إلا ما استغفرت لى ربى وأنت تلين على عرفات
للصنح عى إى كنت قد أخطأت فى حق صديق زوجك الأول ،
وأخذ ولدائى يسألانى عما يكملان به جهاز سفرى ، . . ويطلبان إلى أن
أباركهما وأن أدعوا الله لهما ، وسعت لى صلواتى فى هذه الفترة فوق نوارع
النفس كلها ، فهانت على الدنيا وما فيها وأيقنت حقاً أنها متاع الفرور ! . .

واقرب موعد السفر وتلاحقت زيارات المهشين والمودعين . فلما
كانت ليلة البرزة وهما بى النوم إلى مرقدى ، رأيت أبى وأمى وهما فى ثياب
الآخرة ، وكأنهما ملكان يرفقان بأجنحة من نور فوق رأسى ، ويحمدان
الله أن رضى عنى بما وهبى من تمام الإيمان بتقواى وبهجى ، ثم رأيت
الطيف الملتف فى أكفانه يبدو على ثغره ابتسامة وسحابة كله الضياء وهو
يقول : « غفر الله لك وغفر لى ، وسعت رحمته كل شىء » ، إنه رب القوى
ورب المغفرة .

واستيقظت الفجر وصليته ، ثم إذا زوجى وولداى وطائفة من أهلى
يحيطون لى يقبلونى وليس فى قلوبهم جميعاً إلا الهبة المخالصة وركبوا

جميعاً معي قطار السكة الحديد إلى السويس - وظنوا جميعاً معي على ظهر
الباخرة المسافرة إلى جده . فلما آن لنا أن تبخر ودعيت وكلهم يرجون الله
لي حجاً مبروراً . وذنباً مغفوراً . وأنا أرجو لهم جميعاً من الله الغنى والرحمة

الفصل العشرون

أبحرت الباخرة بمن عليها من الحجاج قاصدة بيت الله الحرام . فلما
حاذت رابغ أحرمتنا جميعاً . وفي مكره الصبح من غدنا وصلنا إلى جدة
فترلنا من الباخرة إليها ثم تخطيناها إلى مكة . وهنا طقنا بالكعبة الشريفة
طواف القدوم في انتظار يوم التروية الذي يسبق وقفة عرفات .
وكانت حالتي النفسية تمور في هذه الأثناء موراً جاوز كل ما تصورت .
لقد كنت قبل سفرى أشعر حين صلواتى بأنتى قرية من ربى . وأنه بسمع
دعائى أكثربه عن ذنبى ليفترلى ويرحمنى . فلما لبست ثوب الإحرام
شعرت بأنتى تجردت لله جل ثناؤه . ودخلت واسع رحمته . ولم يبق عندى
شك . وقد جئت بيه حالصة القصد في التوجه إليه . في أنه حضلى قبل
أن أؤدى شعائر الحج . لأنه رب القلوب . ولأن الأعمال عنده بالنيات .
ولأنى قصدت بابه الكريم قائنة نائبة عابدة مسلمة إليه وجهى . آسفة على
ما أسلفت من ذنوبى وأوزارى ، فهو لا يرد من قصده من عباده ما خلصت
نيته في قصده .
وبينا أنا في هذه الحال من العلمانية والغبطة إذ فوجئت بما أخرجنى منها .

(١) كتب هذا الفصل وما يليه بعد من طويل من كتابة الفصول السابقة

فقد وقفت يوماً عند مدرسة من مدارس الحرم فسمعت أستاذاً يحاضر الناس و
الحج ويقول : « ليس الحج شعائر ومناسك وكفى ، بل هو قل كل شيء
حساب النفس أمام يارتها عما قدمت في حياتها ، وهل أدت للحياة واجبها
بما يرضى الله ويرضى الصمير ، فلم يحملها غروها على اجتراح الآثام
إرضاء لأهوائها ، ولم يوسوس لها الشيطان بأن الحياة حق للحى وليست واجبا
عليه لله ، وللناس ، ولنفسه » .

زلزل هذا الكلام نفسي وأخرجني من بلهنية الطعائنية التي كانت
تشتملني وعاد بي إلى ماضى حياتي أنشره أمام بصيرتي ليكون صحيحى
عند ربى ، وليكون ما أذرف من دمع التوبة عما فرط منى شغبى إليه
تعالت أسماؤه .. صدق الأستاذ ، ليس الحج شعائر ومناسك وكفى ،
ولكنه حساب النفس واعترافها بذنوبها ، قبل أن تحاسب حين يتوفاها
ربها ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من آلى الله بقلب سليم ! . . .

كانت هذه المرحلة من مراحل نفسى أشق المراحل على وجداني .
لكننى صمدت لها واجترتها بإذعاني وإسلامي ، وياقراى بمعجزى وضعى ،
وباعتراى الكامل بذنوبى وصراعتى إلى الله أن يغفر لى بعد الذى ملوت فى
حياتى من محن كانت الجزء العللى عما كسبت نفسى . ولقد شعرت بعد
اجتيازى هذه المرحلة برضا ملاً جوانحى وانتشرفى كل وجودى ، كما أضاء
أمام بصيرتى نور يهتدى السيل إلى بارئى ، فحمدته جل شأنه وازددت
تواضعاً لله وثناء عليه وتسليماً بقضائه وإسلاماً لأمره .

وانت لسميدة بما أنا فيه من حال الرضا ، أصل بالحرم الشريف

كل فوضى . وأطوف بالكعبة كل يوم . إذ رأيت من أكنة أتوقع .
 فقد صليت العشاء الآخرة ذات مساء ثم ذهبت إلى مضجعي فريت
 فيما يرى النائم أتى هممت بأن أسعى بعد ضواقي . فتصلت إلى باب
 الصفا لأخرج منه إلى المسعى . فإذا سيدة تقبل عليّ تعيلني وتعاتني .
 فرفعت إليّ عني لأتيسر . فلما رأيتها لم أملك نفسي من الدهشة .
 فتلك صديقتي . . نعم صديقتي التي اشتهرت بالحقة إلى حد الطيش .
 وقلت لها والدهشة لا تزال تملكني : « أنت هنا ! » . قالت : « نعم . مع
 زوجي . وقد رأيتك مقبلة على هضرت . ونحن في بيت الله . بأنا أختان
 إن فرقت بيننا أهواء الدنيا في بلادنا . فلا شيء يفرق بيننا في هذا البيت
 العتيق ! » وزادني كلامها هذا دهشة . فلما عهدتها تتطوق بحل هذه الحكمة
 من قبل ، وقبلتها كما قبلتني . وأردت أن أسأذنها لأخرج فأسعى فأمسكت
 يدي وقالت : « سأسعى معك » وسعيانا وكلماتنا تدعو وتستغفر ربها وتتلو ما
 أتى حليتا أن تتلوه في رواحنا وجيئتنا بين الصفا والمروة . فلما أقمنا سعيانا
 سألتني عن موعد طوافي الغداة وقالت : « سأكول إلى جانبك نطوف معاً
 كما سعيانا اليوم معاً » .

ثم رأيتني عدت إلى مسكني ولم تنقض دهشتي . ولا أكاد أصدق
 ما رأيته عيني ، فلما ذهبت صبح الغد للطواف ألقيت صديقتي في انتظارى .
 وتقدمت نحوي حين رأيته وقالت : إن لي معك حديثاً قصيراً قبل أن يبدأ
 الطواف . لقد هتف الليلة هاتف في نيتته طيف زوجك الأول استحلني
 أن أقسم لك أمام هذا البيت الحرم أتى ما كانت بيني وبينه قط ريبة .

وَأَنْ مَا أَحْبَبْتَهُ وَلَا أَحْبَبَنِي ، وَأَنَا لَمْ تَزِدْ مَوَدَّتَنَا عَلَى مُوجِبِ الصَّدَاقَةِ الْبَرِيَّةِ
 الظَّاهِرَةِ أَمْلَاحًا عَلَى وَاجِبِ الْاعْتِرَافِ بِجَعْلِهِ لَهَا صَعْدَهُ لِي وَلِأَوْلَادِي مِنْ
 اسْتِخْلَاصِ مِيرَاثِنَا ، وَأَمَلْنَا عَلَيْهِ مَرُوعَتَهُ وَشَهَامَتَهُ . ثُمَّ إِنَّمَا جَذَبْتَنِي مِنْ يَدِي
 قَبْلَ أَنْ أَمُكِّنَ مِنْ أَنْ أَتَزَكَّدَ لَهَا اقْتِنَاعِي بِصَحَّةِ قَوْلِهَا ، فَلَمَّا كُنَّا قِبَالَ الْحَجَرِ
 الْأَسْوَدِ أَقْسَمْتَ هَذِهِ الِثَّمِنَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَتْ : وَالْآنَ سَامِعْنِي يَا صَدِيقِي
 لِيُغْفِرَ اللَّهُ لَكَ وَلِي . وَأَحْبَبْنَا : بَلِ سَامِعْنِي أَنْتَ فِيمَا كَانَ مِنْ سَوْءِ ظَنِّي بِكَ ،
 وَإِفْسَادِ زَوَاجِكَ بِعَنْ تَزَوُّجِهِ أَنَا ، وَأَقْسَمَ لَكَ كَمَا أَقْسَمْتُ لِي أَمَامَ هَذِهِ
 الْبَيْتِ أَنِّي يَوْمَ أَقْسَمْتُ هَذَا الزَّوْجَ لَمْ أَكُنْ أَفَكِّرُ فِي التَّزَوُّجِ مِنْ صَدِيقَتَا بَرِغَمِ
 مَا أَذْعَتِ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ . قَالَتْ فَسَامِعْنِي فِي هَذِهِ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا كُنْتُ
 أَدَافِعُ عَنْ نَفْسِي وَعَنْ شَرَفِي ، وَسَامِعْنِي وَسَامِعْتَهَا وَأَقْسَمْنَا عَلَى أَنْ نَعُودَ
 لَصَدَاقَتِنَا الْأَوَّلَى ، ثُمَّ طَفَعْنَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ أَدَاءَ لَوَاحِبِنَا ، وَتَوَكَّيْنَا لِقَمَانَا ،
 وَاقْتَرَفْنَا وَكَلَّمْنَا تَحْمَدَ اللَّهِ أَنْ طَهَّرَ قَلْبَيْنَا وَغَسَلَ بِرَحْمَتِهِ مَا عَسَلَ مِنْ ذُنُوبِنَا
 وَتَدَعَوْنَا لِلْبَيْتِ وَلِلدُّوْبِهَا أَنْ يَكْلَأَهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَعِزَّتِهِ .

وَاسْتَقْبَلْتُ لَصَلَاةَ الْفَجْرِ وَأَنَا أَسْأَلُ نَفْسِي عَنْ سِرِّ مَا رَأَيْتَ فِي
 نَوْمِي ، ثُمَّ ذَهَبْتُ بَعْدَ أَنْ أَسْفَرَ الصَّبْحَ أَلْتَمِسُ الْأَسْتَاذَ الَّذِي يُحَاضِرُ النَّاسَ
 فِي الْحَجِّ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَالِي ، وَكَيْفَ أَطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي وَبَلَغْتُ مِنَ الرِّضَا
 غَايَةَ مَا أَطْمَعُ فِيهِ ، وَرَغِبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَفْسِّرَ لِي مَا طَافَ بِي وَأَنَا مُسْتَعْرِقَةٌ فِي
 نَوْمِي ، فَقَالَ : «إِنَّهُ مِنْ الْوَضُوحِ يَا سَيِّدَتِي بِنَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْصِيرٍ ،
 غَمْنِ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَبَلَغَ مِثْلَكَ حَالِ الرِّضَا يَجِبُ أَنْ يَطْهَرَ قَلْبُهُ وَأَنْ يَطْهَرَ عَقْلُهُ
 الْبَاطِنُ مِنْ كُلِّ مَوْجِدَةٍ عَلَى أَيْ إِنْسَانٍ ، وَأَنْ يَغْفِرَ لِلنَّاسِ خَطَايَاهُمْ كَمَا

يطمع في أن يخبر الله له خطايه . ولا يزال قلبك واحداً على هذه السبلة .
ولا بد لك إن شئت لحال الرضا أنه تدبر أن تطردى هذه الموجلة من قلبك .
ومن ذاكرتك . ليكون تجردك لله خائصاً صادقاً مصدريه حب الناس جميعاً .
والمغفرة لكل مخطئ . والاستغفار عن كل خطيئة . ومن أتم الله ذلك
له دام له الرضا في الدنيا وفي الآخرة .

ونخطيت فاء الحرم والدعوة تنحدر من هنيئ . ووقفت في مقام
إبراهيم ورفعت يدي إلى السماء وهتف قلبي : « أكرمك ربي ! أجديرة
أنا بكل هذه العناية * أم أن أعظم الناس ذنباً أدناهم إلى عفوك وبرك .
رب إلى لأشرف أعماق روعي بأن قلبي لا يزال في حاجة إلى أن يتطهر
ليكون خليفاً بأن يسمو إلى حضرتك ويشرف بالمولد في مقامك الكريم * ..
وطال وقوفي وابتهالي إلى الله ودعائي إياه أن يهني القعدة حتى يتطهر
قلبي ووجداني ليدوم لي رضاه عني . فلما أتممت ابتهالي جلست مع الجالسين
في مقام إبراهيم حتى إذا سكن روعي وهذلت نفسي وعاودتني طمأنيني
قمت فصليت ثم طفت بالكعبة ثم انتحيت جانباً قريباً من باب الصفا .
هنالك ذكرت ما رأيت في نومي قمت فسمعت بين الصفا والمروة وتلوت
ما ألقى عليّ أن أتليه وأنا أسمى . وسمعت المؤذن يتنادى لصلاة الظهر وأما في
آخر أشواط السعي . فدخلت الحرم من جديد فصليت وراء الإمام ثم
انصرفت إلى مسكني .

وشعرت حين خلوت إلى نفسي بأنني خلوت إلى حال جديدة من حالات
نفسى ، فلا بد لي إن أردت أن يلهم الله ما أنعم به عليّ من حال الرضا .

أن أمحو كل موحدة من قلبي وأن أحب الناس جميعاً وأن تكون محبة كل ما خلق الله شعاري ليشرح الله لي صدري ، ويرفع عني وري . فتطمئن نفسي وأرجع إلى ربي راضية مرضية . . أتراني أستطيع أن أفعل ؟ ذلك ما ابتليت فيه إلى الله ليبيّن القدره عليه ، والله صميع مجيب .

فلما كان المساء وصلت المساء الآخرة نشرت صحيفتي أمام بصيرتي راجية أن يحول الله منها كل شائبة من وزر أو شبهة من هوى . وقرأت في هذه الصحيفة أول ما قرأت ما كرهه لي زوجي الأول من أن الغيرة والغرور هما مصير علي وسبب ما أرهقته وأرهقت نفسي وولدي به من متاعب وبلاء . وسرعان ما تيقنت أنه رحمة الله عليه كان ثاقب النظر ، وأن غيرتي وغروري جسا أنانيتي فصرت لا أرى غير نفسي ، وأفرغت كل ما في نفسي من حب على هذه النفس الأمازة بالسوء ، ولولاً أموتي وحيي ولدي وهما بعض نفسي لأنكرت الحب وأنكرت كل ما يتصل بالحب من عواطف . فأنانيتي هي التي دفعتني للغيرة من صديقتي لأنني لست جميلة جمالها ، ولست قاتنة فتها ، وأنانيتي هي التي دفعتني للاغترار بنفسى والإيمان بذكائي وسحر حديثي ، وإيثار من يؤمنون بهذا الذكاء وهذا السحر ، فيدفعهم إيمانهم إلى الإعجاب بهما وإنكار ما سواهما . وأنانيتي هي التي جعلتني كذلك أسيرة نفسي فأذلتني لما وضربت حولي نطاقاً من سجنها وحالت دون تبادل مع الناس جميعاً أكرم العواطف ، فلو أنني محوت بفضل من الله أنانيتي ، أو تغلبت على الأقل عليها ، لحطمت جدران سجنى ولمخرجت من عزلي ولأحييت كل ما حولي ومن حولي ، ولتطهر بذلك قلبي ودامت على

نعمة الرضا من ربي .

وجاهدت منذ ذلك اليوم نفسي . فلم أكن أرى في الحرم امرأة
تبدو عليها مظاهر الهم والألم إلا سكبت فيها من رحي ما يريل منها وألمها ،
سواء على عرقها أم لم أعرفها . ولم أكن أسمع أنة مريض أو مكلم القلب
حتى أخف لشفاء مرضه . أو لشفاء قلبه . ولم أكن أشعر بأناني تتحرك
ما استبطن من أعماق وجودي حتى أقطب جسني لها وأزدها إلى أعماق
سجتها . بذلك صرت أفرح لأفراح الناس من حولي . وأتألم لآلامهم ،
ولذلك رجوت أن يشعني الله من علي وأن يقبل بفضلته خالص توبتي ! . . .

وجاء موعد الحج فقصينا مأسكه . صعدنا إلى عرفات نلبي داعي ربنا .
ونشهد بوحديته لا شريك له ، وأن الحمد والمنة والمملك له تعالت أصماؤه .
وهناك ابتلعت إليه ودعوته لكل من رغب إلى أن أدعوا الله ليبارك عليه وليهديه
ويغفر له ويرحمه ، وكان أحد دعائي لولدي أن ينحيهما الله من شر نفسيهما ،
ومن الوقوع في مثل آثامي . وإلى والدي أن ينجيهما الله بما أحسن إلى ،
وإلى زوجي أن يبلغه الله مراتب الرضا . وإلى الطيف الملتف في أكفائه زوجي
الأول ، أن يشبه الله وأن يسكنه الجنة جزاء عفوه عني برغم ما أسأت إليه .
ودعوت الله كذلك إلى الأقربين من أهلي وذوي رحمي كل باسمه ، وإلى
الناس جميعاً أن يرفع الله عنهم مقتله وغضبه وأن يهديهم سواء السبيل .

وآن لنا بعد أن طفنا طواف الوداع وسعينا سعياً أن نذهب إلى مدينة
الرسول عليه السلام ، وأنا أرجو أن أظل في وجابها حتى يقبضني الله إليه بها ،
وأن أدفن في ترابها .

لا قدرة لي على تصوير شعوري حين أهلت المدينة وطالعتنا أعاليها
ونحن منها على مدى النظر ، لقد كانت عمى تحدثني بعد حجتها أنهم
لما شافوها المدينة رأوا النور يتلألأ فوق القبة الخضراء من قباب المسجد
النبي ، أما أنا فلم تر عيني حين شافت المدينة إلا ما يراه من يقبل على أبة
مدينة في العالم ، وكنت كلما اقتربنا منها ووضحت معالمها وتبين قبابها
مخيت لو كانت أدق نظاماً وأحسن عمارة . . . وكذلك كان شعوري
منذ دخلتها ، ولا يزال هذا الشعور آخذاً بنفسى إلى اليوم ، ولا أزال أدعو
الله في صلواتي أن يهيئ لها من يحسن عمارتها ، ومن ينهض بكل مراقبتها
إلى مستوى الحضارة في أرق صورة .

لم تر عيني حين شافت المدينة نوراً يتلألأ فوق القبة الخضراء لكنني
أحسست بقلبي يملؤه النور أول ما علمت أننا تقترب من قبر الرسول الكريم ،
وقبل أن نطالعنا قباب مسجده ، وانتشر النور من قلبي في كياني كله ،
وأعاد إلى ذاكرتي كل صفحة من حياة النبي العربي قرأتها قبل حجتي ،
ولعل هذا النور الذي أضواء روجي وانتشر في كل وجودي كان يستقل من
قلب عمى وأمثالها إلى أبصارهم فيرونه متلألأ فوق القبة الخضراء ولا تخالج
نفسهم إثارة ريب في أنه منبعث من قبر الرسول الكريم الكائن تحتها ،
والإيمان ينير البصائر كما ينير القلوب ، فترى الأبصار يفيض من قوة هذا
الإيمان ما لا ترى ، وتقص صادقة ما لا ريب عندها في أنها رأت رؤية
مادية كما رأت القبة الخضراء نفسها .

ودخلنا المدينة وأزالت عني غبار السفر وقصصت لتوى إلى مسجد

الرسول فصلت في روضة النبوة الشريفة صلاة القدوس . ثم روي ريت
 نوحجرة النبوة الشريفة ووقفت قبالة قبره صلى الله عليه وسلم سأله الشفاعة
 يوم الدين . وما لبثت حين بدأت أدعوري ثقبيل شفاعة رسوله في أن
 اتهمت عروني وخفت قلبي وانعقد لساني كأنني في حضرة منك عظيم .
 بل كأنني في حضرة أعظم الملوك وأجلهم قلداً وأوسعهم سلطاناً . وإن يكن
 سلطاناه سلطان بر ورحمة . لا سلطان جبروت ونقمة . ولم أستطع وتلك
 حالي أن أغادر مكاني . فتشيت بأعواد الحجرة حتى دفعت الزائرون
 والزائرات عنها ليثمنوها تبركاً بها . هنالك جئت قبالتها وأملت التحديق
 فيها وقلبي مأخوذ عن كل شيء إلا عنها . ونظرت ثابت نحوها لا يتحول ثمة
 ولا يسرة . فلما انحلت عقدة لساني أخذت أدعو من أعماق قلبي رسول
 البر والرحمة والتوبة والمغفرة أن يديم الله ما أنعم به علي من حال الرضا .
 وأن يفتح قلبي غيبة الناس جميعاً . ونجبة أمثالي الذين أسرفوا في حياتهم
 على أنفسهم . وأن يسعنا جميعاً في رحابه . وأن يتقبل توبة التائبين . وأن
 يدخلهم فسيح رحمته .

واتخذت لي مكاناً في الروضة الشريفة أصلي فيه كل يوم فرائضي
 الخمس . وأدعو الله مخلصاً أن يقبل توبتي . وأتلو فيه من سيرة الرسول
 ما أتخذ منه الأسوة الحسنة . مع إفرادي بعجزى عن السمو إلى ذباك المقام
 وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه .

وشعرب بقلبي يزداد كل يوم طمأنينة . وبنفسي تزداد كل يوم هلا .
 ودعيت ذلك إلى التفكير في المقام بالمدينة أجاور الرسول الكريم ما بقي

من أيامي ، لكنني تركت بالقاهرة زوجاً أحسن إليّ وولدين يشاقهما قلبي ، وتحنُّ إلى نظرة منهما نفسي ، ولئن استطعت أن أدعو الولدين لأراها بالمدينة ولو مرة في كل عام ، فليس من حق أن أقيم بها إلا أن يأذن لي زوجي ، لذلك كتبت إليه كتاباً رقيقاً أشرح له فيه ما مرَّ من أحوالي وأشكر الله ما أنعم به عليّ ، وأستأذنه في المقام بجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يختارني ربي ، وأقمت أنتظر الجواب على خطابي . ولدهشتي وفرحتي جاءني بعد قليل كتاب زوجي ينبئني بأنه قادم إليّ وسعه ابنتي ، وأن ابني كان يود أن يحضر لولا أن أمسكه مصالحتنا في مصر ليرعاها .

ولم نطل انتظاري مقدمهم ، فبعد أيام من تناول كتاب زوجي تسلمت برقيه بأنهم أبحروا من السويس إلى ينبع في طريقهم إلى المدينة ، أتراني أنتظرهم حتى يحضروا إليّ ، أم أخف للقاءهم ينبع ؟ كان الجواب على هذا السؤال مدار نزاع حامي الوطيس بين زوجي وقلبي ؛ قلبي يحركه الشوق إليهم فيدفعني دفعا عنيفا لأذهب إلى ينبع وروحي تحدثني بوحى من عقل أنهم سيبلغون المدينة مساء اليوم الذي تستقبلهم ينبع في صباحه ، وليس يشق عليّ أن أنتظرهم هذه الساعات فلا يخلو مكاني في أثنائها في الروضة النبوية ، ولا أشغل خلاها بشيء عما أخلت به نفسي من عبادة ربي . وغلبت وحي آخر الأمر فأذعنت مؤمنة بأن غلبها كان بقضاء من الله وقدره ، وبقيت بالمدينة أنتظر القادمين العزيزين من غير أن أنقطع عن أداء ما لله عليّ من حق .

واستقبلتهما وأنا في ثيابي الناصعة الباض . وحياتي زوجي في شوق
 وإكرام وتمنى لي حجاً مبروراً . وفأملت تحيته بمثلها في نواضع واحترام .
 أما ابنتي فاندفعت إلى تقبلتي وتعانقتني وتضمنني إلى صدرها فأشعر في هذه
 الضمة البتوية الصادرة من أعماق قلبها وكأنها تريد أن تعود بضممة مني
 كبيرم كنت أحملها في أحشائي ، فيزداد قلبي وقلبي امتزاجاً . وأحس بأننا
 روح واحد في جسدتين . فلما فرغنا من حياتنا وقلاتنا وعماقنا وذكرنا فم
 أتى دعوت الله لهم ولأهلنا جميعاً سألت ابنتي : وكيف أخيك ؟ قالت :
 بخير يا أماء وهو يسأل مني تعودين إلى القاهرة ؟ ونحت زوجي فإذا هذا السؤال
 مرسم على وجهه . وإذا هو ينتظر أن يسمع جوابي عليه . قلت : ذلك
 ما ستحدث فيه بعد أن تقيا معي أياماً . وبعد برهة صمت قال زوجي :
 أولاً يجب علينا أن نذهب إلى الحرم تؤدي لصاحبه عليه الصلاة والسلام
 تحية القلوب ، قلت : ذلك لكما . وسأرافقكما . لكن الواجب عليكما أن تقرأ
 صيرته لتقدرا شرف مثلكما في حضرته حتى قدره . وهذه السيرة عندي بسنطيم
 أيكما أن يقرأها إذا قام الليل إلا قليلاً . فإذا هو زار الحرم بعد ذلك ووقف
 أمام الحجرة الشريفة استنار قلبه بنور صاحبها . وعرف كيف يجتمع الحق
 والحيث والإيثار وإنكار الذات وسائر المعاني الرفيعة في نفس واحدة . هي
 ملاك المعاني السامية كلها ، وهي القدوة خير قدوة لمن شاء أن يتبع خطاها
 ويسير في أثرها .

وقرأ زوجي وقرأت ابنتي السيرة وأخذنا بصحباني كل يوم إلى مسجد
 صاحبها ، ويجلسان معي في الروضة يصليان ويتعبدان . على أنني شعرت

بعد أيام أنهما بحسبانى أبالغ فى تقواى ، فلم أمر حسابهما هنا بالآ .
لأننى أدركت بما رأيت منهما أن أمراً خاصاً يشغلهما ، ونحلاً إلى زوجى
يوماً بين صلاتى العصر والمغرب إذ كانت ابنتى فى الحرم فسألتى : والآن
هل أستطيع أن أعلم منى اعترفت العود إلى القاهرة ؟ فقلت : أوتدكرلى
أنت ما حدث بين ابنتى وزوجها ؟ . فأجابنى وقد عله الدهشة : وكيف
علمت ؟ . . . وهل كتب إليك أحد من مصر بما حدث ؟ ! قلت : كلا ،
ولكنه إحساس خامر قلبي وشهد به عندي ما كانت تم عنه أساريركما
كلما جاء ذكره فى حديثي معكما . قال مبتسماً بدء حديثه ، بادية عليه
سيا الأسف حين استطرد فيه : لا يزال ذكاؤك ملأياً برغم تقواك .
وكنيت أحب أن الذكاء والتميز لا يجتمعان ، أما وقد اجتمعا فلن
أستطيع أن أنفى عنك شيئاً ، والأمر يحتاج فى معالجته إلى حيكك
وبصيرتك . إن ابنتك وزوجها يكثر اختلافهما حتى لأضيق أحياناً
بهما حين يحتكان إلى فأحاول إصلاح ذات بينهما ، وقد استطعت إلى
عهد قريب أن أتقلب على منازعاتهما وأن أردما إلى حمى الصلح والسلام ،
ثم استفحل خلافهما فى الفترة الأخيرة حتى خشيت انفصالهما وكنت
أبأس من إمكان تفاهمهما ، وإنا لكذلك إذ جاعنى كتابك تستأذنينى
فى البقاء بالمدينة هنا ، وقد انتهزت فرصة تناوله وانخدت منه حجة للكلام
فى غير ما يشتد جدلها حوله ، ثم رأيت حين قررت المجئ إليك أن تصحبنى
ابنتك راجياً أن يبعث بعدها شوق كل من الزوجين إلى صاحبه فينسيهما
الشوق خلافهما . هذه قصتهما وقصتى معهما ، ولن يستطيع أحد ما تستطيعين

أنت علاجاً لحال يعصى على أمرها وأخشى أن يفلت من يدي زمامها .
قلت : فلنستعن بالله فيما يعصى عليك . . فإذا جاءت ابنتي خاطبتني
أتملة أن أردّها إلى صوابها . لترد هي زوجها إلى صوابه .
وذهبنا إلى الحرم وصلينا المغرب والعشاء وراء الإمام . ثم عدنا وعادت
ابنتي معنا .

فلما تناولنا طعامنا ، واستقر بنا المجلس . قلت لها : لقد دار
بظني أنك على خلاف مع زوجك إذ كنت أراك وعمك تنقبض أساريركما
كلما جسروا اسمه على لساني . وقد سألت عمك عن ذلك فأخبرني
أنكما بلغ من أمركما أن خشي انفصالكما ، وأن كاد ينأس من إصلاح
ذات بينكما ، فقيم مختلفان ؟ . . قالت - وهي تحبس دموع ترفرفت في
عينها : - لقد أصبحت حياتنا لا تطاق يا أماء . . إن زوجي يريد أن
يستأثر بكل شيء داخل المنزل ، على حين لا أسأله أنا شيئاً فيما خرج عن
دائرة المنزل ، إنه يريد أن يكون السيد المطاع . وأن تكون كلمته أمراً
لا أناقشه فيه ، فإذا أردت أن أبدي له ملاحظة عن لون ثيابه أوزيه قال :
مالك أنت وذلك ؟ هي ثيابي أنا ، متناسياً أن ما يوجه إلى ثيابه من نقد موجه
إلى ذوق وحسن عناية ، وهو يريد مع ذلك أن يكون صاحب الرأي في
ثيابه ، في لونها وقماشها وتفصيلها ، وأنت يا أماء تعرفين أن الرجال لا يعلمون
شيئاً عن ثياب النساء ، فالنساء يغيرن أرياءهن والرجال معجبون دائماً
بكل ما يصنعن ، حسب المرأة أن تملق غرور الرجل فتسأله رأيه في ثوبها
ليبدى غاية الإعجاب بالثوب وبها . وهذا وإن أوهمت المرأة زوجها ثأبها

تستشيره قبل أن تختار القماش وطراز الثوب ، وبلغ من أمر زوجي متى حين
ثرت باستبداده أن قال يوماً : « إنني لا أريد أن تصيرى إلى ما صارت إليه
أمك ! ! » عند ذلك رأيت الكأس قد طفحت ، وأنه وقد نخطاني إليك
اليوم ، فإنه سيتخطاك إلى آبي غداً ، وإذا لم تقم الحياة بين الزوجين على
تبادل الاحترام فلا خير فيها ، فالحب الذي يتجاوز الاحترام لا يكفي وحده
لاتصال الحياة بين الزوجين ! . .

شعرت بأن ابنتي ذكرت إشارة زوجها إلى مصيرى لتثير حساستى .
لكننى كنت أشد حرصاً على مصيرها هى ، لذلك سارعت فأجبتها :
« لا تحسبى رجلاً يستطيع أن يستبد بامرأة إلا أن يكون وحشاً كامراً ،
أو تكون المرأة عنيفة فقدت كل معاني الأنوثة ، أو مغرورة عبثت بها أنايتها
فلم يبق لزوجها إلا أن يفرض وجوده عليها » .

قالت ابنتي : « فأشيرى على يا أماء ! . . أنت تعلمين أننى أحب
زوجي وأنه يحبنى ! . . لكننى أرى أن مشاركته فى الصغير والجليل من
الشئون فقدان ثقة بى ، ولشد ما أخشى أن أبادله عدم الثقة فيكون لذلك
من سوء الأثر فى حياتنا ما أريد جهد طاقتى تجنبه ! . .

قلت : « فاسمعى يا صغيرتى ، لا تطلبى إلى زوجك أن يثق بك
ثقة عمياء ، وهو لن يطلب إليك مثل هذه الثقة به ، أيتها شريكان فى كل
شئ ، ومن حق الشريك أن يحاسب شريكه ، فقد عبرت هذا الأمر
وبلوت من مره علقماً ، ففقت أهلك العمياء بى هى التى أضلتنى ، وصبقه
إياى إلى رغباتى هو الذى جر عليك وعلى أخيك أبلغ الضرر ، فهو لم يكن

يراجعني أو يصدقني عن شيء وقد كنت معرضة للخطأ فيه ، حسبته مني أنه كان يحبني وكنت أول سني زواجنا أحبه ، وأنتي لم أكن أسأله عن شيء في عمله لأنني لم أكن أعرف ألف الطب ولا باءه . وكان ذلك دافعي يومئذ لأرغب إليه في الانتقال من الطب إلى السلك السياسي ، ليكون سلطانني أفسح مني ، لكنه أبى وأصر على إباته ، عند ذلك بدأ حبي إياه بضطرب في نفسي . والحب إذا اضطرب قصيره إلى الاحتضار والموت . وما قيمة حب لا مظهر له إلا أن يقول الرجل للمرأة ، أو تقول هي له : إنتي أحبك ، وألا يلتصقا إلا لانجذاب دريتهما ، وألا يحاول كل منهما أن يكمل نقص صاحبه ليسمو به إلى ما يقربه من الكمال . ولو أن أباك راجعني بده زوجيتنا فيما يحشى أن أتعرض للخطأ فيه وردني برق لا يعرف العنف الذي كنت أراجع به بعد أن فرحتي له لما بلغت الأمور بيننا إلى ما تعلمين من انفصالنا . فلا تبالغي يا صغيرتي إذ تتحدثين عن حرص زوجك على الاستئثار بشئونك ، بل تسامحا وتشاورا وتشاركاً في كل ما تستطيعان فيه تسامحا أو مشورة أو اشتراكاً ينتقل ذلك بحبكما من القلب إلى الروح . ولا حب كالحب بالروح بقاء ودواماً .

أحسنت ابنتي الإنصات إلى حديثي . فلما فرغت منه قالت : وعلى ثغرها ابتسامة تشوبها السخرية : سامحيني يا أماء إذا قلت إنك لم تعرف الرجال بعد برغم خبرتك الطويلة ، إنهم لا يكفهم أن يستأثروا بأجسامنا ، فهم يريدون أن يستأثروا بقلوبنا وعقولنا وأذواقنا وكل شيء في وجودنا ، إنهم لا حد لأنانيتهم ، وهم أشد حرصاً على أن يستأثروا بكل

ذلك من المرأة ما كانوا أشد لها حبا ، وحرصهم يتجاوز كل حد إذا بلغ حبهم العيادة ، فإذا لم تصدم المرأة عن غيهم في الاستئثار المطلق بها فو أمامهم وجمودها وأصبحت أمة رق لهم ، وهذا ما لا أرضاه ولن أرضاه مخافة الغد وما أخشاه من مذلتى فيه

وابتسمت كما ابتسمت وقلت : أنت على حق يا صغيرتى ، أنا لم أعرف الرجال بعد كما عرفتهم أنت ، ولكننا عرفت أن الرجل ضعيف عفيف ، وأن المرأة ضعيفة قادرة ، فالرجل إذا استثير جابه الخطر ولو كان في مجابهة الخطر حظه ، وجابهه مضطرب الروية زائغ البصر ، غير مؤمن بسلاح غير سلاح العنف . أما المرأة فالعنف ألد أعدائها . هي حمامة السلام ، فإذا نصبت نفسها للقتال فويل لها وويل للسلام ، وقدره المرأة في دكاء أنوثتها ، هذه الأنوثة الذكية هي السلاح الحاسم الذى نستطيع به كل شيء ، وتستطيع به أن تملك عقل الرجل وقلبه وروحه وكل حواسه . والأنوثة الذكية تأنف للعنف في كل مظاهره ، لأنها تدرك ما للرفق والنجمة من سلطان قاهر يعنونه العنف ويتلاشى أمامه . بالرفق والنجمة تحمل المرأة هزيمتها نصراً وإذعانها أكبر من النصر ، معالجى يا صغيرتى زوجك بذكاء أنوثتك وأنا كفيلة لك بأنه سيكون طوع إرادتك في كل ما يطلبين .

قالت انتى في استسلام مصطنع : سأحاول يا أماء ، ولعل أجد في حياتك درساً لى ، وإن كنت أخشى أن تغلبنى كبر يائى يوماً فلا أبلغ ما يشند حرصى اليوم عليه .

وقاطعتها في عنف قائلة : « تعساً لباطل الكبرياء الذي يفتت فبتنا مسموم
الغرور ، إنه هو الذي يهزمنا ويذلنا حين يكون النصر في قبضة يدينا . لا شيء
يا ابنتي حير من التواضع ما لم يترل بصاحبه إلى هوان المذلة . وإني لأدعو
لك من كل قلبي أن تبلغ أنوثتك من الذكاء ما يفتح لك بالتواضع أبواب
السعادة والهناء » .

قالت : « متى تحضرين إلى القاهرة يا أماد لتسددي من شغلتي ما أخشى
أن يتعثر ، ألا تعودين مع عمي وعمي ؟
وأجبتها : « ذلك ما سأحدث عمك فيه ، فأنا لا أستطيع أن أبقى
هنا أو أعود إلى هناك بغير إذنه ، سأكشف له عن مكنون صدري ولا مرد
بعد ذلك لحكمه » .

وأدركت ابنتي من عبارتي أنني أريد أن أخلو إلى عمها أحدثه فانسحبت
متلطفة وقالت : « أنا ذاهبة إلى مخدعي فلتمسيا بخير . ورددنا تحيتها بمثلها .
فلما خلونا غال زوجي : « أخشى أن يكون حوارك مع ابنتك قد
أجهلك وجعلك في حاجة إلى الراحة ، فإن شئت تحدثنا عن عودك إلى
القاهرة بعد صلاة الفجر » . . .

وأجبت : « الأمر على عكس ما تظن . فقد أيقظ هذا الحوار كل حواسي
وأطارد كل خاطر للنوم من رأسي . فإن لم تكن أنت بحاجة إلى الراحة فإن
مفضية إليك بذات نفسي . أما إن آثرت أن تستريح فأنا وما تريد » .
وآثر هو أن يستريح فتمت يحواره وألصقت جسمي بجسمه وشعرت
بالدفء يسرى منه إلى كل وجودي وبعث إلى قلبي من الطمأنينة ما سكن

من بقطة أعصابي وهما بي إلى النوم ، واستيقظت مع الفجر وأيقظته وصليت مؤمنة به . فلما فرغنا من صلاتنا ومن دعاكنا قال :

- ألا ترين أنك تغلطيني إذا بقيت هنا وتركني أعود إلى القاهرة أعاني الوحدة وآلامها ، إنتي أدرك بعد الأيام التي أقمتها بالمدينة حلاوة هذه الحياة التي تميمينا ، تفقدين معظم نهارك وطرفاً من الليل في الحرم على مقربة من الرسول الكريم ، وكم تمنيت لو استطعت أن أجاوره كما تحاورينه ، لكنك تعلمين أن مصالحنا بمصر تحول بيني وبين هذه الأمانة العزيرة . . . ولك على إن أردت أن تحجي كل عام وأن تروري أن أعاونك على ذلك ، وأن أصحبك فيه كلما استطعت إلى صحبتك سيلاً .

قلت : وقد ازداد قلبي رقة لهذا الرجل الحسن الكريم : « عزيز على أن أدعك تعاني الوحدة في مصر وأنت التي أنقذتني منها . وكم نازعتني نفسي إلى العود معك ، ولو أننا تحدثنا في هذا الأمر يوم مقدمك إلى هنا لحقت نفسي إلى ما تريد ، فقد كنت أشعر يومئذ أني بلغت من تطهير قلبي إلى ما يديم عليّ حال الرضا التي أكرمني الله بها ، لكن الأيام التي قضيتها معي منا أرهقت حسي بحوك وجعلتني أشعر لك في أعماق قلبي بما لم أشعر من قبل بمثل بآسه وسلطانه ، نعم ! إنني أحبك الآن حب امرأة لرجل ، فنجسمي يهواك كما يحبك قلبي ، وأخشى أن ينسيني هذا الحب وهذا الهوى محبة غيرك ممن خلق الله ، وما خلق الله ، فإن حدث ذلك ، وشد ما أخشى أن يحدث ، زالت عني حال الرضا وحدثت أعاني من حساب الصير عن ماضي حياتي ما أنوء به . قد يكون هذا الحب للعيف من فرغ

الشیطان . وقد يكون اختياراً يريد به ربى أن يبلوفى وأن يشهدنى على ضعف
نفسى وباطل غرورى . إذ أظن أننى سموت إلى مرتبة وضاه وروحى لا تزال
تتجاذبها الأهواء وتتخلط فيها الخبيث بالصيب . فهل لى أن أرحوك ،
وأنت الزوج المحسن الكريم . أن تدعنى هنا أتابع ما بدأت من تطهير قلبى
حتى أطمئن إلى تقائه ، ولعلك إن عدت للزيارة فى شهر رجب ألقبني فى
طاعة الله وطاعتك سبابة إلى مرضاتك !

كنت أنظر إليه وأنا أحاطبه بعينى ملكاً عطقاً ومحبة . ثم كنت
أراه مع ذلك مشلوهاً كأنما أحاطبه بلغة غير مفهومة . وقد ظل بعد
أن فرغت من حديثى تعلو الدهشة وكأنما يريد أن يتبين ما أريد فلا يسفه
ذكاءه . وبعد برهة ساد فيها سنا الصمت قال :

أصدقك أتى لم أفهم كل ما قلته . لكنك ذكرت أنك أصبحت
تحيينى الآن حب امرأة لرجل . أو أفهم من ذلك أنك لم تكفى تعيبنى
قبل أن تحضرى إلى المدينة ؟ ! وسارعت فأحيته : « لا تبالي يا عزيزى
ولا تحملى ما قلته معنى لا يحتمل . إنما قلت إتنى أحبيتك منذ جئت إلى هنا
حباً لم أشعر من قبل بمثل بأمة وسلطانه . ولا أخالك تريدنى على أن أقص
عليك قصة عاطفتى تحوكم من قبل فأنت تعرفها . وتعرف ما كان من حديث
بعضهم عنها ، وكل الذى أرغب إليك فيه ألا تأخذك التشوة بحى إياك
اليوم ، وأن تدعوا الله معى أن يديم على هذا الحب سلطانه من غير أن
يحبسنى فى سجنه ، وأن يدع قلبى مفتوحاً لحب كل ما خلق ومن خلق
حتى يديم لى عموه عنى فأبني فى حال الرضا التى أنعم بها على

لم يدعني الرجل أستعرد في الحديث بل قال :
- بل أريد أن تقصّي على قصة عاطفتك نحوي فذلك أدنى لقهي
وأحب إلى نفسي .

قلت : أتراك راجعك شبابك يوم كنت تريد أن تتزوج صديقتي ؟
ولكن لا بأس بأن أجيبك إلى ما يرضيك ، أنت تعلم أنني عرفتك أول
ما عرفتك الصديق الوفي لزوجي الأول ، كما كنت الصديق الوفي لصديقتي ،
كنت يومئذ أسترّج إلى مجلسك ، وآس بحديثك ، وأغبط بحسن
إصغائك إلى حديثي ، فكنت إذا جئت إلينا سررت بقلبك ، وحرصت
على استباحتك عندي أطول زمن ممكن ، فلما أشركت زوجي الأول معك
في معاونة صديقتي على استخلاص ميراثها لم أجد بذلك أول الأمر بأساً ،
لكنكما بالغتما من بعد في عنايتكما بهذا الأمر مبالغة أثارت نفسي بكما ،
وأقنعتني بأن جمال صديقتي ، لا الوفاء لأولادها أولاد كرى زوجها ، هو الذي
يدفعكما إلى هذه المبالغة . ولقد كنت ، لمبالغة زوجي الأول ولكثرة تردده
على صديقتي ، أحملك أنت التبعة لأنك شجعته على هذه المعاونة ودفعته
إليها ، فلما أردت أن تتزوج صديقتي عرضت لي فرصة تامة للانتقام منك
ومنها فأفدت هذا الزواج ، ومرضت أنت بعد ذلك واستبد بك المرض
فتولاني الندم على ما فعلت وبدأت عواطفى نحوك تحرك قلبي ، وازدادت
هذه العواطف حين أكدت لي غير مرة أنك لن تتزوجها ، وحين انقطعت
كل صلة بينك وبينها ، على حين بقي زوجي متصلاً بها ، وبدأ العطف إذ ذاك
شويه الود وإن لم يقلب حباً ، لأننا وقفنا صفّاً واحداً ، تذكر أنت على

صديقتي التي قاطعتني وأذاعت أنني أفقدت زواجها منك لأنك لا تزوجك
ولا أحب أنا زوجي لأنه أتى على ود صديقتي التي قاطعتني وطعت على .
وتضاعف ودي لك بعد أن هلك المريض بسبب فعلتي . وإنك واسيتي في
محنة احتضار حتى لزوجي مواساة استراح لها قلبي فأعترف بحبيبتك وأقر
في أعماقه بعظيم فضلك . وازددت أنا إقراراً بهذا الفضل حين حاولت أنت
غير مرة أن تعيد الصفاء بيني وبين زوجي وفاء منك لصدائقه . مع يقينك
إذ ذاك بأنك تحاول المستحيل . من يومئذ وقفت إلى جانبي فحفظت عني عيبه
عزلي بعد أن انتقلت إلى الإسكندرية . ثم إنك أقنعت زوجي فطلقني
فضاعف ذلك ودي لك . فلما رأيته اضطرب في حياته الجديدة كما
تضطرب الخشبة الضئيلة التي بها في لبح البحر المتلاطم مددت يدك إلي
فأنقذتني وتزوجتني غير عاني بأنهم الظن وقالة سوء ! . . . يومئذ غمرني فضلك
فأصغيتك كل قلبي فلم يبق لك من شريك فيه غير ولدي . وزاد ملكك
هذا القلب حين اعتبرتهما ولديك . وبقينا من بعد ذلك السنين وأنا في
رحاب فضلك ، منسوية أنا ولدي إليك . نعش في ظل عطفك وسابع
برك . فلما ارتد ولداي فتسما باسم أبيهما نصارع في قلبي حتى إياك وحتى
إياهما . فهرعت إلى البلد الأمين لاثلة برني لاحتة إلى حماه . وأقممت في
هذه الأرض المقدسة أدعوا الله وأتوب إليه وأستغفره حتى أطمأن قلبي إلى أنه
غفر لي وعفا عني ومحا بفضل من ما سلف من ذنوبي . عند ذلك شعرت
بأن قلبي وروحي عاودهما شياهما وانفتحت لهما صفحة جديدة امرأة
من اللذوب . فلما جئت أنت إلى هنا أحسست بهذا الشاب يتقل من قلبي

بفضلك وجميلك انقلب حباً جارفاً . حب امرأة لرجل . بل عشق فتاة
 لشاب . عند ذلك أيقنت أن هذا الحب لم يكن وليد يومه ، وأنه لم يكن حباً
 من أول نظرة كما يقولون ، بل نشأ منذ عهد بعيد نقطة ثم مضغة ثم علفة
 جعل ينمو حتى بلغ اليوم فتوة شبابه ، ولقد كنت أسمع ولا أصدق أن حب
 الكهولة أعنف الحب ، وهأنذا اليوم وقعت في برائته بعد أن عشت في
 قلبي وأفرغ ، وبعد أن حملته في قلبي كل هذه السنين كما تحمل المرأة
 طفلها في أحشائها تسعة أشهر . فإذا وضعته نسيت كل شيء ، بل نسيت
 حياتها من أجل ولدها ، وأكرر الآن أنني أخشى أن يبلغ من طغيان هذا
 الحب عليّ أن يجبسنى في سجنه ، وأن ينسيني محبة ما خلق الله ومن
 خلق ، ولذا أعود فأرجوك باسم هذا الحب أن تدعني هنا أتابع ما بدأت من
 تطهير قلبي حتى يسع إلى جانب حبك حب خلق الله ، لأنه وسيلتنا إلى
 محبة الله ودوام عفوه وعطفه . فإن أذنت ولا أخالك إلا آذناً ، أسديت لي
 بدأ تنفسي وتنفلك عند ربي ، فإذا عدت بعد ذلك يوماً إلى القاهرة عدت
 بريئة مطهرة ، وكنت النفس المطمئنة التي تطمع في أن يدخلها الله في عباده
 وأن يدخلها جنته .

كان زوجي يسع قصتي مستريحاً لها راضياً عنها ، وتزداد أساوره
 انقباضاً كلما أمعنت فيها ، فلما فرغت منها ، هز رأسه وكأنما غولاه العجب
 وقال :

لشد ما تختلف الصور لتنتهي من بعد إلى التقاء ، بل إلى امتزاج ، قصتي

معك تختلف عن قصتك معي كل الاختلاف . والقصتان تشبهان مع ذلك في
 امتزاج قلبينا أشد الامتزاج . لقد أحبيتك أنا من أول نظرة . يوم قدمتي
 زوجك الأول إليك على أنني صديقه الوفي . وقد كنت يومئذ لم تكني
 زوجي لأزوجك ، ولعلك تذكرين أنك أنت التي طلبت إلي أن أعني
 بحيرات صديقتك وأبنائها . فاعتبر قلبي طلبك أمراً لا مفر من تفاعله .
 ولا تسي أني استشرتك في الاستعانة بزواجك فأذنت لي . بل ألححت
 عليه في معاونتي ، وأتاح لي ذلك فرصة الإكثار من التردد عليك وإرضاء
 قلبي وروحي بمحاديثك وسحر حديثك . وكان ذلك يلهب حبي ويصاعف
 الصراع بينه وبين الوفاء لصديق التمتني على يته وشرفه . عند ذلك فكرت
 في التزوج من صديقتك وأنا أعلم الناس بحقيقتها ونزقها . لأجد في جمافا
 وفي حواسها بعض ما يسكن شغفي بك وحبي إياك ، فلما أقصدت أنت هذا
 الزواج آمن قلبي بأنك تحييني كما أحبك ، لهذا عاد الصراع بين الحب
 والوفاء للصدقة أعنف مما كان . لكنني كنت ما في نفسي إبقاء على
 شرفك وشرفي وحاولت جهدي أن أعيد الحياة لحبك المختصر . مكثت من حبي
 إياك بالنظر إليك والمتاع بسحر حديثك ، فلما ذهب جهدي عبثاً وطلقت
 من زوجك لم أرد أن أفاتحك بحبي حتى لا يصدق ما أذاعته صديقتك
 من أنك أردت الطلاق لتزوجي مني . لكن رأيتك بعد ذلك ريشة
 في مهب الريح فنددت بلي إليك إرضاء لحب تأجيج في صدري كل هذه
 السنين ، فتزوجنا . يومئذ اطمأن قلبي ولم يعني من بعد أن يقول مطلقك
 إنني كنت عهد صداقتك ، فانه يعلم وأنت تعلمين كم وفيت له وكم فاست

في سبيل هذا الوفاء . ولهذا أمتعنا الله سنى زواجنا بالسعادة والنعمة ، وكذلك
امتزج قلبانا بعد أن بقيا متحاذيين على طريق الحياة السنين الطوال . . .

وسكت الرجل بعد ذلك هنيهة ، ثم قال :

على أتتى يزداد يا عزيزتى عجبى حين تذكرين أنك لم تشعري
ببأس الحب وسلطانه ما تشعرين اليوم ، ثم تريدني مع ذلك أن نفترق !
أصدقك القول أأتى لم أفهم هذا التصوف الذى تلبسين اليوم لباسه ،
وكنيت أحسب أن سلطان الحب الذى حدثنى عنه سيدفكك إلى مصاحبتي
والعود معي إلى دفين عشنا الجميل بالقاهرة .

قلت وفي صوتي نبرة التوسل والاستجداء :

- أنت تعلم أنك إن أمرتني أن أعود معك فلن أعصى لك أمراً ،
وأنى لن أقم هنا إلا بإذن منك نبذله عن رضا وطيب نفس ، وإنما أضرع
إليك أن تدعني هنا في جوار الرسول إلى رجب المقبل حتى يطهر قلبي ، ويغسل
مخى ربي ، وتصديق عنده تربيته فلا تشرب نفسي بعد ذلك شائبة من وزر
أو هوى ، ولك على عهد الله وميثاقه إن أنت رغبت إلى خلال هذه الأشهر
الستة أن أعود إلى القاهرة ، ولو بعد أيام من وصولك إليها ، فستجدني
حاضرة عنذك إيماناً مني بأن قلبك هو الذى دعاني .

وبعد هنيهة أضعت : والآن أطلب إلى هذا القلب الكبير أن يأذن
ببقائى . ذلك رجاء أتوسل إليك في خراصة أن تقبله ، والأمر بعد الله لك
جزاء حبك وإحسانك وبرك .

كان زوجي مطرقاً وأنا أتكلم ، فلما فرغت من حديثي رفع إلى رأسه .

وقد ارتسمت معنى الطيبة والحب على محياه . وقال :

ما كنت لأحول بينك وبين ما تطمعين فيه من مغفرة بارئث وعمود
فأنت وما تريدن . أقمي إلى جوار الرسول الكريم ما طاب لك المقام .
ولا تنسى الدعاء لي أن يغفر الله ذنوبي ! . . أقمي راضية عني مرضية مني .
وأرجو الله أن يجمعنا ها في زيارة رجب وأن تطيب نفسك يومئذ بالعبود
إلى أرض الوطن طاهرة مطهرة .

صفت غبطتي بكرم عواطفه لسانى . فلم أجد الألفاظ التى تكفى
للثناء عليه ، ففقت إليه قبلته قبلة شكر ومحة . ثم قلت له : ه فليتول
الله جزاء إكرامك إياى وإحسانك لى ! . .

وانتقلنا بالحديث إلى مألوف القول . ثم إنتى بعثت بالخادم فحدثت
ابنتى فتناولت فطورها معنا ، فلما فرغت منه سألت : أوتعدين معنا
يا أماه ؟ وأحببنا : قد أذن لى عمك يا ابنتى فى المقام هنا إلى زيارة رجب
على أن أشغف بالعودة إلى القاهرة ساعة يدعونى إليها . وإن لسانى لعجز
عن شكره على جميل صنيعه . أما وقد علمت منه أنكما تعودان إلى مصر
على البانخرة التى تمحر من ينبع بعد غد فإنى أرجو لكما السلامة . وأحملك
إلى أخحك قبلات شوق ومحبة . وكم آتنى لو أتيح له أن يحضر إلى هنا
لأراه كما رأيته . وأروى برؤيته شوقى الظامى لضمه إلى صدرى وهو
لا ريب أحكم من أن يحتاج الأمرينى وبه إلى محوار كالذى دار بينى
وبينك .

وابتسمت الشابة وقالت : ه إن طيبة قلبه وكرم خلقه وشدة حبه

فأرجو يعنيه عن مثل هذا الحوار.

« ولقد فكرت هذه الليلة طويلاً فيما أسديت لي يا أماء من نصائح
فرأيتك على حق ، أهو عقلي الذي هدايتني إلى تبيين هذا الحق ، أم هو وحي
هذه المدينة المنورة ، أم أنهما تآزرا على هدايتي ؟ . . . أيا كان الأمر
غابني شاكراً لك من أعماق قلبي ، مستغفراً عما لعله فرط مني في أثناء
حديثي . »

وقبلتها وقالت : « إن الهدى يا ابنتي هدى الله . أمتعك الله بالسعادة

والهناء . . . ! »

وفي القاد تأهب زوجي وابنتي للسفر إلى ينبع فصحبتهما إليها ، وودعهما
حين أسحرت الباخرة ، وعدت في رفاقة إلى المدينة ، واتخذت مكاني من
الروضة وحملت الله أن هدى انتى إلى الحق وهدى زوجي ليدعني في جوار
الرسول الكريم ! . . .

الفصل الحادى عشر

عدت إلى المدينة وإلى مكاني من الروضة في المسجد النبوي وفي
 معهم غبطة أن أتاح الله لي فرصة كاملة لتطهير زوجي من كل شائبة .
 ورأى خادم المسجد أعيد وحدي إلى مكاني بعد أن كان زوجي وابنتي
 يصحباني إليه ، فتلطف في السؤال عنهما . فلما علم أنهما عادا إلى مصر
 وأنها سيحضران إلى المدينة في زيارة رجب دعا لهما بالخير وأثنى عليهما
 أجمل الثناء ، وتعني لهما زيارة في رجب موقفة . وكذلك عدت إلى مألوف
 سيرتي قبل مجيئهما من مصر ولا أشك في أن الله قد رضى عني . وأن بقائي
 بالمدينة بإذن بذله زوجي طيب النفس يبذله خير مظهر لهذا الرضا
 وأقامت الأيام والأسابيع والشهور من يومئذ أجمع في تطهير نفسي
 وقلبي ، وأطمئن إلى من بمصر من رسالاتهم إلي . وأدعوا لهم ولجميعنا
 بالخير . وإن شهر رجب ليقترب . وإن نفسي لتتغولرؤية الأعزة ولصحبته
 في زيارة مدينة الرسول ومسجده وآثاره . إذ تناولت من ولدي بركة نصبا :
 « صحة عني توجب حضورك قوياً » ! ولشد ما أزعجتني هذه البرقية
 وجعلتني أضرب أنحماماً لأسداس أحاول أن أحس ما أصاب زوجي .
 لقد كان في كمال صحته يوم كان هنا . ويوم ودعته يتبع . ترى أصابته
 نوبة من تلك التوباب التي تخشى مغبتها فدغمت ولدي لمبعث إلى يدعيني

إلى القاهرة ؟ فأنا أعرف ولدى وأعلم أنه لا يزعمنى هذا الإزعاج لطارىء
لا تخشى عواقبه ، لابد إذن من السفر على أول باخرة تبحر من يسم .
وتجهزت للسفر واتخذت له كل عدته ، وذهبت إلى يسم وأبحرت
منها إلى مصر ، وكان روج ابنتى فى انتظارى بالسويس . فلما رأته
سأله فى لحظة عن أبناء عمه . وحاول الشاب أن يطمئننى لكن محاولته
لم تزل مخاوفى ، لأن سؤالى جعله فى حيرة اضطرب لها هنيهة قبل أن
يتكلم ، ثم لم تكن عبارته حين تكلم عبارة الواثق بنفسه ، وقلت له :
ولا تخف عى شيئاً يا بنى ، إنتى سأرى الرجل بعد ساعات إن كان
لا يزال على قيد الحياة ، فأصدمنى ولا تزد بمحاولتك اضطراب نفسى .
وكان جوابه : « لقد أصابته يا أماء نوبة قلبية شديدة هى التى دفنتنا
لاستدعائك على حبل ، وكانت صبحته قد بدأت تتحسن حتى لقد عاتبنا
أسس على إزعاجك لكنه استيقظ فجر اليوم متعباً فدعونا له الطبيب
قبل أن تطلع الشمس ، ولم أستطع البقاء لأعرف رأى الطبيب مخافة
ألا أدرك الباخرة أول وصولها ، وكلنا ندعو الله من أعماق قلوبنا أن يمن عليه
بالشفاء وأد يرد إليه العافية . »

وأخرقت لما سمعت ورفعت رأسى أدعوا الله من أعماق قلبي ألا يسيئنى
فى هذا الرجل الطيب الذى أحسن إلى وأنقذنى ، ثم أحسن إلى سنوات
طوالا بعد زواجنا ، ثم أحسن إلى مرة ثالثة فأذن لى فى مجاورة الرسول
الكريم .

وأقلتنا السيارة تنهب طريق الصحراء إلى القاهرة ، فلما دخلت

غرفة المربص العزيز وأنا في ثوب الإحرام الناصع البياض . عبرتُ عيبي
 ملاءها الدمع نظرة شوق ويأس . وأقبلت عليه فقصت حبيته وبلده و...
 أرتجفت لشدة ما أصاب قلبي من الحفقتان . فلما هدأ روعي بعض الشيء
 أمسكت بيده وقلت : « شفاك الله يا حبيبي وعافاك . إنها دعوة يهتف بها
 قلبي منذ عرفت وأنا بالمدينة بعض ما أصابك . وظل يهتف بها في كل
 صلواتي وخلواتي وساعات قنوق ونهجدي ، وأرجو أن يسمع الله لي . إنه
 سمع الدعاء » . فنظر إليَّ يعينين ملتئماً يأساً وقال في هس : « شكراً لك
 يا حبيبتى . لكني أحس دنو الأجل نعم ! . إنها النهاية . فاستغفري
 لي ربك هنا ، واستغفريه حين تعودين إلى المدينة مجاورين رسول الله الأكرم »
 وسكت بعد ذلك برهة ثم قال في صوت خافت لا يكاد يبين : « وداعاً
 وحمداً لله أن رأيتك قبل أن ألقاه لتستغفريه لي . فأنت ولية الله الصالحة ، ...
 قلت : « بل أنا يا حبيبي المذنبه الثابتة . فليغفر الله لك ولي . وليرحمك
 ويرحمي ، إنه رب القوى ورب المغفرة » ! .

وأقبل الرجل عينيه ... أترأه ودع الدنيا ؟ . أترأى حضرت من
 المدينة إلى القاهرة لأراه هذه اللحظة القصيرة ؟ . أترأه ودعي حقاً وداعاً
 الأبد ؟ ! .

عاد إلى قلبي خفقتانه ، وعادت إلى جسدي رجفته . ولم أشعر بيده
 لا تزال في يدي أثلجها الموت أم أنها لا يزال فيها دفء الحياة ! . وإني
 لفي هذه الحال من الحيرة والاضطراب إذ دخل الطبيب الذي عاده وأنا
 لا أزال بالسويس ، فلما رآني استأذنتني وأخذ يده زوجي من يدي ثم وضع
 ٣١٣

أدنه على قلب الرجل ثم قال : البقية في حياتك يا سيدنى . وانصرف .
رباه ماذا أصنع ! هذا قضاؤك لا مرد له ، أأصبح كما تصبح النساء ؟ ..
أأخلع ثياب إحرامى لألبس السواد ؟ . . . خففتى العبء وهوى قلبى إلى
قرار سحيق وعيس صوفى فلم أجد إلى الصباح ميلا . وللى الطيب ابنتى
صاعدة إلى الفرقة التى أنا بها فأسر إليها البيا الفاجع فدخلت على والدع بملأ
عينها وقبلتني وفى نبرات صوتها حزن لم تعرفه يوم مات أبوها ، وأقبل ولدى
ومعه زوجه وزوج ابنتى واجتمعنا كلنا حول هذا الميت المسجى فى فراشه
وأنا لا نفرج شفقتى عن كلمة ، وإن هملت عيالى بالدع الهتون ، وجاء
جيراننا يشاؤكوننا مصابنا فطلقيناهم فى حجرة أخرى .

وخرج ولدى وزوج ابنتى بعد أن لدفن الميت ، وذهبت ابنتى وزوج
ولدى فلبستا السواد وعادتا ، أما أنا فبقيت فى لباس إحرامى ، لأن
وجيعة قلبى لم تكن بحاجة إلى لباس يعبر عنها ، بل كانت تعبر عن نفسها
بأبلغ مما يعبر عنها أى مظهر .

وأى وجيعة لقلب امرأة فى كهولتها أقسى من أن ترى حبيبها الذى
اكتمل وملأ دمها وأعصابها كما ملأ قلبها يتحطم على صخرة الموت فلا يبقى
له فى متاع الحياة أمل أو رجاء .

ودفن زوجى عليه رحمة الله قبيل المغيب من يوم وفاته ، فلما ذهبت
إلى مرقدى بعد أن صليت العشاء الآخرة ذكرت ، وباطول ما ذكرت !
ذكرت يوم رحانى رسول زوجى الأول أن أذهب إليه وهو فى ساعات
احتضاره ليسمع منى بأذنه أننى سامحته فأيت . ! ألا كم كنت قاسية

يومئذ ! . . . أو يغفر لي ربي هذه القسوة ؟ وغفوت فإذا الطيف انتف في
أكفانه . . . طيف زوجي الأول ، يتبدى لي قائلا : لا عليك ثم صعدت
يومئذ . لهد سامحتك كما سامحتني . فليغفر الله لك ولي . فنامي هادئة
مطمئنة .

واستيقظت الصباح بعد غفوة عفوئها بعد صلاة الصجر . فلما تقدم
النهار انتقلت إلى جو الاستقبال أتلى العزاء بمن جئن مواسيات . فإذا
بينهن صديقتي . فلما مال ميزان النهار وانصرف الناس بقيت هي حتى
خلت إلى ، عند ذلك قالت : « جئتك يا صديقتي معزية في روجك
الذي احتاره الله إليه أمس ، وفي روجك الأول ، ولأقسم لك أمي ما كان
يبنى وبين أيهما إلا المودة البريئة الطاهرة أملا ما على اعترافي بحيلهما في
استخلاص ميراثي وميراث أبنائي . وأملا ما عليهما شامتتهما ومرتوتهما .
أما وأنت اليوم ولية الله الصالحة التي جاورت رسوله الكريم فقد جئت إليك
مستغفرة عما فرط مني في حقك ، راجية أن تسامحني ليفقر الله لي ! . . .

ودكرت لحديثها ما رأيت في نومي وأنا بمكة حين سعيها معاً . وطفنا
معاً ، وأقسمنا أن نعود صديقتين كما كنا ، فقصصت عليها رؤياي تلك
وتفسير الأستاذ الذي يحاضر الناس في الحج مغزاها ، وكيف أتى طهرت
نفس من كل موجدة عليها ، فعدنا صديقتين كما كنا ، ثم قلت لها :
« وأنا يا صديقتي لست ولية الله الصالحة كما تذكرين ، وكما ذكر
زوجي أمس وهو في احتضاره . . . إنما أنا المذنبه النابتة التي ترجو عفو ربها
ومغفرته ذنوبها » .

وقامت صديقتي فقبلتني قبلة شمرت بها صاعدة من أعماق قلبها
وقالت : « شكراً لك ، والحمد لله أن عدنا صديقتين كما كنا ، وإني
لشاكرة من كل قلبي أن أكون من جديد صديقة لوليّة الله الصالحة » .
وقلت من جديد : « يل للحمّية الثابتة ، ولعلنا نلتقي يا صديقتي عما قريب
في بيت الله فنطوف معاً ونسعى معاً لنصبح رؤى حقاً ، ولتروى معي
مدينة الرسول الكريم وتبركي بمسجده والصلاة في روضته » .

وهللتني صديقتي من أعماق قلبها قبلة أخرى وقالت : فليسمع الله
منك وليهني لي بفضلته حج بيته وزيارة نبيه ورسوله .

وودعتني وودعتها وقد امتلأ قلبي حناً لما وعظفأ عليها وبراً بها ، فلما
عدت إلى مجلسي بعد انصرافها رفعت كفي أشكر الله على تطهير قلبي وروحي
ووجداني .

وانقضت أيام العزاء ، فلما كنا عشية الجمعة الذي تلا الوفاة أوصيت
بشراء قدر كبير من الورد وأغصان الشجر وما يوزع على الفقراء في المقابر
من الطعام . وفي صباح الجمعة صحتني ولدي وابنتي وزوجاهما إلى قبر المتوفى
وهناك قمنا بمراسم تحيته والدعاء أن يرحمه الله ويغفر له ، ووضعت نصف
ما معنا من الورد وأغصان الشجر على قبره ، ووزعت على الفقراء الذين
أحاطوا بنا ساعة خرجنا من عنده نصف ما معنا من طعام ، ثم قلت لولدي :
هيا بنا إلى قبر أبيكما ، فأقبل ابني وابنتي يقبلانني في لفة وقد ملأ الدمع أعينهما .
وبلغنا مقام القبر ودخلناه وحيينا صاحبه ودعونا الله أن يغفر له ويرحمه
ووضعت الورد وأغصان الشجر على قبره ، ووزعت ما بقي معي من

طعام على الفقراء . وقبيل خروجه لم أمك عبرى . فقد ذكرت الفقيف
الملثف في أكفاته يوم هتف لي أن الله غفر له وي . وقلت مناحية ربي :
« رب ما أعدلك وما أرحمك وما أعظم فضلك . رب لقد بديتني حتى صهر
قلبي ، رب فاعف عني ، وسعت رحمتك كل شيء . . . ! »

ومن المقابر عدنا إلى بيت ولدي . فلما دخلنا بهو الاستقبال ووجهني
في صدره صورة زوجي الأول شعرت لمآها بصلمة لم أكن قط أتوقعها
بعد أن كنت منذ قليل على قبره وأدبت له عاوجه . فقد أثارت هذه الصورة
أمام بصري منظره الكامل في حياته . كما رأيت عينيه تنظران إليّ وكأنما
تريدان أن تحترقا شغاف قلبي إلى دخيله ضميري لربما فيه الدافع الصحيح
لدهاني إلى قبره وقيامي بما فعلت به عنده . إذ ذلك رأيتني أضطرب في موقف
شعرت بالرعشة تسري في جسمي وخيل إليّ أن ماضي حياتنا يرسم كاملا
أمام بصيرتي ، ولم يعنى ما ذكرت من صفح هذا الرجل الكريم عني .
بل تضاءلت نفسي أمام هذه الذكرى . وبدأ لي أن أوهامي تخدعني . وأنتي
لم أبلغ بعد من طهر القلب والضمير ما حسبت أن الله أكرمى به . وأفاء
علي من أجله حال الرضا .

وعدت في المساء إلى بيت الزوج الذي أصفيتها حي إلى آخر نسمة
من حياته ، واتخذت من أصغر حجرة فيه مصلى أدخلتها إلى نفسي ساعات
وحلق وأحاسب فيها نفسي بعد صلواتي . وكانت كثيرات من صديقاتي
يزرنني يسرين عني بعض ما أمضني من عميق شجني . وكن جميعا
يبحثن لابسات السواد المألوف في مصر ، ورأيت ناصع البياض الذي أله

غير متفق مع مظهرهن ، فلبست السواد مثلهن ، وإن استبغيت طرحتي
البيضاء لصلواتي ولأذكر بها أيام سكينة النفس وطمأنينة الضمير ، وكان
ولدي وابنتي يقضيان معي أوقات فراغهما حتى لا تثقلني الوحدة بهومها
فتريد اضطراب نفسي ووجيعه قلبي .

وبدا لي بعد زمن أن أعود إلى المدينة المنورة لعل في حياتها ما يخفف
عني ويهون علي مصابي ، لكنني خشيت أن يبلغ ما كان يعاودني من تمأخذل
النفس واضطراب الأعصاب مبلغ الخطر على حياتي وأنا في وحدتي وغرتي ،
وقد استشرت الطبيب فأقر مخاوفي وأشار بضرورة تربي ، فأثرت أن أبقى
حتى تبدأ ثائرتي وتثوب إلى سكيني ، فإذا ذهبت بعد ذلك إلى المدينة
استطعت أن أؤدي لله حقه ، وأن أرجو عفو ومغفرتة .

وأقمت في بيت زوجي أستقبل زائرائي وأستريح إلى صحبة ابني وابنتي ،
فإذا لم يبق بالمنزل جليس ذهبت إلى حجرة خلوتي لأؤدي فرائضي وألتمس
عون الله في محنتي . وكنت أحسب أن مضى الزمن كفيفل شفاء نفسي
من الاضطراب الذي كان يعتادني ، لكنني شعرت بعد لأي بأن نفسي
ترداد اضطراباً ، وبأن الأرق يتولاني ، وبأن الهواجس تعصف بفؤادي ،
ثم إني ما لبثت أن استبد في الفزع حين شعرت بأن صلاتي وتخشوعي
وتعجدي وقتوني لم تبق خالصة من الشوائب ، فقد جعل زوجي الذي أصفه
كل حي تتبدى لي ذكراه قنهل من مآقي عبرات مخبئة ، وأذكر ما قلت
له حين زلوتي بالمدينة من أني أصبحت أحبه حب امرأة لرجل ، وأحبه
بحواسي وبدمي وبأعصابي ، فيزداد دمي هملاناً على حب ملك علي

كل وحيدى ، ثم أتى عليه الموت حين بلغ عتوانه . وقبل أن أستمع
بشمرانه .

ولم تكن هذه الذكرى المريرة بعصر أحلامي وكفى . بل كنت
غصة يقظتى ، وكانت ناورى وأنا فى صلاتى . وقد حاولت مغالبتها
بالفرع إلى ربى كى تنقلنى منها فإذا هى تزداد تمكناً من نفسى ووروداً
إلى خاطرى ، وتبلغ من ذلك أن تخرجنى من صلاتى فأستعصر ردى ثم
أعود إلى الصلاة فلا يلبث شيطان الذكرى أن يثير أشجائى ويفسد من
جديد صلاتى .

ذكرت وأنا فى هذا المضطرب النفس ما كنت قطعت له لزوجى من
عهد أن أعود معه إلى مصر بعد زيارة رجب لستمع بهذا الحب الذى
استوفى كماله ، وكيف اضطرت إلى العودة قبل هذا الموعد بأيام لأشهد
احتضاره ولأودعه الوداع الأخير . ترى لو أن الله قد غفر لى حقاً . وكانت
الرؤى التى رأيتها شاهدة بهذه المغفرة صادقة . أفكأن الله يمتحننى هذا
الامتحان القاسى الذى لا يصبر عليه قلب إنسان ؟ أم أن تلك الرؤى كانت
من أفانين الخيال ، وأن هذا المصائب التى حل لى كان بعض الجزاء
الذى ادخره القدر لى عن ماضى حيانى ؟ ..

وكنت أزداد كل يوم شعوراً بالوحشة والعزلة . وبأنى لم يبق لى فى
هذا العالم صديق أو أنيس بعد أن فقدت هذا الصديق الأنيس والزوج
الحبيب . ولم يدر بخلدى فى هذه الساعات التى كوت لواجع الحزن
فيها شعاف قلبى أن الله وهبنى ابناً وابنة يؤسان وحلقى ويصمدان جراح

قلبي ، بل كدت أنسى هذين الولدين اللذين أراهما كل يوم ، وأنسى أنهما
بضعة منى وأنهما امتداد حياتي .

وكذلك كان شعوري بالفاجعة يزداد عنفاً على الأيام حتى لقد
كنت في كثير من الأحيان أقضي الليل مسهدة محزونة ، فإذا أوشك
الليل أن يول ، غفوت وطالت غفوتي فلم أستيقظ لصلاة الفجر ، ثم لم
يسعفني أن أستغفر عما فرط مني ، لأنني كنت لا أكاد أتم استغفاري
حتى أعود إلى نبي وحزني ، وأتدب ما قصي عليه الموت من حبي ، وأعود
على نفسي باللائمة أن لم أعد مع زوجي من المدينة المنورة إلى مصر ،
يوم دعاني للعودة معه ، لأمتع هذا الحب بما يشق غلته خلال الأشهر
الخمس التي عشتها بعيدة عن هذا الحبيب ، ومن يدري ؟ . فلعل لي وصيحتي
يومئذ وعدت معه لما دهمه الموت مستعجلاً ، ولكنت قد بعثت إليه من حيولي
وحياتي ما أطال في حياته وحفظه لي . . .

وكانت تقواي تعاودني فأحاول التغلب على هذه الحال ، فكنت
أمرغ وجهي في التراب لعل روحي تطهر بعذيب جسمي ، وكنت
أصوم الأيام المتعاقبة راجية أن يعيد إلى الصوم طمأنينة النفس ، وكنت
أمرع إلى اليأس والمساكين الذين يقفون على أبواب المساجد أستجديهم
كلمة عطف لعل الله يفر لي ، ثم كنت بعد كل ما أصنع من ذلك أشعر
بترغ الشيطان ، وكأما يقول :

وماذا أفدت من تقواك ومن صلواتك وفنوتك وعبادتك ، إلا أن
قصيت على الرجل الذي كان يحبك حب العادة ! عودي إلى صوابك

وفكرى لعلك أكثر مما تفكرين فى أمسك . ولعل الحظ الذى أتاح
لك من أنفلك من وحدتك . يوم طلقك زوجك الأول يمد إليك يده
مرة أخرى ، ويحيى لك من ينقذك من شجرك ومن هموم كهولتك . !
ولقد سخرت من نفسى حين نزع الشيطان لى . ونظرت مع ذلك
إلى وجهى فى المرآة . فرأيتى ولا تزال فى عيني جاذبة شائى . وإن
خطت الكهولة على جيبى بعض سطورها . وسرعان ما استعدت بالله
من الشيطان ونزعه ، وهتفت به جل شأنه ضارعة إليه أن يققنى من شر نفسى .
وأن يهدينى سواء السبيل .

وإنتى لتساورنى هذه الهواجس . وتعبث فى هذه الموم إذ جاء
إلى ولدى ذات صباح مقطب الجبين . يذكر لى أن أخته تركت بيت
زوجها وجاءت إلى بيته تقيم به . وأنه حاول أن يعيد الصعاء بين الزوجين
فلم تفلح محاولته ، وأن هذه لم تكن أول مرة اشتد الخلاف فيها بينهما ،
وأنه يلجأ إلى التأخير الأمر بحكمتى بعد أن تولاه البأس منه . وبعد أن
نحشى أن يودى إلى نتائج لا تحمد عاقبتها .

وتولتني الدهشة لما سمعت ، فقد كنت مقتنعة إلى يومئذ بأن ما دار
من حديث بينى وبين أبتى حين زارتى مع عمها بالمدينة قد ردها إلى
صوابها ، وأن ما قلته لها عن ذكاء الأمومة وسلطانها القاهر قد مكنها من التغلب
على نزواتها ونزوات زوجها . . وكان مصدر اقتناعى هذا أن ما كان يرد
لى من خطابات ، خلال الأشهر الخمسة التى كنت فيها بعيدة عنهم ، لم يرد
فيه شيء يزعزع هذا الاقتناع ، بل كانت كلها تتحدث عن هناءتهم

وسعادتهم في انتظار عودتي إليهم . . أفجده بعد عودتي إلى مصر جديداً آثار
متازعات الزوجين ؟ . . وهل يحدث مثل ذلك ونحن نعالج همنا ونحاول
أن ندأى مصائبنا ؟ . .

وأطرقت برهة أفكر في الأمر وكيف أتديره ، وفجأة انحدرت من
عيني دموع لخاطر مرّ بخيالي . . أو لم تكفني وفاة زوجي عقاباً لي على ما سلف
من أوزاري ؟ أم يريد القدر أن يضاعف عقوبتي في شخص ابنتي ؟ . .
أين إذن ما كان من توبتي واستغفاري ؟ . . لست أنا إذن ولية الله الصالحة ،
بل لست إذن المذنبه الثابتة ، فها هي ذى توبتي لم تقبل ، وهأنذا أواجه
من قسوة القدر ما لا قبل لي به ، ولا طاقة لي باحتياله .

وبصر في ولدي والدمعة تنحدر من عيني ، فزایل جبينه قطوبه وأقبل
على يواسيني ويخفف ألم عني ، ورفعت عيني ونظرت إلى وجهه ، فإذا
الطية بكامل معناها مرتسمة على أساريره ، طيبة أيه زوجي الأول ، وإذا
هو يقول لي : « لا تجزعي يا أماء . سأبذل لراحة أختي كل ما أستطيع بذله ،
وإذا لم يكن إلى مصالحتها مع زوجها من سبيل ، فسأحمل عبء حياتها ،
لتعيش كريمة ما حيت وما استطعت إلى ذلك سبيلاً » .

وقبلته وقد ازداد تأثري لمشابهته أباه في طبيته ، كمشابهته إياه في
ملامحه ، ألا كم جنيت عليه وعلى أخته بالفصالي عن أبيهما بعد أن
بذل في سبيل رضاي كل ما يستطيع إنسان بذله ! وبعد هنية قلت له :
« عد إلى متزلك وسألحك بك فيه به عما قريب » .

وانصرف الشاب وذهبت أنا إلى خلوتي أصلي بها ركعتين لعل الله

يهديني الرشاد في أمر ابنتي . وما كدت أتم صلاتي حتى امتلأت عياني
بالدمع مرة أخرى ، إذ خيل إلي أن شواظاً من جهنم قد سلط على ضميري
يعذبه ، وأن هذا الشواظ قد صور في شخص ابنتي . وأنتي لن يهدأ لي بعد
اليوم بال ولن تطمئن لي نفس لأنني عذبت أباها . فحق علي أن أوفي
جزاء ما قدمت يداي فأتعذب لعذابها . وأتألم لألمها . وعشاً حاولت أن
أطرد هذا الما جس الذي استبد بي زماناً لم أدر أطل أم قصر . ولولا أنني
خشيت أن يطول على ولدي غيابي لأمسكني هذا الما جس . فلم أستطع
من خلوقي حراكاً . لهذا قمت وأرتديت ملابس حرجي وذهبت إلى منزل
ولدي .

ودخلت على أهله فألقيت زوج ولدي تحدث ابنتي في رفق تحاول
إقناعها بالعود إلى زوجها ، وحلست إليهم سألت ابنتي : ما أعضها ؟
قالت وفي نبرة صوتها حدة لم آلفها يوم تحدثت إليها وأنا بالمدينة المنورة
لأعيد الصفاء بينها وبين زوجها : « لم يبق با أماء في قوس صبري مترع .
ولم يبق من انفصال عن زوجي مفر . لقد كنت أشكو من قبل تدخله
في أخص شئوني ، وقد استطعت بفضل نصائحك أن أتعلم على ذلك
بتمليق غروره تارة ، وبالتظاهر بمواقفته أخرى ، أما اليوم فالأمر مختلف .
لقد تمكنت الغيرة من نفسه على نحوي شبه الجنود ، وهولا يغار من رجل بقاته .
بل يغار من كل رجل يتجه إلي نظرة ، وإن له لصديقاً يزورنا بين الحين
والحين ويحاملني بالثناء على ثوبي ، أو يمدني الإعجاب بحسن حديثي .
فاذا انصرف رأيت زوجي انقلب شيطاناً يحاسبني على كل كلمة قالها

صديقه ، وقلت له حين تكرّر ذلك منه : « إذا جاء صاحبك هذا إلى هنا فلا تدعني لألقاه حتى لا تشور غيرتك » . وكان جوابه : « وما تريد به أن يقول عني ؟ » . أتريدين أن ينهمني بالتأخر ؟ . لكن واجبك ألا تتزني زينة تشير إعجابه ، ولا تتحدثي حديثاً يستدعي طول إنصاته » . وأجبه إلى ما أريد ، فلما جاء صديقه يوماً ودعاني هو إلى مجلسهما ذهبت إليه في ثياب أشبه ما تكون بثياب المنزل ، ولم أزد في الحديث على أن أجيب بإيجاز عما أسأل عنه ، ولم يزد صديقه في أثناء ذلك على أن جاملي بكلمات من مألوف القول ، ومع ذلك اشتد زوحي في تأسيي على إهمال ثوبي ، ثم اتهمني بأني أردت بثوبي وبحديثي أن أثير عجب صديقه بذلك أن أثير إعجابه ... وليس هذا يا أماء إلا مثلاً مما يدور بيننا كل يوم ، أتريين حياة كهذه يمكن أن تطاق ؟ أو ليس انفصالنا خيراً من الصبر عليها أو انتظار ما هو شر منها ! ..

دار بخاطري وأنا أسمع حديث ابنتي أن القدر ينتقم في شخصها من مثل غيري ، حين كنت ألوّح أياها على العناية بصديقتي ، أقدر لهذه المسكينة أن ترث كل حظي ، وأن تعافى في حياتها ما عانيت في حياتي ؟ . . أفحق أن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون ؟ . . وهل تجمع هذه العسكرة القديمة في ألقاظها القليلة ، قوانين الوراثة التي تحدثنا الكتب الحديثة عنها ؟ . . مهما يكن من أمر فن واجب اليوم أن أعالج ما حدث بين ابنتي وزوجها ، فإن نجحت فذلك ما أرحو ، وإن لم أنجح فمن حسن حظ ابنتي أنها لم تتحب بعد ، فهي لذلك غير معرضة في مستقبل حياتها لما

تعرضت وأتعرض له من بيعات ، تثقل الضمير وتسبب إلى النفس الأسى والشجن .

أتمت ابنتي كلامها فقلت :

أريد قبل أن أحكم لك أو عليك أن أسمع كلام زوجك لأنك أدين إلى العدل بينكما ، فدعينا أنت الآن . واذهب يا بني فادع زوج أختك إلى هنا وقل له إنني أريد أن أتحدث إليه . ولم يبطئ ولدى في العود مع زوج أخته ، فهما يسكنان عمارة واحدة . وحياتي الشاب بحية حسنة ، وإن بدا الجدد على وجهه . فلما اطمأن به المجلس قلت له : أنت يا بني شاب حبيب عاقل . وابنتي في عصمتك . فأنت الذي تعصمها من خطئها إذا أخطأت ، وأنت الذي تعصمها من الغير إذا حاول الغير أن يسيء إليها . وأنت كذلك الذي تعصمها من غضبك إذا بلغ هذا الغضب أن يعرضكما لسوء ، فكيف - وذلك مكانك منها - يبلغ التفور بينكما مبلغاً لم يستطع زوجي عليه رحمة الله في وقت من الأوقات أن يتغلب عليه ، ولم يستطع ولدى أخيراً أن يصلح منه ؟ . . . إلى ألبا يا بني إلى حكمتك وحسن رأيك ، فإن تكن زوجك مخطئة عاوتك عليها ورددتها إلى صوابها .

أمسك الشاب برهة عن الكلام وكأنه يريد أن يبحث في ذاكرته عن تهمة يلصقها بزوج ، وأحسبه لم يجد شيئاً معيناً يذكره ، فاندفع يقول : اسمعي يا أماء ! . . يجب أن تعلمي أنني رجل شديد النيرة وفي ابنتك جاذبة شديدة أحبيتها من أجلها لأول ما رأيتها ولا أزال أحبها من أجلها أشد الحب

وأعنفه ، لكن هذه الجاذبية تجعل غيرى من الرجال يحاولون التقرب منها ،
بل التمسح بها ، أنا أعلم أنها لا ذنب لها في ذلك ، فجاذبيتها بعض خطيئتها ،
لكن هذا التقرب يثير غيرى إلى أبعد حد ، ويدعو إلى ما يقع بينى وبينها
من خلاف ، وقد خيل إليها أن انفصالنا بالطلاق هو الدواء لما أشكو
منه ، وأنت تقدرين أن ذلك أسحب الرأى ، وأنه وهم باطل ، فحبي إياها
سبب غيرى عليها ، ولولا هذا الحب العنيف لكان على أن انفصل عنها ،
فهل لديك لهذا الموقف الشاذ دواء ؟ . .

وسارعت إلى إجابته بقول : نعم يا بنى ! . . الدواء الناحع أن
تنجيا أطفالا تشغل أنت وتشغل أمهم بهم ، فيقسم حلك بينها وبينهم
وتخف بذلك غيرتك عليها ، وتوجه جاذبيتها إليهم فتقل عناية الرجال
بالتقرب إليها .

ونظر إلى الشاب في دهشة وكأنما خيل إليه أنى أمرح معه أو أسخر
منه وقال : و هذا اقتراح مفيد لعلاج طويل الأجل . وهو كذلك إذا
اقترضا أن إنجاب الأطفال رهن مشيئتنا . . إنما أريد دواء سريع المفعول
للتغلب على الموقف الذى تقفه اليوم ، ومحال أن يكون الانفصال بالطلاق
هو هذا الدواء ، فأنا أحب زوجتى ولن أتيح لغيرى فرصة الاستيلاء عليها
بردحيتها إليها . وأنت يا أماء سيده مجربة تعرفين ما لا تعرف ، وتستطيعين
أن تصنى الدواء السريع المفعول ، فنحن فى أشد الحاجة اليوم إليه ! . .

قلت : و هذا الدواء فى يدك يا ولدى ، وابتنى طوع بناتك إذا عاجلتها
وعاجلت نفسك به . . ذلك أن تجعل الحكم فى غيرتك لعقلك لا لهواك ،

ولو أنك فعلت لأدركت أنك تبالغ في لوم زوجك على ذنب تعرف أنك بأنها لم تجتبه ، ثم لأدركت أن القدر وهبك سعادة تريد أنت قدس إليها السم يدل أن تستمتع بها صافية سلسيلا . . أنت تلوم زوجك ، بل تؤنبها . بل تعاقبها لأن الرجال يتعلقونها أو ينظرون إليها مفتونين بجاذبية أسبغها عليها بارثها ، وأنت مع ذلك تعلم أن هذه الجاذبية في ملكك أنت . . أنت وحده الذي تستمتع بها نهارك وليلك . في يقطتك وفي أحلام نومك . وأن نصيب غيرك منها لا يزيد على غبطتهم إياك أو حسدهم لك عليها أنت كمن يملك قصراً متيقاً يقف عنده من يمررون به ويتمنون أن يكون لهم مثله ، وهم لا يملكون إلى ذلك الوسيلة . . أفتلوم أنت هذا القصر وتحاول هدمه ؟ أم تزداد اعتزازاً به وحمداً لله على أن جعله لك ؟ . . هذا إلا أن تنهم زوجك في وفائها أو في عفاؤها ، وذلك ما أعينك وأعينها بالله منه . فإن يكن ذلك ورددت الأمر إلى حكم عقلك ولم روح فيه العنان لهلاك استرحت وأرحت زوجك وهيأت غير مكان للسعادة من بيتك . . هذا دوائي الذي أقترحه أمله على تجربة قاسية ، أود ألا تصف بحبكنا تجربة مثلها .

وأطرق زوج ابنتي هنية ثم قال : « إن منطلقك دقيق يا أماء . وسأحاول جهدي أن أغالب غيبي ، لكنني بحاجة إلى معاونة روجي في هذه المحاولة . . »

قلت : « فعد إلى يا بني ساحة الشاي ، وإنتي لعظيمة الرجاء أن تعود الحياة الزوجية بينكما مصلحاً وسعادة . »

ودعوت ابنتي بعد انصرافه وطالعتها بكل ما دار بيني وبين زوجها ،
وأعدت عليها ما ذكرته لها حين زارتني بالمدينة من ذكاء الأنوثة وسلطانها ،
قالت : « أؤكد لك يا أماء أتى أجهدت هذا الذكاء وابتكرت لزوجي من
حيله ما كدت أضيّق ذرعاً به ، ألم أقل لك ونحن بالمدينة إن الرجل إذا
بلغ حبه المرأة حد العبادة لم يكفه أن يملك منها قلبها وعقلها وذوقها وكل شيء
في وجودها ، وإن غيرته عليها تشوبها عند ذلك وحشية تخرج بالرجل عن
منطق العقل وعن منطق القلب ، إلى حال أقرب ما تكون إلى الجنون ؟ .

فكيف ترينني قادرة على معاونتي زوجي كي يغلب على جنون حبه ؟ . .
قلت : « هي يا ابنتي هذه الحال مرضاً ، أو ليس واجباً على الزوجة
أن تسهر على زوجها ، إذا مرض حتى بشي ؟ . . وقد وصفت أنا اللواء
واقنع بفائدته إذا أنت عاونته بذكاء أنوثتك على الاستفادة منه ، فحاولي
مرة أخرى لعل هذه المحاولة تكون موفقة ، فإذا جاء ساعة الشاي فعودي معه
إلى بيتك كأن لم يكن بينكما شيء ، وسأدعوكما الله من كل قلبي أن يهديكما
ويوفق بينكما » .

وكذلك كان ! . . جاء زوجها ساعة الشاي وتحدثنا كأن لم يكن
شيء ثم عادا بعد الشاي إلى مسكنهما وعدت أنا إلى بيت زوجي فأويت
فيه إلى خلوتي ودعوت الله من كل قلبي أن يرزق ابنتي أطفالاً تسعد ويسعد
زوجها بهم ويشغلونهما عن منازعاتهما بما يبعثون إلى حياتهما من روح
الأبوة والأمومة ومن عواطف المحان والمحبة والرحمة . وتفتح قلبي إثر هذا
الدعاء ، ورجوت الله مخلصاً أن يحققه ، فبذ لي كذلك عزاء وسوى

إد يعود الأطفال بنا معشر الجذبات إلى أيام طفولتنا وشبابنا . ويعشرون إلى حياتنا من براءة طفولتهم ما ينبت على أغصان كهولتنا التي كادت تجف وتنوى أوراقاً جديدة تنبت حيويتنا إلى نشاط كادت تنسأ . وكادت لذلك تنظر إلى المستقبل بعين زایلها كل أمل أو رجاء . لأن المستقبل يصح في نظرها المنحدر الذي يهوى بنا إلى القضاء .

والحق أنني لم أكن أمزج مع زوج ابنتي ولا كنت أسخر منه . حين قلت له إنه إن أعجب هو وزوجه أطفالاً شغل هو بهم عن غيرته وشغلت هي بهم عن تمليق الرجال جاذبيتها . وظل ذلك دأبهما سنوات عدة حتى يكبر الأطفال ، وفي هذه السنوات يصبح هو أقل غيرة . وتشغل زوجه عن نفسها بأبنائها ، وتتغير حياة الأسرة كلها تغيراً أريحوا أن ينع عليها الرضا والطمأنينة ! . .

وانتقلت من حجرة خلوتي إلى عرفة نومي . فلما دخلت سريري وأطفأت الأنوار ذكرتني غيرة زوج ابنتي بما كان من غيرة أيام شبابي . وما كان هذه الغيرة من أثر في حياتي . وما أدت إليه من انفصال بالطلاق عن زوجي ، وأن طفولة ولدينا لم تمنع يوماً الانفصال ولم تشغلني عن هذه الغيرة على أنني دفعت ما أثارته هذه الذكرى من مخاوف . بأن غيرة المرأة ليست كغيرة الرجل ! . . حسب الرجل من المرأة أن يؤمن بوفائها له ، ومحافظة على عهده . ليطمن قلبه . وليستريح إلى أن يجاملة الرجال لامرأته بالثناء عليها ، بل بتمليق مزاياها ومواهبها . لا أثر لها في وفائها وإخلاصها له ولأسرتها . أما غيرة المرأة فترجعها إلى أن الرجال لا وفاء

لم إلا ما ندر ، لأن تعدد النساء في طبعهم ، ولأن عدم وفائهم لا يدخل على أسرهم من ليس منها ، فمن حق المرأة أن تكون دائمة اليقظة دفاعاً عن نفسها ، ولما عذرها إن دفعها القيرة إلى مثل ما دفعني إليه ، مع ما في ذلك من مضرة بها وبأبنائها ، وأقنعتني هذه الحجة بأن ابنتي ليست معرضة لمثل مصيرى ما وقت هي لزوجها ، فاطمأنت لهذا المنطق وذهبت في الطمأنينة إلى عالم النوم .

تتصف شهر شعبان ، فأديت لزوجي واجبه ، فذهبت إلى قبره ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر ، وتلا قارئ القرآن هناك ما تيسر منه ، ووزعت الطعام على الفقراء ، ثم عدت إلى بيتي ولا يزال أثر البكاء في عيني ، وفي الأيام الباقية من هذا الشهر أخذت أعد لسهرة رمضان ، وأفكر في نظام حياتي بعد نهايته .

وكان هذا التفكير في سهرة رمضان جديداً على ، فلم يعتد زوجي - ولا اعتاد زوجي الأول قبله - إحياء هذه السهرة . ولا أخالني كنت أفكر في إحيائها لولا ما عاودني من تقوى صباى مما دفعني بعد ذلك للحج والمقام بالمدينة ، ولولا وفاة زوجي وفاة حزت في كبدي - فلما بدأ رمضان ، وأخذت القارة التي اخترتها ترتل القرآن بصوتها الرخيم ، شعرت لساعه بطمأنينة النفس إلى قضاء الله وقدره ، وازددت يقيناً بمغفرة الله للتائب الذي صدقت توبته وإنابته ، وإن أيقنت كذلك بأن التوبة الصادقة تفتضي صاحبها التكفير عن خطايا به صدق التدم عليها ، والإيمان بأن ما أصابه وما يصيبه من جرائها ليس إلا الجزاء العادل عنها جزاء يجب أن نتقبله شاكرين

وقضيت رمضان في العبادة والتهجد . أقيم الليل . فإذا تناولت طعام السحر ، وصليت الفجر ، أويت إلى مضجعي لأستيقظ لصلاة الظهر أو للجمع بين الظهر والعصر . وقبيل المغرب تجيء القارئة تنفوا ما تيسر من القرآن ، فإذا غابت الشمس صليت ثم أفطرت ثم صليت العشاء وبدأت السهرة ، فجامعني بعض صديقاتي وزارني أبنائي . وأقمنا نستمع للقرآن ونتناول الحديث حتى إذا انصرفوا قبيل موعد السحر . أقمنا أتحدث مع القارئة حتى نتناول طعام السحر معاً ، ثم ذهبت إلى حجرة خلوتي وأقمنا بها حتى أصلي الفجر لأذهب بعد الصلاة إلى مضجعي .

وانقضى رمضان وأدبت في فترة العيد واجباته لزوجي ولزوجتي الأول ، فذهبت إلى قريتهما ومعى أولادى ، وهناك قمنا بالمراسم المألوفة في هذه المواسم .

وأخلفت أفكر في المستقبل القريب وما أصنع فيه . ذلك أننى جال بخاطري غير مرة في أثناء رمضان أن أحج البيت وأهب حجى لزوجى لعل الله يعفّر له ، وأن أحج العام الذى يليه وأهب حجى لزوجى الأول عسى الله أن يرحمه . وإنتى لكذلك إذ تناولت مع البريد رسالة فضضتها فتولتني الدهشة ، وأخذتني العجب . فهي مكتوبة بالألمانية . ونظرت في التوقيع فإذا هى من زوج السفير الألماني الذى عرفت منذ أكثر من عشرين سنة . والى اعتزت يوماً بمركزها وحنسيتها فقال ذلك من كبريائى ومن قوميى . فأنقنت الألمانية وقرأت أمهات أدبها ، حتى لا تزعم أنها خير منى في المجتمع مكاناً ، وايتسمت لهذه الذكرى ، ذكرى الشباب وكبريائه وغروره .

وطلوت الرسالة فإذا صاحبها تذكر سابق معرفتنا ، وأنها جاءت إلى القاهرة إثر وفاة زوجها تسلي عن مشجتها بذكريات سعيدة نعمت بها في عاصمة مصر مع ذلك الزوج الذي كان يحبها من كل قلبه ، وتطلب إلى أن نلتقي في الموعد الذي أحدهه لنجدد بالتقائنا عهداً تنافسنا فيه ، ثم تصافينا ولم يطرأ بعد ذلك على صفائنا ما يشوبه .

وابتسمت بعد أن فرغت من تلاوة الرسالة ، فقد أثارت أمام خاطري عهد الشباب ونضارته ، ورحمت أمام كهولتي تلك المرأة الشابة الجذابة الساحرة الحديث التي كتبها ، والتي أثارت إعجاب المعجيين وتعلق المعلقين ، وذكرتي لغة الخطاب بذلك الألماني الذي صرقت في الأقصر ، والذي زارني بعد ذلك في القاهرة ، بعد أن بلغ إعجابه بي أن قال إنه يراني على الأرض كما يرى الله في السماء ! ألا ما أجمل الشباب وبراعة غروره ! ما أحمل تلك الأيام التي بشر الإنسان فيها بأنه محور الوجود ، وأن كل ما في الكون يشجبه بنظره نحوه ويتحدث إليه . . . بلى ما أجمل أخطاء الشباب وخطاياهم وأوزارهم . . . إنها مصدر سعادتنا في شبابنا ، والتكفير عنها والثوبة منها مصدر نعيمنا في كهولتنا . ترى لو أن الشباب لم يتنفخ مع غروره إلى المخطأ وإلى الخطيئة فهل تكون الكهولة وهل تكون الشيخوخة إلا فراغاً ثقيلاً لا معنى له ، إلا أنه غرفة انتظار للأجل المحتوم ؟ !

ترى كيف حال هذه السيدة الألمانية زوج السفير الذي سبقها إلى العالم الآخر ؟ . . ألا تزال فيها بقية من ذلك الجمال الذي كانت تنبئه به ، وتلك الكبرياء القوية التي كانت تدفعها إلى التعالي على الناس ؟ ! . .

ومالى أسأل نفسي عن ذلك وحسبى - لأواه رأى العين - أن أضرب
لها موعداً كما طلبت فى كتابها . وعدت أن يصبح الخير خيراً . إذ أراها
وأتحدث إليها وأذكر معها عهداً سعدت به ثم شقيت . ونعمت به ثم
استغفرت الله عنه .

وكتبته إليها أدعوها لتناول الشاي معى فى يوم قريب صيته . وجاءت
لموعدى فكذبت أنكرها لأول ما رأيته . . لقد ابيض شعرها . وتجمد وجهها .
وأطفاً منظارها الأزرق برقع عينا . وأثقلت سحتها جسمها . وبدت وكأنها
تكبرى بأكثر من عشرين سنة . وحمدت الله حين رأيته لما أتم به على ثم
أخذت أحدثها عن سالف أيامنا وفتوة شبابنا . فتهتت ثم قالت :
« ورحمتاه لذلك العهد السعيد ! . . لم أكن أصدق ما قيل من أن مصرية
فى عهد الفراعنة كتبت على قبر ولدها : « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر
من يموت بمن يحبهم » . وكنت أحسب أن الحياة لذاتها أحب إلينا
من كل من نحب . لكنى رأيت أمى وأبى وإخوتى وأعز صديقائى وأصدقائى
يتهاوون إلى قبورهم كما تهوى ربيع الخريف بورق الشجر إلى الأرض .
فكنت أشعر لكل صلعة بجانب من نياط قلبى ينقطع . ونفسى تساقط
أنفساً ، وبحبوتى بغيبض معينها وكأنما يذهب جزء منها مع كل واحد
منهم إلى مثواه الأخير ، فلما مات زوجى العام الماضى كانت الضربة القاضية .
حتى لقد شعرت بأن حياتى كلها تذبل وتفهى . وأنتى أصبحت كالشجرة
التي سقط عنها كل ورقها ، وانحدر منها ماء حياتها . فهى تجف وتجف
لتسقط مع أول ربيع تعصف بها ، وقد جمعت كل قوتى لأقاوم أحرانى

ومصائبى ، وبحث إلى هنا ألتمس فى الذكريات السعيدة الماضية ما يزيد فى هذه القوة ، لأتمكن من مغالبة الحياة والتغلب على همومها . أترانى أنجح فيما قصدت إليه ؟ . . أم أن لعنة هذه المصرية القديمة ستحل به بعد موت أحتى ، وسيكون ما بقى من حياتى بعدم أنشودة يؤس وشجن .

قلت : ولا تذهب نفسك حشرات على الماضين يا صديقتى ، وليكن لك فى إيمانك بالله وعفو ومغفرة لك ولم ما تسكين به عن همك وشجك . . . قالت : ليتنى عرفت الإيعان يا صديقتى فى شئى لألجأ إليه اليوم ؟ ! . . أما ولم أعرفه إذ ذاك فإنتى أخجل من نفسى أن أستعيره اليوم لأجعل منه وسيلة صلاوى وعزائى ، ولو فعلت فمن ذا أخدع ؟ . . أخدع رب السماوات ، والمؤمنون يذكرون أنه يعلم السر وأخفى . . . أم أخدع نفسى وأتخذ من هذه العارية علاقة أعالج بها سقم حياتى كما يخذع الطفل باللعبة يقدمها إليه أهله ليتسلى بها عن مرضه أو عن ألمه . . .

لم أدر بم أجيبها فصمت برهة جالت بخاطرى فى أثنائها حكمة لقاسم أمين : « أتعس البرية إنسان ضاع إيمانه بدس الموت بسمه فى حياته فيفسد عليه لذتها وينغص عليه شهوتها » ، ودعائى تذكر هذه الكلمة للعلول بالحديث إلى أمور لا تثير نفسها ، فسألتها : كيف تريد أن تقضى إقامتها فى مصر؟ وأجابتنى أنها تريد أن تقضى ستة أسابيع بأسوان ، وأنها كانت تودّ لو تصطحب فى هذه الرحلة ، واعتفرت بأن معاداتنا القومية لا تميز لحزينة مثل أن تغادر المدينة التى تقيم بها ، إلا أن تذهب لأداء فريضة دينية . عند ذلك سألتنى عن ولدى وما صاروا إليه فذكرت لها أنهما تزوجا . .

قالت : « أسعدك الله بهما - وكم أتمنى اليوم لو كانت في ابنة تجعل مستقبل
أعلا أرجوه - وتكون لي في هذا الحاضر عواء وأمساً . لقد كنت صدر شبابي
أعجب لبنات وطنك كيف يحزن في كبدهن ألا يتجبن . وكنت أسأل
نفسى ما لمن يردن أن يحسن في الحياة أعباء ما أغناهن عن حملها ؟ !
وكان عجبى يزداد حين أسمع الآباء . إذ يكفل الواحد منهم عدة أبناء
وينفق على كل ابن وائمة أضعاف ما أنفق عليه أبوه ليكون خيراً منه في
المجتمع مكاناً . أما اليوم فاني أشعر بالحزن أن لا ولد لي كشعورى بالحزن
لفقد زوجي . . لقد أظلم ماضى يموت زوجي والأحبة من أهلى وأصدقائى .
وأظلم مستقبلى لأننى لا أرى فيه طفلاً يمت إلى أحشائى . وضعت براءة
ابنسامته إلى نفسى أجمل الرجاء في أن أسعد بسعادته . . لم يبق لي إذن
ماض ولا حاضر ، ولم يبق لي إلا أن أجاهد الحياة بعزيمتى المفردة ما بقيت .
وسأجاهدها وسألتمس في ظلماتها قباً من نور . لا أدري كيف أجده .
ولكنى موقنة بأن العزم القوي الصادق قد ير على كل شيء . بل قد ير على
المستحيل ! . . .

لا أريد أن أقص هنا ما دار بينى وبين صاحبتى من حديث عن
ذكريات شبابنا ، فالحديث في أيام الكهولة عن ذكريات الشباب يوجب
الحسرة . وحسبى - وأنا موشكة أن أختم قصتى - ما سطرت فيها مما أثار
ألمى وتلنى له جيبى . ثم حسبى أن أذكر ألى ررت صاحبتى هذه وزارتنى
من بعد غير مرة ، ولقى رأيتها برغم صلابة عزمها في مجالدة الحياة . تصنف
أحياناً حتى تتحدر الدموع من عينيها حين تذكر أحبها . وحين تذكر

زوجها ، وحين تذكر عقمها . وكم قلت بعد كل زورة من هذه الزورات
ظاهر بدى وباطنها شكراً لله على ما أنعم به على من ولد ، وما أبقي لي
في كهولتي من صحة وحيوية لا تخجلان حين يذكر الشباب . أما الأحبة
الذين انحدروا إلى ظلمات القبور فهم السابقون ، ونحن الملاحقون ، وشكراً
له أن أنعم علي في صباي وكهولتي بنعمة التقوى والإيمان ، لأستغفر لم الله ،
ولأثوب إليه لعله يشملهم ويشملني برحمته .

وكم أدخلت هذه المقارنة بين حظي وحظ هذه الألمانية من الطمأنينة
إلى نفسي ، وذكرتني بأن متاعب الحياة ومصائبها لا تحصي بحق علينا
أن نحمد الله ، كلما رأينا حظنا من ذلك خيراً من حظ غيرنا .

وذكرت لي الألمانية حين زارني للمرة الأخيرة أنها مسافرة إلى أسوان
بعد ثلاثة أيام بقطار عربات النعم . وذهبت إليها قبيل الغروب من يوم
سفرها أودعها فرأيتها في هو الفندق الذي تقيم به ، ففندق سميراميس ،
ورأيت معها رجلاً يتحدث إليها وكأن بينهما معرفة قديمة . فلما اقتربت منهما
قام الرجل فأقبل نحوي مبتسماً وهو يقول : هذه أنت ! . وحلفت به فإذا
هو الألماني الذي عرفت بالأقصر منذ أكثر من عشرين سنة ، ولا تزال تبدو
عليه مع ذلك مخايل الفتوة ، برغم بياض فؤديه وبياض شعرات في شاربته
وحاجبيه ، واغتنطت لمراه وذكورت إعجابه بي كما ذكرت المدينة التي قدمها
لي من صنع يده ، وابتسمت حين حييته وقلت : « ألا ترى أن العالم ضيق
الرقعة وأن الزمن سريع الدوران ؟ ! » . قال وهو يتسم كذلك : « كما أرى
أن كهولتك لا تقل جاذبية عن شبابك ، ألا تسافرين الليلة مع السعيرة ؟ ..

أنا مسافر في القطار الذي تسافر به . ولكني سأغادره بالأقصر أقصى بها أياماً
أستعيد بها أسعد ذكرياتي قبل أن أذهب إلى أسوان » . وأجبت : « أمتعكنا
الله بالسلامة ، أما أنا فاني أعد منذ الآن عدلي للسفر إلى الحجاز » .

وجلست معه إلى السفيرة فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . وتذكر
خلاله ما بالأقصر من روائع الفن المصروعى ، وفيما نتحدث سمعنا ضجة إعجاب
في شرفة الفندق فأسرع الألماني يرى سببها ثم نادانا قائلاً : « هلمنا !
إن مغرب الشمس اليوم بديع ، وهي تلي من أشعتها على صفحة النيل وعلى
أشجار الجزيرة ما يحيلهما سحراً رائعاً » . وقمنا في بظء . السفيرة لسمتها
وشيخونتها ، وأنا لزهدي وتقواي . لكننا ما لبثنا حين رأينا هذا المنظر البديع
أن وقفنا نستمع بروعة جماله في مثل حماسة الشباب . وكأننا لم نر من
قبل مثله على كثرة ما تنعم به مصر من مقارب الشمس الرائعة . فلما آن
للشفق أن يول . والليل أن يسحب على هذا المنظر البديع رداءه ، بدأ
الناس يعودون إلى مجالسهم . وبدأت أستدير ، لأدخل بهو الفندق من جديد .
لكني شعرت يدي ناعمة على كتفي فنظرت فإذا صاحبتي صديقتي . وما لبثت
حين استلرت إليها أحبيها أن قالت : « أنت هنا ! . . ذلك ما لم أكن
أصدقه ! » على أنها رأت صديقنا الألماني مقبلاً نحونا وسرعان ما عرفته
وقالت : الآن فهمت ! . سألتها : ماذا فهمت ؟ . . ولم تحب . ولم يذكر
الألماني شيئاً عن سحر عينيها وكأنه لم يفتن بها في شبابها . فسرى ذلك
منه ، واعتبرته خير جواب على سوء ظنها . وجاءت السفيرة بخطاها المتناقلة ،
فقدمت إليها صديقتي ، ثم قلت : أخشى أن يحول وجودي دون إلقاءك

النظرة الأخيرة على متاع سفرك ، ووجهت الكلام إلى صديقتي قائلة .
« لقد جئت أودع السفيرة في سفري هذا المساء إلى أسوان ، فألقيت
صديقتنا الألمانى معها ، فسررت لهذه المصادفة ، كسرورى لمقابلتك الساعة
مصادفة كذلك ! . . »

واستأذنت السفيرة وصاحبنا الألمانى ورجوت لهما سقراً سعيداً ، واستأذنت
كذلك صديقتى وعدت إلى بيتى . فلما خلوت إلى نفسى أثارت هذه الزيارة
بمصادفاتهما أمام خاطرى منظرأ تعدل روعته منظر معيب الشمس الليلة ،
على صفحة النيل وعلى أشجار الجزيرة ، ذلك منظر معيب الشمس الذى
كنا نشهده ونحن فى شرقه « ونتر بالاس » بالأقصر ، ونرى النيل ونرى
هضاب « طيبة الأموات » تتابع عليهما ألوان هذا المغيب فتبعث إليهما من
الجلال والجمال ما يثير فى النفس أعظم الإعجاب ! . . . عند ذلك ذكرت
الإنجليزية التى لقيتني عامين متتابعين بوتر بالاس ، والتى أخذ المنظر
بمجامع قلبها فحدثتني - وهى تخلق به - عن إعجابها الذى لا حد له
بالفراغة وحضارتهم ، وقلب فى نفسى : من يدري ؟ . . . لعلها كانت بين
الحاضرين فى شرقه سميراميس الليلة ، هذا إن لم تكن قد تخطت حدود
عالمنا إلى عالم الأرواح .

وهاجت هذه الذكري خواطر شباني فأردت كتبها فأوليت إلى حجرة
تخلوئى وقسرت نفسى على التفكير فى جهاز سفرى إلى الحجاز . فقد كنا
إذ ذاك فى منتصف دى القعدة ، ولم يكن باقياً على سفر البانخرة التى أبحر
عليها غير أسبوعين اثنين . وإتنى لأفكر فى ذلك إذ دخلت على ابنتى ومعها

زوجها . وقالت بعد أن قبلتني : جئت يا أمه أنزف إليك البشرى . لقد استجاب الله دعائك أن تصبحي جدة لطفلك المنتظر .

لم أشعر منذ عهد بعيد بمثل السعادة التي شعرت بها لسماع هذه البشرى . وفعت إلى ابنتي أقبلها وأقبل زوجها . وأنا في فيض من النعمة أنساني كهولتي وأنساني خلوة عبادتي وفتح أمامي آفاقاً من الأمل الحلو وصور لناظري الطفل المرجو باسم الثغر والعينين . وأرايه يكبر بعناية أمه وعنايتي فيملاً الليث على أبيه وعلى بشراً وجوراً . وخرجت من خلوتي وسعي ابنتي وزوجها وذهبتا إلى غرفة نومي وقد عقد السرور لساني : فلما اطمأنت الأنفس قلت :

- كنت أفكر الساعة في جهاز سفري إلى الحجاز لأهب حجتي إلى عمكا ، ولأفهم بالمدينة حتى عامنا المقبل لأحج كرة أخرى وأهب حجتي لأبيك يا ابنتي . ثم أتيت بعد ذلك بالمدينة راحية أن أظل في رحابها حتى يقبضني الله إليه بها وأدفن في ترابها . أما وقد وهبنا الله هذه النعمة ، التي بشرتني الساعة يا ابنتي بها . فسأعود بعد حجتي وزيارتي هذا العام أنتظرن إلى جوارك حتى أطمئن عليك وعلى وليدك . ثم أعود العام المقبل فأحج وفاء بنصري وراحة لضميري ، وعهد الله حسن الثواب .

وأخلفتنا تتحدث ، وجعلت أذكر لابنتي ، وقد حلت عقدة لساني ما يجب عليها لنفسها ولحبيبها في أثناء حملها . وكان زوجها يستمع لحديثنا وعلى محياء أمارات السعادة ولا يقول شيئاً ، وفيما تتحدث دخل علينا ابني وزوجه ، وكانا قد عرفا النبأ السعيد قبل قساركانا في حديثنا ، وأراد

ابنى لهذه المناسبة أن يصرفنى عن الحج هذا العام لأبقى إلى جانب أخته ،
فقلت له إن حجى وزيارى لن يطولا أكثر من ستة أسابيع ، وإن أخته
لا يزال أمامها فى الحمل أكثر من ستة أشهر ، وما كنت لأعجل عن الرفاء
بنفرتوته والسبيل مهياً للوفاء به .

وحجبت وزرت ووهت حجى وزيارى لزوجى ، ولم يستغرق
ذلك كله ستة الأسابيع التى ذكرتها لولدى ، ووقفت ساعة الوداع أمام
المقصورة النبوية وهتفت بصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام : « معذرة
نبي الله ورسوله ! . . » لقد حرصت على أن أبقى فى جوارك حتى يختارنى
الله إلى جواره ، فأنتم فى عالم الأرواح بطمأنينة السكينة الأبدية ، فأبى
التقدير إلا أن أعود إلى وطنى وأهلى ، وأنتظر هذا المولود ليرد إلى أهله وإلى نعمة
الحياة ، وليحملنى من جديد أعباءها ، فكان شفيعى عند ربى ليجعل لنا
من هذا الحفيد سعادة ونعمة ! . . .

وعدت إلى مصر وبقيت إلى جوار ابنتى حتى تم وضعها فأسمت الوليد
باسم جده ، أبيها ، واستأثر هذا الوليد البريء بكل ما فى قلبى من حنان
وبر ، ونظرت إليه يوماً وهو بين ذراعى وقلت فى نفسى : ترى لو أن جده
زوجى الأول كان اليوم حياً ، أفأكان قلبانا يجتمعان حول هذا الطفل
يحفظانه بأجمل ما يتبضان به من عواطف ؟ ! . . ولم ألبث حين مر هذا
الخطر بخيالى أن سألت نفسى : كيف سولت فى يوماً أن أفكر فى قسم كل
صلة بينى وبين هذا الرجل ؟ . . وأن أنسى أننا إذا انفصل جسمانا نصير
قلبنا إلى اجتماع حول حفيدنا ، وأن الحكمة تقتضينا لذلك أن نعالج بالصبر

أهواء الحياة . فأهواء الحياة قلب . وأساس الحياة الحق أصبه . فإذا
استبقيناها في قلوبنا أبقينا على خير ما في الحياة . بل أبقينا على أساس
الحياة ، وسر وجودنا فيها .

وجعل الطفل ينمو فيزيد نموه في محبتي إياه . فلما انقضت أشهر
على مولده ، وأن موعد الحج وفيت بنذري فمحبجت وزرت ووهبت حجتى
وزيارتي لجلده ، ثم عدت إلى مصر متشوقة أشد الشوق لاجتلاء ابتسامته .
وجاء ولدى يستقبلنى بالسويس ، وفيها نحن في طريق الصحراء إلى القاهرة
زف إلى البشرى بحمل زوجة ، وبأننى سأصبح عما قريب جدة لولده
كما أتى اليوم جدة ابن أخته . واغتنبطت وقبلته ونحن في السيارة تهب بنا
الأرض إلى غايتها فلما بلغت بيتي ألفت ابنتى وزوجها وابنها وزوج ولدى
في انتظارى ، ثم ألفتهم جميعاً يقبلون على يقبلوننى ويرجعون لى حجاً
مبروراً ، وتناولت الطفل العزيز من أمه وقبلته وضعمته إلى صدرى . وشعرت
به قلدة من قلبي .

وفي المساء ذهبنا جميعاً تناول العشاء في بيت ولدى ، وجلسنا كلنا
في بهو الاستقبال وفيه صورة زوجى الأول وكأنه ينظر بعينه الثابتين إلى بنيه
وحفده .

عند ذلك أبقت بأن الله أكرمى بأن لم أعقب من زوجى الثانى ،
وإن حر في نفسى ما تيفته ، من أن هذا الرجل الذى أنقذنى وأكرمى
سبصبح عما قليل نسياً منسياً .

أترانى أستطيع بعد اليوم أن أذكر فى العود إلى المدينة المنورة لأقيم

في رحابها ، حتى يقبضني الله إليه بها ، فأدفن في ترابها ؟ .. أم أن الحياة
أمسكني هنا مع أبنائي وحفلي الأبرياء ، حتى أرقد الرقعة الأخيرة في
صحراء القاهرة ؟ ..

وهل أنعم الله عليّ بهؤلاء الحفلة ليكونوا عزاء كهولتي وشيوختي ؟
أم أن الحياة لا تزال تعد لي من بأساتها ما يضطرب قلبي لمجرد تصوره ؟ ..
علم ذلك كله عند ربّي . والحمد لله الذي وهبني على الكبر نعمة المرد
إلى الحياة والمتاع بها من جديد مع حفلي الأطفال الأبرياء ! ..

خاتمة

فرغت الآن من تدوين قصتي ، متوجهة فيها الصديق جهده طاقتي ،
أتراني أستطيع أن أقامر فأنشرها على الناس ؟ ! ..

لقد كان جيني يتدى وأنا أسطر بعض صفحاتها ، ولشد ما أخشى
إذا هي نشرت أن ينلني هذا الجبين كلما لاح لخيالي قارئ يحاول أن
يستشف من خلالها ما يرضى طلعت ، أوقف منها على أسرار لا شأن لغيري بها ،
ولا علم لغيري بدوافعها وملايساتها ! ..

ولست آسف مع ذلك على ما أضفقت من وقت في تدوينها ، فقد تمت
في أثناء كتابتها بألوان من المسرة ، سواء وأنا أجور المصحف المفضية أو
الأركان المظلمة من حياة قلبي على ورود ، وعلى أشواك يثير مسها في
النفس أحاسيس متباينة تبعث إليها الرضا يرغم تضاربها ، لأنها مظهر
حياتي خلال عشرات السنين التي طويت من عمر الحياة ، والتي أذاقني
كل ما في الحياة من هناء وشقاء ، ومن سعادة وبؤس ، ومن لذة وألم ، ومن
أمل ويأس .

وكيف آسف وإني لتزني الغيطة كلما عدت إلى هذه الصورة التي
رسمتها من حياتي ورأيت هذه الحياة كاملة أمامي ، لا يحجبها عنى تماقب

فأقلعت عنها ؟ ! . . . وهل يعتبر الشباب بما أصاب آراءهم وذوئهم . إذا
لاحتاطوا فلا يقعون فيها وقع هؤلاء الآباء فيه ؟ وكيف تنفع العبرة وفي الحياة
من الغيب المستور ما تتغير معه المقدمات والنتائج تغيراً لا يستطيع أكثر الناس
ذكاء وعلماً توقعه ، بله التقدير له ! . . . وكيف يستطيع الشباب أن يتخذ
العبرة من المشيب ولا يعرف من أمر المشيب قليلاً ولا كثيراً ! . . . لقد طاماً
أطلعت في شبابي على مثل هذه القصة فوجدت في مطالعتها تسلية ولذة
لم يتعدى حدود اللذة والتسلية . وكان لأصحاب هذه القصص من البراعة
ما ليس لي ، فإذا لم تنظر قصتي بتسلية قرائها فن حقهم أن يتقنوا مني
وأن يلعنوا غروري . وخير لي أن أتى النعمة واللعة كليهما . فلا أطالع الناس بما
يدفعهم إليهما . ذلك خير لهم ولي ، وأدعى أن ينطقوا وتتهم فيما يعود عليهم
بما يلذهم ويرصهم .

ولا أحبني أبالغ حين أذكر أن العبرة بما يصيب الغير كلمة لا مدليل
لها في الواقع ، فنحن لا نعتبر إلا بما يصيب ذاتنا .

كانت لي أخت طفلة لما تبلغ عامها الثاني ، وكانت ياديه الذكاء منذ
طفولها ، وكان أبي مغرمًا بها ، يعتبط بمداعبها ، ويقضي في ذلك سويحات
كل يوم . وقد أدنى من إصبعها يوماً حوداً من الكبريت ملتباً . ثم سجد
في حركة تدل على خوفه من أن يحرقها ، لكن الصغيرة لم تقطن لهذه
الحركة ولم تعتبر بها حتى أدنى والدتي عود الكبريت الملتب من إصبعها
فكاد يحرقها ! . . . هنالك أدركت أن النار تحرق ، وصارت تسرع إلى
سحب يدها كلما أدنى أحد النار منها . وذلك شأننا جميعاً في الحياة .

إذا لم نكن نحن موضع العبرة لم يكن للعبرة مدلول في نظرنا . . وكثيراً ما نخطئ في تقدير مدى العبرة مما يصيبنا نحن ، فلا نفيد منها إلا القليل .
وليس عجباً أن تكون العبرة كلمة لا مدلول في الواقع لها ، فنحن نحكم على الأشياء بمجموعة من العناصر الذاتية ، يختلف الحكم باختلاف تأثيرها بما في الحياة وتأثيرها فيها . . نحن نحكم بعقلنا ، وعلمنا ، وعواطفنا ، وميولنا ، وإحساسنا ، وأعصابنا ! . وهذا المزاج من العناصر يتأثر بما نكون عليه من أحوال الغضب والرضا والطمأنينة والقلق ، كما يتأثر بالبيئة المحيطة بنا ولا سلطان لنا عليها ، فأى هاتيك العناصر تكون أقوى أثراً في اعتبارنا بما نقرأ ؟ . . وقد تكون البيئة أقوى من كل تلك العناصر أثراً ! . .

كنت في العاشرة من سني ، وكنت تلميذة بالمدرسة السنية للبنات في العشرة الأولى من هذا القرن العشرين ، ولم يكن يومئذ للبنات مدارس مصرية غير السنية وأم عباس ، وإني لأمر بفناء الدار دعاني والذي فتحت غرفة الجلوس وحوله فيها جماعة من أصدقائه ومعارفه ، بينهم مطربشون ومعمون ، وسألني والذي عما تدرسه في الجغرافيا والتاريخ ، وخرجت من عنده وانتعجت جانباً في القساء فلم ألبث أن سمعت مناقشة حادة بين الموجدتين مع أبي ، يبدى أحدهم إعجابه بما سمع مني ، ويعترض آخر على ذهبي إلى المدرسة اعتراضاً شديداً ، ويعترض على تعليم البنات بوجه عام ، قائلاً : إن مصر البنت أن تتزوج ، فما فائدة أن تتعلم القراءة والكتابة ؟ بل إن في تعليمها لضرراً أبلغ الضرر ، إنه يمكنها من قراءة الروايات وما فيها من نصوص الحب ومن كل ما يفسد الأخلاق ، وهي بعد في غير حاجة إلى هذه

المعرفة ، فنحن لا نعلمها لوظيفة في الحكومة ولا لعمل من الأعمال يحتاج إليها القراءة والكتابة . واستمر الرجل يؤيد هذا الرأي . ويزداد حماسة في تأييده كلما ازداد مناقشه تأييده لضرورة تعليم البنات . لتشكل وجوده الإنساني . وقد كان يؤيد ذلك المعارض في تعليم البنات يومئذ كثير من المعلمين تعليماً مدينياً ، وكانت البيئة تسبغ يومئذ مثل ذلك التفكير . ترى أيمكن أن يدور مثل هذا التفكير اليوم بخاطر أحد أو يجرؤ على الجهر به وقد أحبط البنات مجلسهن من مقاعد الجامعة . وقد غصت وظائف الحكومة بالكثيرات منهن ، وقد أصبحت ميادين العمل الحر مفتوحة أمامهن ؟ ! . . . أفلا يشهد ذلك بأن آراءنا وأحكامنا تتأثر بالبيئة إلى حد كبير ؟ . . . وهي تتأثر كذلك باعتباراتنا الذاتية ، وقتية كانت هذه الاعتبارات أو غير وقتية . مما يدل على أن العبرة التي نتعلمها في القصص قليلة الأثر في الواقع ، إن كان لها من هذا الأثر أي حظ ؟ !

لم أعن نفسي بهذا الحوار حول تعليم البنات يوم سمعته وأنا في موقف على مقربة من باب غرفة الجلوس . بل فررت مسرعة إلى داخل الدار خيفة أن يراني أحد ويتساءل عن سبب وقوفي . وما كنت لأفكر يومئذ أي التحوارين على حق ؟ . . . فقد كان أبي هو الذي يفكر لي وهو الذي يغذ تفكيره ، إن شاء أن أبقى بالمدرسة بقيت . وإن شاء أن أعادها وألزم البيت كان الرأي رأيه . ولقد مرَّ هذا الحوار من بعد بخاطري فأثار مني ابتسامة إشفاق حيناً ، وابتسامة تحالطها المرارة أحياناً ، أما الإشفاق فعلى هذا الذي نوهم أن البنات تتعلم الحب في قصص الحب ، وهل تقرأ الطير قصص الحب وهي في

عشها وفي سمواتها ، وللطير على اختلاف أجناسها قصص في الحب
أروع من قصص بني الإنسان ؟ . فالحب غريزة وكبت في الذكر
والأنثى يتنسى كلاهما من سبلها تخليد النوع . والفن الساذج في الحقل
وفي المصنع ، والفن الساذجة التي تشاركه العمل ، ينجذب أحدهما نحو
صاحبه ، في غير حاجة إلى كتاب يقرؤه ، مدهمين في ذلك بحكم الغريزة
التي لا تقهر ، وهما يسمعان من قصص الحب ما يفهما عن قراءة شعر
« المجنون » أو قصة « روميو » و « جولييت » ، فإذا توهم أحد أن قراءة
قصص الحب مفسدة للأخلاق فهو جدير بالإشفاق وبأكثر من الإشفاق .

وأما المرارة التي خالطت ابتسامتي أحيانا فقد أثارها في نفسي شعور
ذاني لا اعتبار قل أن يرد بخاطر أحد . فأنا كثيرة القراءة ، وإدمان القراءة
يدعو إلى شيء من العمق في التفكير ، وإلى عزلة لا مفر منها يدفع إليها التفكير
العميق . فهذا التفكير فيما حولنا يكشف لنا عما في حياة المجتمع من حمق
وسخافة ، ويدفعنا للتعالى على هذا المجتمع ، بل إلى ازدرائه في كثير من
الأحيان .

هذا لون من القنوط لا ريب ، وهو غرور يجعلنا تنطوي على أنفسنا
وتتذوق دخيلتنا غيطة كبيرة بتفوقنا ، ولكنه يدمس إلينا مع هذه الغيطة
مرارة سببها انكاشنا عن الناس وتعلو التفاهم بيننا وبينهم في كثير من الأحيان ،
وقد تبلغ هذه المرارة أن تدفعنا إلى حافة اليأس فلا ينجينا منه إلا أن نزل
إلى المستوى العام ، وأن ننسى أنفسنا في ألوان من المسرة يعجبها ذوقنا ، لولا
هذه المرارة التي تضطربنا للرضا بما لا نرضاه بحكم عقلنا وثقافتنا .

وإذا كان للبيت من السلطان على أحكامنا ، قدمت فلظروفنا الخاصة سلطان لا يقل عن سلطان البيت . هذه الظروف هي التي تكيف اتجاهنا في الحياة ، وهي التي تكيف أحكامنا على ما رأينا وما نرى : أليس يختلف حكم الأغنياء عن حكم الفقراء على الأشياء ؟ وهل يختلف حكم الأذكياء عن حكم الأغبياء . ويختلف حكم أبناء الحرفة الواحدة عن أبناء الحرفة الأخرى على ما يرون ؟ . أو لا ترى شخصاً يوهب منذ مولده أذنًا واعية للأنغام والألحان ، وآخر يوهب عيناً بصيرة بالصور والألوان ، وثالثاً لا يعنى من الأنغام ولا من الألوان بأكثر من التسلية . برغم ما له من ذكاء نفاذ وحسن بصر بالأمور ؟ ! . . .

وليس يسيراً أن نحيط بظروف الناس الخاصة ، فهي لا تحصى
ولكني طلباً سألت نفسي . أترانا يرغم هذه الظروف نزعاً أن لنا في الحياة
اختياراً بأي مقدار ؟ . وهل كان لي اختيار أن أولد أنثى ، وأن أولد في المدينة
وأبواي من أهل الريف ، وأن أكون على حظ قليل أو كثير من الجلال
أو الكد أو الجاذبية ، وأن يكون أبواي من طبقة معينة من طبقات المجتمع .
وأن يقيدني كل واحد من هذه الظروف بقيود لا فكاك لي منها . ولا سلطان
لي عليها ؟ . وما هذا الاختيار الذي يحدثونا عنه إذا كان الإنسان مهتماً
بالعقاب لعمل يخرجه ، موعوداً بالمثوبة إذا عمل صالحاً ؟ أم نحن مختارون
حين يشتهي أحدنا صنفاً من الطعام ويشتهي صاحبه صنفاً آخر لأن معدة
الأول لا تطيق ما تطيقه معدة الثاني ! . الحق أشهد أنني لم أشعر بأنني
كنت مختارة في يوم من الأيام ، وإنما فرضت الحياة نفسها عليّ ، فلم يكن

في اختيار في قبول ما فرضت ، منذ كنت طفلة إلى هذا اليوم وإلى أن
أموت .

وإذا لم يكن لنا في الحياة اختيار ، فهل يبقى لكلمة العبرة معنى
أو مدلول في الواقع ؟ . . لقد عدت غير مرة إلى كتب قراءتها منذ سنوات
عديدة فتعير حكي على ما فيها عما كان عليه يوم قراءتها أول مرة ، فأيقنت
أن أحكام شبابنا تختلف عن أحكام كهولتنا ، لأن عاصر الحكم الكينة
فيتا يختلف مزاجها يتعلم السن أو بتغير أحوالنا المعيشية أو باختلاف البيئة
التي تحيط بنا أو بما يمر بنا من حالات الصحة والمرض ، والتجارب والفشل ،
والرجاء واليأس ، وبعض هذه الكتب التي عدت إلى قراءتها ليست قصصاً
جانب التسلية فيها أوفر من جانب العبرة ، بل هي كتب تفكير ورأى ،
أو كتب علم أو فلسفة ، فإذا كانت صور الأشياء تتغير أمامنا على هذا
التحرف فهي إذن وهم وليست حقيقة ، وهي صورة لما نشعر به في لحظة
أنفسنا أكثر منها حقيقة كونية مادية يمكن الاطمئنان إليها .

وبعد ، فهل في الحياة حقيقة ثابتة ؟ أم أن ما في الحياة كله حقائق
وإن كانت لا ثبات لها ؟ . . أتري الحقيقة هي التور أم الظلام ، وهي
السعادة أم الشقاء ، وهي الرجاء أم اليأس ، وهي الحياة أم الموت ؟ . .
لقد طالما تبدلت لتفكيرى صور وألوان من هذه الحقائق التي لا ثبات لها ،
والتي تمر بها على دوام تغيرها متغاية متجددة ، فأوقفنى التفكير فيها في حيرة
كانت بعض أسباب المرارة التي انتلست إلى حياتى ، وبعض أسباب العزلة
التي باعدت بينى وبين الناس ، ثم وجدت الوسيلة في بعض الأحيان إلى

التغلب عليها بأن اندججت في غمار الناس وسرت سيرتهم . وطلقت التفكير حتى اهتديت آخر أمرى ، وفي مولات عمرى ، إلى أن الحقيقة فوق هذه الصور جميعاً ، وإلى أن التماسها يقتضيها السوفوق صور الحياة في انبساطها وتجدها لتطالع وجه الله الأكرم ذى الجلال .

وما لي أطيل التفكير فيها كتبت ؟ وهل ينشر على الناس أولاً ينشر ؟ وفيها إذا كان لكلمة العبرة مدلول في الواقع أو أنها ليس لها هذا المدلول ؟ أليس خيراً أن أدع التفكير في هذا لغيري ، فإذا رأى قصة حياتي حقيقة بأن يطالعها غيري فيجد فيها متعة أو عبرة فليشرها . وإلا فليلق بها في سلة المهملات كما يقولون ! . . . إني قد اعترمت مفارقة مصر إلى حيث أستطيع التوجه إلى الله بكل قلبي الشمس عنده المغفرة من ذنوبي ، وأجدته الهدى إلى الحقيقة التي يستريح لها وجداني . ويوم يتاح لي تنفيذ عرضي فسأدع هذه القصة بين يدي من يستطيع أن يحكم عليها بأعدل مما أستطيع . وله يومئذ أن يفعل بها ما يشاء ، فإذا نشرت فلن أستطيع قراءتها مطبوعة لأنني سأكون بعيدة عن مصر ، بعيدة عن هذا المجموع الذي نعمت به وشقيقت ، والذي عرفت بين أعضائه ألقائاً من السعادة والبأساء ، ومن اليأس والرجاء ، أكثر مما عرفت كثيرات من بنات جنسي . . .

والله أسأل أن يهيئ لي فيما تبقى من أيام حياتي سيلاً أهدي من السيل التي اخترت إلى اليوم ، وأن يكتب لي أن أموت راضية مرضية ، وأن يجعل من توبتي ومن أيام شوقي شقيعاً عنده ، إليه المرجع والمآب ، وهو الحكم العدل العليق بالخير .

• • •

أتممت كتابة ما تقدم عشية الحج أول مرة ، وكنت أحسب يومئذ
أني فرغت من تدوين قصتي ، ورسمت الطريق لما بقي لي في الحياة من
أسابيع أو شهور أو سنين كثيرة أو قليلة ، لكن القدر سرعان ما أثبت لي مرة
أخرى أنه لا يعبأ بإرادتنا الإنسانية ، وما نرسم أو نصور ، وأنا أضعف أمامه
من أن تثبت بإرادتنا شيئاً في لوحه .

صحيح أنني حسبت وزرت مدينة الرسول ، وعزمت أن أجاوره ،
لكن هنا العزم ما لبث أن عثت به الأقدار واضطرتني للعود إلى القاهرة
لأواجه بها أقسى ما يواجهه إنسان في حياته . وعدت فعزمت أن أقم بالمدينة
آملة أن أظل في رحابها حتى يقبضني الله بها ، وأدفن في ترابها ، فإذا هذا
العزم لا يثبت للمرة الثانية أكثر مما ثبت للمرة الأولى ، وإذا بي أضطر للمقام
في مصر في جوار أحفادي ، سعيدة بهذا الجوار ، مشفقة من هذه السعادة ،
عائفة أترقب ما يغني الغد في طياته مما قد أنوره به .

وقد قصصت ذلك كله بعد زمن طويل من تدوين ما جرى في
شبابي وبوادر كهولتي . ولست أدري أيغني أحد بأن يطلع عليه ، ولذلك
تركته مع ما سبقه إلى من يستطيع أن يقطع فيه بحكم فينشره أو يهمله .
وسواء عليّ أنشرت هذه القصة أم لم تنشر ، فحسبي أن دوتها ولن أعود
إلى قراءتها من بعد ، قلبي من هؤلاء الأحفاد ما يشغلني عنها ، وما كان
زوجي الأول يسميه غيرتي وفروري .

والله أرجو أن يتوب عليّ ويغفر لي ، إنه الغفور الرحيم . . .

محتويات الكتاب

صفحة	
٥	تقديم
١٣	الفصل الأول
٤٣	الفصل الثاني
٦٧	الفصل الثالث
٩١	الفصل الرابع
١٢٣	الفصل الخامس
١٥٥	الفصل السادس
١٨٣	الفصل السابع
٢١٧	الفصل الثامن
٢٤٩	الفصل التاسع
٢٨٥	الفصل العاشر
٣١١	الفصل الحادي عشر
٣٤٣	خاتمة

للمؤلف

نسخة لأحد ١٩٦٤	الإيمان والمعرفة
الطبعة الثالثة ١٩٧٣	عنهان بن عماد
الطبعة الأولى ١٩٦٤	الشرق الجديد
نسخة لأحد ١٩٦٣	الإمبراطورية الإسلامية
الطبعة الثانية ١٩٦١	مكدنا خلقت
الطبعة الرابعة ١٩٧٤	مذكرات في السياسة المصرية الجزء الأول
الطبعة الأولى ١٩٥٥	الجزء الثاني
الطبعة الأولى ١٩٥١	الفاروق عمر
الطبعة الخامسة ١٩٧٢	الصدوق أبو بكر
الطبعة السادسة ١٩٧١	في منزل الوحي
الطبعة الخامسة ١٩٧١	حياة محمد
الطبعة الثانية ١٩٧٤	عشرة
الطبعة الثالثة ١٩٦٦	نورة الأدب
الطبعة الأولى ١٩٦٦	ولدى
الطبعة الأولى ١٩٥٤	تراجم مصرية وغربية
الطبعة الأولى ١٩٤٩	عشرة أيام في السودان
الطبعة الثانية ١٩٦٨	في أوقات الفراغ
الطبعة الثانية ١٩٦٥	جان جاك روسو
الطبعة السابعة ١٩٧٤	رئيس
الطبعة الأولى ١٩٦٢	دين مصر العام - بالفرنسية
الطبعة الثانية ١٩٧٤	قصص مصرية

١٩٨٩/٢٧٦٥	رقم الإيداع
ISBN ١٧٧-٠٢-٢٧٦٥-X	الترقيم الدولي

١/٨٩/١٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع. ١٠)

To: www.al-mostafa.com